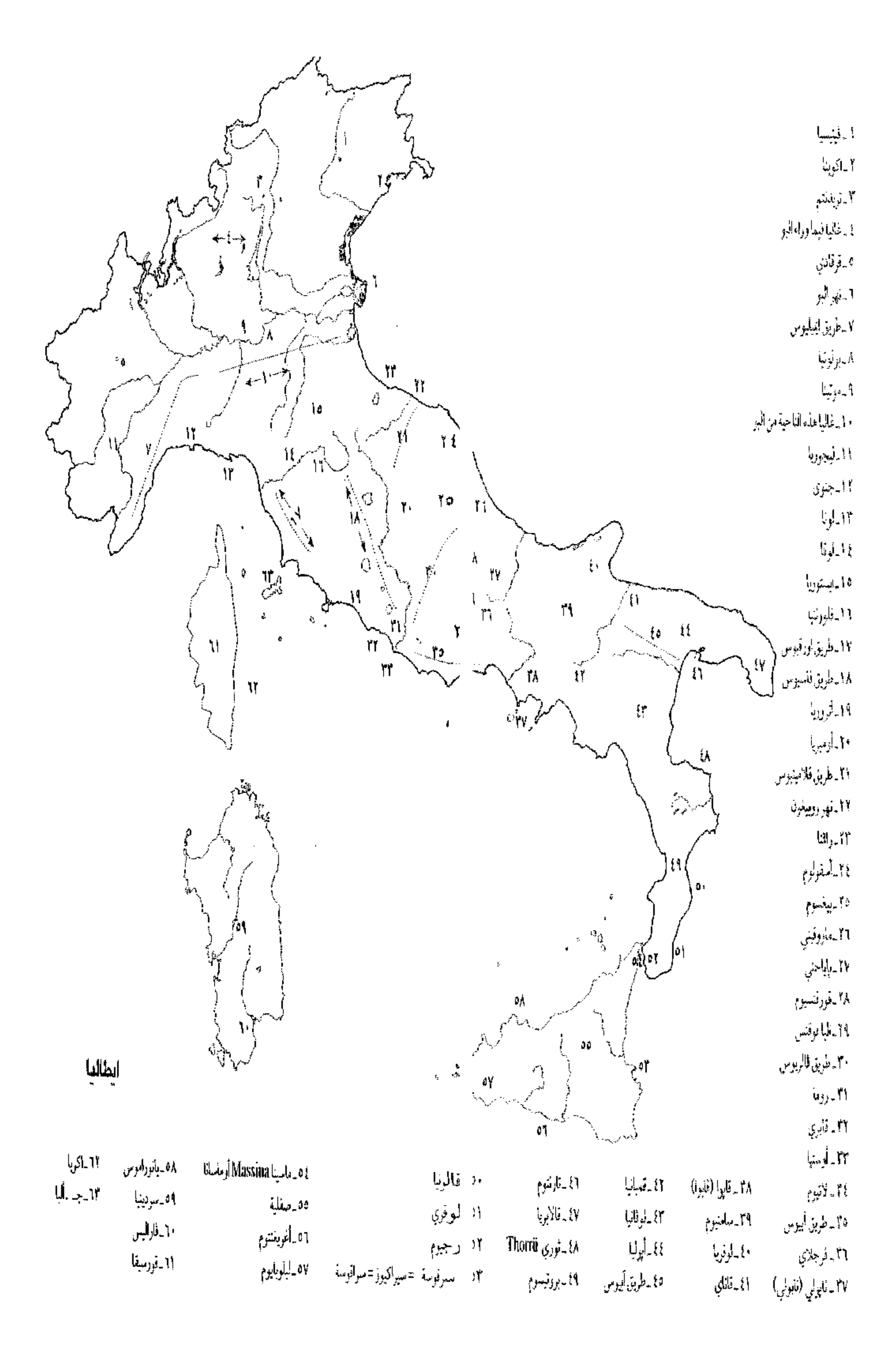

إبراهيم أيوب
التاريخ الروماني
الشركة العالمية للكتاب



ايطاليا
١ ـ فينيسيا
٢ ـ اكويليا
٣ ـ ترينتوم
٤ ـ غاليا فيما وراء البو
٥ ـ فرقالي
٦ ـ نهر البو
٧ ـ طريق ايميليوس
٨ ـ برنونيا
٩ ـ موتينيا
١٠ ـ غاليا هذه الناحية من البو
١١ ـ ليجوريا
١٢ ـ جنوى
١٣ ـ لونا
١٤ ـ لوقا
١٥ ـ ايستوريا
١٦ ـ فلورنتيا
١٧ ـ طريق اورليوس
١٨ ـ طريق قاسيوس
١٩ ـ أتروريا
٢٠ ـ أومبريا
٢١ ـ طريق فلامينيوس
٢٢ ـ نهر روبيكون
٢٣ ـ رافنا
٢٤ ـ أمفولوم
٢٥ ـ بيخسوم
٢٦ ـ ماروقيني
٢٧ ـ بابليجني
٢٨ ـ قورفنيوم
٢٩ ـ ألبا فوقنس
٣٠ ـ طريق فالريوس
٣١ ـ روما
٣٢ ـ قايري
٣٣ ـ أوستيا
٣٤ ـ لاتيوم
٣٥ ـ طريق أبيوس
٣٦ ـ فرجلاي
٣٧ ـ نابولي (نابولي)
٣٨ ـ قابوا (قابوا)
٣٩ ـ سامنيوم
٤٠ ـ لوقريا
٤١ ـ قاناي
٤٢ ـ قمبانيا
٤٣ ـ لوقانيا
٤٤ ـ أبوليا
٤٥ ـ طريق أبيوس
٤٦ ـ تارنتوم
٤٧ ـ قالابريا
٤٨ ـ ثوري Thorrii
٤٩ ـ بروتيسوم
٥٠ قالنيا
٥١ لوقري
٥٢ رجيوم
٥٣ سرقوسة = سيراكيوز = سراقوسة
٥٤ ـ ماسينا Massina أو مسانا
٥٥ ـ صقلية
٥٦ ـ أغريغنتوم
٥٧ ـ ليلوبايوم
٥٨ ـ بانورامومس
٥٩ ـ سردينيا
٦٠ ـ فارالبس
٦١ ـ قورسيقا
٦٢ ـ اكريا
٦٣ ـ جـ . ألبا



التاريخ الروماني

التاريخ الروماني

صف: المؤسسة العربية الحديثة

إخراج وتنفيذ قسم الكمبيوتر في الشركة العالمية للكتاب

طبع في لبنان

أيوب، ابراهيم

التاريخ الروماني، ابراهيم أيوب، الطبعة الأولى

ISBN 1-55206-050-0

دكتور
أبراهيم رزق الله أيوب
استاذ مساعد في التاريخ
الجامعة اللبنانية

التاريخ الروماني



الاهداء

الى زوجتي وأولادي الأحباء، وطلابي الأعزاء

د. ابراهيم رزق الله ايوب

المحتويات

مقدمة

نحاول في هذه الدراسة للتاريخ الروماني منذ تأسيس روما، وقيام النظام الملكي فيها، مروراً بالعهد الجمهوري ووصولاً الى العهد الامبراطوري، متوخ عرض الأحداث التاريخية بأسلوب علمي مجرد، بعيداً عن السرد الممل، حتى لا نخرج عن الهدف المنشود، وهو إعطاء اكبر قدر من المعلومات والتحليلات في أضيق مساحة ممكنة، ومعلقاً على بعض الظواهر الاجتماعية التي صبغت المجتمع الروماني بصبغة خاصة، كالعلاقة بين الطبقات والعلاقة بين النظم السياسية والاجتماعية، حتى يتمكن القارىء العربي متخصصاً وغير متخصص فهمها على حدٍ سواء.

تقع هذه الدراسة للتاريخ الروماني في ثلاثة اقسام:

شمل القسم الأول، تحديداً للكيان الجغرافي الذي نشأت عليه الحضارة الرومانية القديمة، وتعريفاً بسكان ايطاليا القدماء من الإيطاليين وغير الإيطاليين، في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، وربط ذلك بالنظم السياسية والأوضاع الإجتماعية والاقتصادية والدينية والعسكرية في مدينة روما.

كما شمل القسم الثاني ما كان من امتداد لنفوذ روما الى ما وراء حدود المدينة، وبسط سيطرتها على القسم الأوسط والجنوبي من ايطاليا، وما حدث من حروب طاحنة بين روما وقرطاجة، داخل ايطاليا وخارجها. الأمر الذي دفع بالرومان الى توسيع سيطرتهم لتشمل البحر الأبيض المتوسط بكامله، حتى غدا «بحيرة رومانية». فكان له أهمية خاصة انعكست ايجابية على روما وسائر ايطاليا، وبعض بلدان البحر المتوسط. لكن هذه الإيجابية كانت سلبية الى حدٍ كبير على شعوب الولايات الرومانية، بسبب ما لاقاه أهلها من استعمار وتسخير للبشر والحجر.

ولو لم يبدأ الصراع الطبقي في روما، ويثور العبيد في صقلية، والمزارعون

الحلفاء في ايطاليا وخارجها، لما شعر بعض ابناء الطبقة الارستقراطية بوجوب القيام ببعض الاصلاحات لترميم انظمة الجمهورية الرومانية، علهم في ذلك، يجعلونها تعبّر مدة اطول، قبل أن تلقى المصير الذي تسير اليه، بفضل السياسة الغاشمة المتبعة.

والواقع ان القسم الثالث كان الفترة التي استفاد منها الرومان أصحاب النزاعات العسكرية، لتحقيق الدكتاتورية، الانتقال إلى فترة الحكم الأمبراطوري، واستخدام الوسائل المختلفة، لاخضاع الشعوب بالترهيب والترغيب.

وينبغي ان يكون مفهوماً، أن التاريخ الروماني بأجزائه الثلاثة، كان على نحو ما كلاً واحداً، بين أجزائه من التفاعل والعلاقات ما يجعل دراسة أي منها على حدة، ودون التعرض للأجزاء الباقية، امراً عسيراً، إن لم يكن مخطئاً.

صيدا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥ الدكتور ابراهيم رزق الله ايوب

الفصل الأول

الكيان الجغرافي

لم ينحصر التاريخ الروماني في القديم في الكيان الجغرافي لشبه الجزيرة الإيطالية. وانما تعداه الى حوض البحر الأبيض المتوسط، حتى غدا بحيرة رومانية. والحضارة المتوسطية هي حضارة رومانية في أواخر الألف الأول قبل الميلاد، كما كانت شبه جزيرة البلقان قديماً، وانتشرت في أرجاء البحر الأبيض المتوسط، والى ما ورائه الحضارة اليونانية. فقد كانت شبه جزيرة ايطاليا هي الإطار الجغرافي، وبخاصة مدينة روما دون باقي المدن الإيطالية، لانطلاقة الحضارة الرومانية. هذا عائد الى أن مواطني روما استطاعوا ان يجعلوا من مدينتهم الصغيرة دولة كبيرة ذات قوة عظمى، بسطت سيطرتها على ايطاليا بأجمعها تدريجاً، تحت زعامتها. بينما لم تنجح أي من المدن اليونانية، أثينا او اسبرطا، او طيبة في لعب الدور الذي لعبته روما.

١ ـ الموقع والحدود

تمتد شبه جزيرة ايطاليا في عرض البحر الأبيض المتوسط. فتقسمه مع جزيرة صقلية الى حوضين: شرقي وغربي. كما تتوسط سواحل اوروبا على المتوسط. يبلغ طولها من الشمال الى الجنوب حوالى ١١٥٠ كلم، في حين ان أقصى عرض لها لا يتجاوز الـ ٥٨٠ كلم في سهل البو Poe، ويتضاءل عرضها ليصل الى ١٥٠ كلم في الجنوب.

يحيط بشبه جزيرة ايطاليا من الشمال الشرقي جمهورية كرواتيا ـ يوغسلافيا، ومن الشمال النمسا وسويسرا، ومن الشمال الغربي فرنسا، وغرباً البحر التيراني، وجنوباً البحر الأيوني، وشرقاً البحر الادرياتيكي. يتبعها عدد من الجزر الصغيرة والكبيرة أهمها: جزيرة «صقلية» التي يفصلها عن شبه جزيرة

ايطاليا مضيق مسينا «Massina»، وجزيرة سردينيا الفاصل بينها وبين ايطاليا البحر التيراني، وجزيرة ألبا Alba الواقعة بين جزيرة قورسيكا الفرنسية وبين ساحل ايطاليا الغربي.

٢ ـ السطح:

ينقسم سطح ايطاليا الى قسمين هما:

أ ـ السهل الكبير الشمالي أو وادي البو:

يحيط بهذا السهل بلاد الألب الجبلية من الشمال والغرب، فتطوقه سلسلة جبال الألب على هيئة هلال غير منتظم ممتد من البحر الأدرياتيكي قرب تريستا حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط قرب نيس على الريفييرا Riviera الفرنسية. أرض السهل الكبير الشمالي منخفضة ومستوية، الا انها تنحصر تدريجياً من الغرب إلى الشرق، ولا يزيد ارتفاعه عن ١٠٠ متر بجوار جبال الألب في الشمال، أو جبال الأبنين في الجنوب الغربي.

وعلى العموم ارض هذا السهل رسوبية لحقية، ترتفع طبقاتها الترابية بسماكة ٢٠٠ متر، فهي لذلك خصبة جداً. وينتهي السهل الكبير الشمالي ـ البو ـ في الشرق بساحل منخفض جداً تكثر فيه المستنقعات والغدران التي تترسب فيها الأتربة المحمولة مع مياه روافده الجبلية. لهذا السبب تتسع مساحة اليابسة على حساب البحر بمرور الزمن. وأحياناً تترك الحواجز الترابية خلفها مستنقعات كبيرة كتلك المستنقعات التي بنيت عليها مدينة البندقية Venus.

وتمتد السهول الضيقة في الشرق والغرب على السواحل عند منحدرات جبال الأبنين مثل سهول؛ اتروريا واللاتيوم والقمبانيا المحيطة بمدينة نابولي وسهل ابوليا Apulia في الشرق. لذا أتقن الإيطاليون القدماء الزراعة وتربية الماشية قبل أن يتقنوا التجارة.

ب ـ القسم الجنوبي أو جبال الأبنين:

يمتد القسم الجنوبي لشبه جزيرة ايطاليا من الشمال الغربي نحو الجنوب

الشرقي لمسافة ١٠٠٠ كيلومتر. بينما لا يزيد عرضه في اي مكان عن ٢٠٠ كيلومتر. تخترقه سلسلة جبال الأبنين من الشمال الى الجنوب مروراً بجزيرة صقلية، وهي كالعمود الفقري لشبه الجزيرة الإيطالية ذات الحجارة الكلسية والغضارية الملتوية والمتهدمة.

تنحدر هذه الجبال تدريجاً نحو الادرياتيك القليل العمق، تاركة شريطاً ضيقاً تقطعه عدة مجارٍ مائية قصيرة، باستثناء، سهل ابوليا في أقصى الجنوب، الذي يشكل مراع ممتازة للماشية. بينما تنحدر هذه الجبال بسرعة، نحو الحفر الإنهدامية الكبرى التي تحيط بالبحر التيراني، والتي ظهرت فيها البراكين والينابيع المعدنية الكثيرة. بعض هذه البراكين خامدة في أتروريا ولاتيوم وقمبانيا؛ وبعضها الآخر ما زالت تقذف بحممها حتى الآن. مثل بركان فيزوف Vesuve قرب مدينة نابولي، وبركان استرمبولي في احدى جزر ليباري، وبركان اتنا Etna على ارتفاع ٣٢٧٤ متراً في شرقي جزيرة صقلية.

وعلى الرغم من أن جبال الأبنين ترتفع الى ٢٩١٤ متراً في قمة غران ساسو Gran Sasso من جبال أبروز Abaruze. يتخللها كثير من الوديان الخصبة والفسيحة، وتغطيها الغابات الكثيفة، وتكثر عند سفوحها او منحدراتها المراعي الواسعة.

وتؤلف جبال الألب الإيطالية في الشمال قوساً من الجبال التي تنحدر بسرعة نحو سهل البو. وهي قليلة العرض، يتخللها عدة ممرات ـ أودية ـ مثل: ممر التيرول في الأديج Adige. وفي هذه الجبال توجد أعلى القمم الإيطالية مثل قمة مونت روزا Mont Rosa ٤٦٣٥ متراً القريبة من بحيرة «ماجيور» Majiore عند الحدود السويسرية.

٣ ـ الأنهر

تغذي جبال الألب الإيطالية العالية، التي تكسوها الثلوج، والعيون المتفجرة في التلال المحيطة بالسهل الكبير الشمالي، بمياه الأنهر والروافد الإيطالية. ومع هذا تندر الأنهر الصالحة للملاحة بسبب قصر مجراها وانحدارها، وأهمها:

نهر البو Poe: ينبع هذا النهر من المنحدرات الألبية الغربية على ارتفاع ٢٠٤٢ متراً. ترفده عدة روافد آتية من جبال الألب. تغزر في الربيع لذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال المتوسطة الارتفاع. كما تغزر في الصيف، لذوبان الثلوج الألبية. وتغذي نهر البو روافد قليلة أخرى آتية من جبال الأبنين، تغزر مياهها في فصلي الربيع والخريف. لهذا تكون مياه نهر البو ذات غزارة شبه دائمة، وهو من أعظم أنهر ايطاليا. ويصب في بحر الادرياتيك بعد ان يكسب السهل الكبير الشمالي بالرواسب المخصبة من الطمي والمياه الغزيرة.

وهناك عدة أنهر اخرى اهمها: الأرنوس Arnus والتيبر Tiber وليريس Liris وفولترنيوس Volternius. إلا أن هذه الأنهر النابعة من سلسلة جبال الأبنين، سريعة الانحدار، شديدة التدفق، قصيرة المجرى، تصب في البحر بما تحمله مياهها من أتربة، وصخور رملية، وجذوع الأشجار وأغصانها، فتتراكم هذه عند المصبات حيث تقلل من عمق مياه البحر، لتتسع مساحة اليابسة على حساب المياه تدريجاً بمرور الزمن، ولا سيما عند مصب نهري التيبر والأرنوس.

٤ ـ السواحل

تتصف سواحل ايطاليا التي يزيد طولها على ٣٠٠٠ كيلومتر، بأنها قليلة التعاريج، فقيرة في الخلجان العميقة، والموانىء الطبيعية المحمية من العواصف والعميقة المياه. فيكاد الساحل الشرقي يخلو الا من ميناء صالح لرسو السفن هوبرنديزيوم Brundisium في أقصى الجنوب. بينما الساحل الغربي العامر بالسكان أكثر من الشرقي، والغني بالأرض الواسعة. لم تكن توجد فيه الموانىء الجيدة الا في خليج نابولي، وفي أقصى الشمال، وهما ميناءا جنوى ولوني بورتوس Lunne portus في خليج جنوى، فضلاً عن ميناء تارنتوم Tarentum كبرى المدن اليونانية في أقصى الجنوب الإيطالي.

٥ ـ المناخ

يختلف المناخ في ايطاليا باختلاف مناطقها. فمناخ شمال ايطاليا قاري تقريباً

مع شتاء قارس، وصيف محرق. أما بقية المناطق والجزر كجزيرة صقلية وسردينيا وألبا... فمناخها متوسطي مع فوارق بين شمال جبال الأبنين وجنوب شبه الجزيرة في الحرارة. وهذا الاختلاف يرجع الى الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة، والرياح العكسية، ورياح البورا التي تسيطر على بحر الادرياتيك، ورياح السيروكو القادمة من الصحراء الأفريقية.

ومناخ منطقة جبال الألب الايطالية فوق مرتفعاتها المتوسطة، وخصوصاً قرب البحيرات، على غاية من الاعتدال، لأن رياح الشمال القاسية لا تصل اليها بسبب الحواجز الجبلية العالية. كما أن تأثير الرياح الرطبة الآتية من البحر الأبيض المتوسط تمر فوق جبال الأبنين تؤثر في منطقة البحيرات. بينما لا تؤثر ابداً على سهل لمبارديا بسبب كثرة المستنقعات في السهول الجنوبية، وزيادة الرطوبة في الجو. وعلى العموم، فإن تراكم الرواسب عند مصبات الأنهر والمستنقعات تتسبب في إنتشار مرض الملاريا لتوالد الناموس في هذه البيئة[1]. وأن مناخ شمال ايطاليا يشبه إلى حد كبير مناخ اوروبى الوسطى، بحرارته الشديدة، وامطاره الغزيرة.

٦ ـ جزيرتا صقلية وسردينيا

ـ جزيرة صقلية هي أكبر الجزر التابعة لايطاليا، والواقعة الى الغرب منها. ولا يفصلها عنها الا مضيق مسّينا Massina. كما أن هذه الجزيرة لا تبعد عن الشواطىء الافريقية اكثر من ١٢٨ كيلومتراً. لذلك كانت محط أنظار قرطاجة حيث كانت للقرطاجيين مستعمرات فيها، ومطمح آمال روما في السيطرة عليها في بداية الحرب البونية الأولى. وتعتبر جبالها العالية حتى ٣٢٧٤ متراً امتداداً لجبال الأبنين الإيطالية، حيث بركان «أتنا» Etna لا يزال مشتعلاً.

ـ أما جزيرة سردينيا فتغطي ارضها الحجارة القديمة، والألواح الحجرية التي ترتفع فوق بعضها، فتشبه في تركيبها أراضي شمال افريقيا، وحتى في حياتها النباتية أيضاً.

---

(١) الشيخ، حسين الرومان ص: ٣٦ دار المعرفة الاسكندرية ١٩٨٩م.

الفصل الثاني

سكان ايطاليا القدماء

١ ـ سكان ايطاليا

كان سكان ايطاليا القديمة يعيشون في هيئة وحدات قروية تتكتل كل مجموعة في هيئة دويلة تقوم على النظام القبلي وتُدعى Pagus. ويمكن ان تنتظم بشكل تنظيمات أو اتحادات. ومن هذه الشعوب القديمة في ايطاليا.

أ ـ التيراماري Terramare

إن كلمة Terramare تعني الشعوب الملتصقة بالأرض. ويعود هذا الشعب في الأصل الى شعوب البلدان الشمالية، ففي حوالى السنة 2000 ق.م، انحدر نحو الجنوب الدافىء سكان بحيرات سويسرا، واستولوا على وادي البو. وعلى المنطقتين الوسطى والشرقية حوالى عام 1400ق.م. وقد أقام هذا الشعب قراه فوق منطقة تكثر فيها المستنقعات عند حافة البحيرات. وبنوا فيها منازلهم الخشبية على عمد مغروزة في الماء والوحل عُرفت بما يُسمى «مساكن الركائز»[١]. إتخذت الأكواخ في البداية شكل الدائرة ثم لم تلبث أن أصبحت مستطيلة.

وكان الشعب التيراماري يعيش من زراعة الأرض ببعض انواع الحبوب الغذائية وتربية الماشية واصطياد الحيوانات البرية. واتقنوا الحياكة وصناعة الخزف واستعمال النحاس فضلاً عن الخشب والبرونز. وقد عُرف العصر الذي وجدوا فيه بعصر البرونز.

---

(١) رستم، اسد. عصر اوغسطس قيصر وخلفائه ١/ ١٥ المكتبة الشرقية، بيروت ١٩٥٣.

ب ـ الفيلا نوفا Villanova[1]

يعتقد ان هذا الشعب قد ظهر في بداية الألف الأول ق.م. وبالتحديد حوالى 800 ق.م. ولعلهم جاءوا من منطقة نهر الدانوب. وعاشوا في قرى ذات اكواخ مستديرة الشكل ايضاً ولكنها افضل من تلك التي كانت لدى شعب التيراماري.

وتميز» شعب الفيلانوفا بأنهم، بالإضافة الى تربية الماشية وزراعة الأرض وصيد الحيوانات، أحسنوا صناعة بعض المنسوجات، والأدوات الفخارية، واستمروا يستخدمون البرونز الى جانب استعمالهم الحديد في اسلحتهم. فعرفت حضارتهم بحضارة عصر الحديد.

٢ ـ سكان ايطاليا قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد

كانت الجماعات السكانية التي تعيش في ايطاليا عند القرن السادس قبل الميلاد تنقسم الى قسمين: الجماعات الإيطالية، والجماعات غير الإيطالية.

أ ـ الإيطاليون:

كان الإيطاليون موزعين كما يلي.

ـ اللاتين: عاش اللاتين Latin على الضفة الجنوبية الشرقية من نهر التيبر، في منطقة سهلية بطول 64 كلم وعرض 48كلم ـ بين الشاطىء وجبال الأبنين. دعتها لاتيوم Latium. وكان اللاتين كجيرانهم من القبائل الإيطالية، جوال صغيرة متفرقة، يزرعون الحبوب ويرعون القطعان فوق الانجاد والهضاب. وقد اتخذوا من بلدة اسمها البالونغا Albalonga أي الطويلة البيضاء مركزاً لهم ينضوون تحت لوائها كلما دعت الضرورة الى ذلك. وكانوا يراقبون نمو المدن الأتروسقية الزاهرة على الجانب الشمالي من نهر التيبر بحذر شديدة خوفاً من شرها.

---

(١) ول ديوارانت قصة الحضارة ترجمة محمد بدران ٩/٩ منشورات جامعة الدول العربية الطبعة الثالثة، سنة ١٩٧٢م

أما بقية القبائل الإيطالية فهي:

ـ الكمبانيون Companiens في الكمبانيا الرومانية

ـ الأومبريون ombriens والسابينيون Sabinuns في جبال الأبنين الوسطى

ـ السامنيون Samnties والإيكويين Aequi واللوكانويين في جبال الأبروز والغاليون Les Gaulois في أقصى الشمال.

ب ـ غير الإيطاليين

ـ الليجوريون Ligures، في المنطقة الشمالية الغربية أي المنطقة الواقعة ما بين جبال الألب من وادي ـ سهل ـ البو حتى نهر تقينيوس Ticinius شرقاً بما في ذلك المنطقة الساحلية حتى نهر الأرنوس Arnos جنوباً.

ـ قبائل عدة أشهرها الاتروسقيون والاغريق.

ـ الأتروسقيون Etrusci: هاجر الأتروسقيون من آسيا الصغرى الغربية، واستطاعوا بغاراتهم البحرية صدَّ قبائل ايطاليا من الهندية الأوروبية الى الوراء، واستولوا على ساحل ايطاليا الغربي من نابولي جنوباً الى جنوى شمالاً منذ بداية القرن الثامن قبل الميلاد.

ثم ما لبث ان أقام الاتروسقيون مدنهم المحصنة مثل: تاركويني Tarquinii وفتولونيا Vetulunia وبروجيا Perugia، وأعظمها فياي Veii. وكانت المدن الاتروسقية تنشأ وفق تخطيط عام قوامه شارعان كبيران متقاطعان مع بعضهما، ومرصوفان بالحجارة فضلاً عن إقامة مجارٍ لتصريف مياه الأمطار على الجانبين. والملاحظ ان المنازل كانت تُبنى من الطين والخشب، وهي ذات طابق واحد أو طابقين.

وأدى اتصال الاتروسقيين بالإغريق الى تعلّمهم كتابة اللغة الأتروسقية بحروف يونانية[1]. كما أدى اختلاطهم بهم في الموانىء اليونانية الى دخول الأواني الخزفية الى بلادهم. وسرعان ما تعلّم الاتروسقيون كيف يصنعون صوراً

---

(١) رستم عصر اوغوسطوس قيصر ١/ ١٨.

مزخرفة زينّوا بها جدران الضرائح الاتروسقية. ثم استطاعوا اخيراً إجادة صنع الادوات البرونزية حتى فاقوا الإغريق (اليونان) بدقة الشكل وقتاً طويلاً، كان من نتائجه ازدهار التجارة الاتروسقية واستعمال العملة - اعتباراً - من اوائل القرن الخامس قبل الميلاد - المسكوكة محلياً في «بولونيا» من الذهب ومن الفضة ومن النحاس.

والاترسقيون الذين نجحوا في الصناعة والتجارة، استغلوا الأرض جيداً سواء في زراعتها بمختلف انواع الأشجار والخضرة والحبوب، أو باعتنائهم بمشروعات الري وتصريف المياه الزائدة او إقامة السدود وقنوات الري، وحتى باستصلاح الأراضي. والحفاظ عليها من التآكل مما أدى الى زيادة الإنتاج وبالتالي الثروة في البلاد. ولم يقتصر استغلال الأتروسقيين لسطح الأرض فقط، بل تعداه الى باطنها، باستغلال الثروة المعدنية في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم إلى أقصى حد ممكن. فساهم ذلك بازدهار صناعة المعادن، وبخاصة البرونزية منها.

على الرغم من بسط سيطرتهم على جزء كبير من اقليم لاتيوم من الشمال وعلى إقليم كمبانيا في الجنوب حيث اتخذوا مدينة كابوا Capua مركزاً رئيسياً لهم. وعلى الرغم من توافر الامكانات البشرية والمادية، كأقوى مجموعة سياسية في ايطاليا. لم يقوَ الأتروسقيون على توحيد ايطاليا بكاملها في ظل نظام سياسي واحد. إذ سرعان ما انغمسوا في التناحر المستمر فيما بينهم. ولم يكد القرن السادس قبل الميلاد ينتهي حتى اضطروا حوالى السنة ٥٠٠ ق.م. الى الجلاء عن الأماكن التي احتلوها في لاتيوم وكمبانيا.

- الإغريق: أنشأ الإغريق ما بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن السادس قبل الميلاد مستعمرات في جنوب ايطاليا من خليج نابولي في الغرب الى خليج اوترانتو في الجنوب وعلى الجزء الشمالي من جزيرة صقلية؛ ثم على معظم الجزيرة بعد انتصار حاكم مدينة سراقوسة Seracuse على القرطاجيين عام ٤٨٠ ق.م. فأصبحت اعظم المدن الإغريقية في الجزيرة.

ويرجع الفضل في انتشار زراعة اشجار الكرمة والزيتون في ايطاليا الى الإغريق. وكذلك تقليد الإيطاليين لهم في صناعة الأواني الفخارية والبرونزية

الفصل الثالث

روما في العهد الملكي

١ ـ النظام السياسي قبل ظهور روما.

كان سكان ايطاليا يعيشون حوالى العام ١٠٠٠ قبل الميلاد في هيئة وحدات قروية، تشكل كل مجموعة منها في هيئة دويلة تقوم على النظام القبلي وتدعى Pagus . وقد تتجمع هذه التنظيمات عند الضرورة في هيئة تنظيمات اكبر أو اتحادات قبائل السامينيين أو اللوكانيين أو الأومبريين.

وكانت تربط أبناء المجتمع الايطالي الرابطة القائمة على العرف، وهي بمثابة دستور غير مكتوب، بمقتضاه تسعى التنظيمات الى حل الخصومات التي تنشب بينها بالطريق السلمي. كما نظم حقوق وواجبات القوات المتناحرة في حالة نشوب الحرب. وقد كان هذا الدستور يسمى Luspetiale . وبما أنه لم يكن في هذا العصر سلطة جماعية تلزم المناطق الايطالية المختلفة باحترام أو تنفيذ هذا الدستور، لذلك كان لا جدوى حقيقية له، ولم يمنع قيام الحروب والغارات.

وقد ظلّت هذه المناطق الايطالية في عزلة عن المجتمعات الأكثر تحضراً، والتي كانت تقوم على سواحل القسم الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، على أن القرن الثامن قبل الميلاد، شهد هجرتان: هجرة اتروسقية، وهجرة اغريقية.

٢ ـ النظام السياسي في روما الملكية.

كانت الملامح الرئيسية للتنظيم السياسي لمدينة روما ـ تأسست كما ذكرنا عام ٧٥٣ ق.م. ـ في القرن الأول قبل إنشائها لا تختلف كثيراً عما كان شائعا في أية مدينة من مدن الدولة التي عرفها العالم القديم. فالعامة Plebes كانوا يجمعون من حين لآخر في مجلس يدعى مجلس الأحياء Comita Curiatess يجتمع فيه هؤلاء بحسب الأحياء التي يسكنونها والتي تنقسم اليها روما. ولم تكن مهمة هذا

المجلس، في الواقع، تزيد على أكثر من الموافقة على القرارات التي يصدرها مجلس الشيوخ Senatus الذي كان يضم أرستوقراطية روما من كبار اصحاب الأراضي، وهي الطبقة التي كانت تسمى طبقة الأشراف أو الآباء Patrich. وقد كانت سيادة هذه الطبقة الأخيرة اقتصادية لاعتماد صغار الملاك عليهم اجتماعياً واقتصادياً.

يمثل أعلى الهرم في هذا التنظيم السياسي الملك Rex الذي كانت بيده السلطات السياسية والقضائية والعسكرية، الا أن الصفة الدينية كانت هي الغالبة. فهو الذي يقدم الذبائح للآلهة. ويتولى وضع التقويم السنوي بمساعدة كبار رجال الدين من الأحبار Pomtifes. فتحدد فيه الأعياد. ويبدأ عد السنين بدءاً من عهد الملك. وزيادة في الأبهة كان الملك يلبس على رأسه تاجاً ذهبياً. ويرتدي ثوباً مخملياً، ويحيط به الحراس حملة الفؤوس تمييزاً له عن بقية الأباء. ويقيم في بيت مقدس Lexregia قرب معبد Vesta. ويترأس الملك احتفالات النصر بالركوب في عربة مكشوفة مرتدياً اللباس الأحمر، ملوحاً بصولجانه العاجي.

وبالرغم من أن حكم الملك لم يكن وراثياً، بل كان موظفاً منتخباً من قبل مجلس الشيوخ، الذين لم يَزِدْ عددهم في العهد الملكي عن مئة شيخ، ثم يوافق على انتخابه مجلس الأحياء بصفة صورية. وبمجرد تولي الملك الحكم كان يجمع في قبضته سلطة مطلقة Imperim لا تحدها أية قيود حتى انه يدخل في نظامها حق الحياة والموت على المواطنين. ولكن هذه السلطة المطلقة المستبدة كانت سبباً في انهيار النظام الملكي بعد تذمر الطبقة الارستقراطية على عهد الملك لوقيوس تاركوينيوس سوبربوس T. Lucius Turquinius superbus آخر الملوك الذي أطلق عليه لقب المتعالي أو المتكبّر Superbus نظراً لتصرفاته المتكبرة والمتجبرة المستبدة، والتي زاد من وقعها على الشعب انه كان من أصل أجنبي [1]. كان ينتمي الى العنصر الأثروسقي. وبمعنى آخر انه من غير العنصر اللاتيني. فلما اشتد ساعد

---

(١) كان لوكيوس تاركوينيوس، اسمه الحقيقي لوكومو Lucume قد طرده احد الطغاة من مسقط رأسه. فلجأ الى بلدة تاركويني Tarquinii في اقليم أتروريا، فاشتق اسمه منها، وعرف به في روما التاريخ الروماني: ٢٤

الرومان اطاحوا بالملك المستبد، وقضوا على النظام الملكي الفاسد عام ٥٠٩ ق.م. الذي استمر حوالى القرنين ونصف تقريباً. واقاموا النظام الجمهوري بعد ما حكم روما ستة ملوك إتسم حكمهم بطابع التنظيم الاجتماعي والاقتصادي من الوجهتين القبلية والدينية.

والملك الذي كانت تلتزم باطاعة أوامره جمعية الأحياء. فقد كان عليه أن يأخذ موافقتها على ابرام حكم صدر بالاعدام على أحد المواطنين و تأييده في أخذ موقف معين من الدخول في حرب، أو اتخاذ سياسة معينة، كما كان من العسير على الملك تجاهل مكانة مجلس الشيوخ التي اخذت بالتزايد على مر السنين على الرغم من سلطته المطلقة.

وتَحدُّ من سلطة الملك، سلطة رب الأسرة على أفراد أسرته في نطاق اختصاصه القضائي. وعلى كل حال فقد يتنازل الملك عن بعض الجوانب من سلطاته مثل: تفسير الشرائع الدينية والحفاظ على تقاليدها الى هيئة كبار الكهنة Pontifies، واستطلاع رغبات الآلهة في بعض الأمور الى هيئة العرّاق. فضلاً عن استعانة الملك بهيئة من القضاة للفصل بين جرائم الخيانة والقتل دون مبرر.

٣ ـ المجتمع الروماني في العهد الملكي

كانت الأسرة هي أساس بناء المجتمع الروماني في العهد الملكي، يمارس رب الأسرة سلطة مطلقة على جميع افراد أسرته، بما فيهم زوجته وبناته غير المتزوجات وأبناءه وأولادهم. إذ كان من حقه ان يضرب زوجته وأولاده، أو أن يقتلهم، أو يبيع أولاده في سوق النخاسة دون خوف من قانون أو محاسبة أناس مسؤولين في الدولة، وإذا كانت مجالس الأسرة Consilium Familias كانت تعقد أحياناً لمنع رب الأسرة من استخدام حقه بصورة تعسفية فإن هذه السلطة المطلقة استمرت عدة قرون تمارس من جانب رب الأسرة دون أن يحد منها أي قانون[١].

وعلى الرغم من أن العشيرة المؤلفة من مجموعة أسر ترجع الى جد واحد. فإن انتظامها الأسري في عشائر لم يكن مألوفاً إلا بين أسر الطبقة العليا وحدها

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٩٠ منشورات الجامعة الليبية ـ كلية الآداب ١٩٧١.

لأن هذه العشائر لم تكن تنظيمات سياسية، وإنما اجتماعية ولو تمتعت العشائر بقدر كبير من التأثير في حياة المجتمع الروماني السياسية.

إنقسم المجتمع الروماني الى طبقتين اجتماعيتين وسياسيتين في آن واحد: طبقة العامة Plèbe وطبقة البطارقة أو الارستقراطية. نتيجة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي مرَّ بها المجتمع الروماني.

ـ فالطبقة العامة كانت تتألف من متوسطي الحال من اصحاب الأراضي. ومن التجار اصحاب الحرف الصناعية والأجراء العاملين في الزراعة على أنهم جميعاً كانوا مواطنين أحراراً. ومع هذا فقد نشأت علاقة حماية واستزلام بين أبناء الطبقة العامة من أصحاب الأراضي والأجراء المزارعين جعلت لكل واحدة من العائلات الكبرى مؤيديها ومحاسيبها من أبناء الأجراء المزارعين إضطرت هؤلاء الى وضع أنفسهم تحت حماية أصحاب الأرض من الطبقة نفسها حتى الاطمئنان على حياتهم ومستقبلهم من إعتداء الآخرين عليهم مقابل بقائهم أمناء على عاداتهم وعلاقاتهم وولائهم، بفلاحة أراضي من يتبعون، وتقديم المساعدة القتالية له عند الضرورة، فكان يطلق على التابعين Clientes أو المحاسيب وعلى المتبوعين Patronus أو الحماة. وبقيت علاقة المحاسيب بحماتهم علاقة الفقير بالغني أو علاقة الضعيف بالقوي، وترتبط بروابط المصالح المتبادلة بين الطرفين. وقد أدت هذه العلاقة التي استمرت عدة قرون، الى بقاء الوظائف محتكرة في عائلات الحماة الاغنياء بفضل المحاسيب. وهذا ما لا ينص عليه قانون، لكن الواقع كرّسه وجعله شريعة خفية علماً أنه لم يوجد في ذلك المجتمع ببداية الأمر إلا من أصبحوا عبيداً نتيجة لعدم وفائهم لدين استحق عليهم. وتبعاً لذلك يصبحون احراراً متى تمكنوا من وفائه.

أما طبقة البطارقة أو الارستقراطيين، فتتألف من كبار ملاك الأراضي، كانت تحكم روما في البداية لأن بيدها السلطات التشريعية والتنفيذية، والدينية والقضائية، ألا أن نزاع الطبقات، ساعد مع الظروف الدولية على حل المشكلة الاقتصادية وخسارتها بعض المناصب والمقاعد في مجلس الشيوخ فيما بعد ابان الحكم الجمهوري.

كانت الطبقة الارستقراطية بفضل ثروة افرادها تتمتع بامتيازات كبيرة في

الدولة الرومانية لأنها أكثر تدريباً على القتال وأوفر عدة. وباستطاعة عشائرها حشد أعداد كبيرة من المقاتلين اعتماداً على اتباعهم في الحروب. كما تسمح لهم ثقافتهم وعراقة نسبهم في أن يكونوا مستشاري الملك في الشؤون الدينية والدنيوية على حد سواء. فبقيت الهيئات العليا السياسية والدينية الاستشارية مقتصرة عضويتها على أفراد طبقة البطارقة حتى انقضاء العهد الملكي. لكن هذه الطبقة صارت بمرور الزمن في العهد الملكي طبقة ترفض التزاوج مع عناصر من غير عشائر البطارقة من اجل المحافظة على امتيازاتها، بعدما كثر انضمام العشائر الأقل عراقة وشأناً Kinoresgentes بفضل المؤهلات التي حصلت عليها والمماثلة لمؤهلات عشائر البطارقة من الناحية الاقتصادية: إذ أصبحت طبقة مغلقة تماماً بدل الانفتاح على أعضاء جدد، فتنكمش على ذاتها وتدور ثروتها في داخلها.

٤ ـ الحياة الاقتصادية في العهد الملكي

عرف عن المجتمع الروماني في العهد الملكي بأنه كان مجتمعاً بدائياً غلبت على أفراده الحياة الاقتصادية البسيطة: الزراعية، الصناعية والتجارية وكونه مجتمعا بدائياً. فقد شغلت فلاحة الأرض وتربية الماشية والاغنام جانباً كبيراً من أهتماماته واوقاته. ففي الوقت الذي كانت ملكية الأرض الزراعية ملكية فردية ضمن اقليم ضيق المساحة بحيث لم تزد على خمسمائة (٥٠٠) كيلومتر مربع[1] في العهد الملكي على الرغم من اتساعها تدريجاً فإن مراعيه غلب عليها طابع الملكية الجماعية نظراً لضيق المساحة.

وبالطبع كسائر المجتمعات الرعوية فإن موارد المجتمع الروماني في العهد الملكي، كان مستمداً من تربية الماشية والأغنام التي أخذت في التوسع عندما بدأت روما في توسعاتها الى منطقة الأبنين الجبلية فتأمنت المراعي الصيفية على نطاق أوسع نوعاً ما.

ليس هذا معناه، أن الرومان في العهد الملكي قد أهملوا زراعة الكروم وبساتين الزيتون وغيرها من الاشجار المثمرة من زراعة الكروم بقيت ضمن نطاق محدود، واشجار الزيتون بقيت برية جبلية ولم يصبح غرس اشجاره شائعاً

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/٨٨.

بعد أن انتشرت زراعته بشكل كثيف عند دخول الاغريق الى جنوب ايطاليا كما أشرت اليه سابقاً. لذا غلب على المحاصيل الزراعية بشكل عام انتاج نوع خشن من الحبوب كان كافياً لسد حاجات السكان.

وعُرف عن الرومان في العهد الملكي بأنهم لم يهملوا الصناعة والتجارة وبخاصة ما هو ضروري لحياتهم اليومية واستمراريتهم في علائقهم مع جيرانهم. فازدهرت صناعات الفخار والبرونز والحديد ازدهاراً كبيرا وكذلك التماثيل والاعمدة التي أُخِذَتْ عن الاغريق. وقامت نقابات للعمال الأحرار المشتغلين بصناعات الفخار والمعادن والجلود والاخشاب وصياغة الذهب. والعثور على آنية قورنثية وأتيقية معاصرة في روما يؤكد ازدهار التجارة مع الخارج في ظل إنشاء مستعمرة جديدة على تل أفتينوس. واقامة سوق عند معبد الآلهة ديانا على هذا التل. يلتقي في هذا السوق تجار اللاتين المحليون مع تجار الاقاليم المحيطة والبعيدة. ويعزى أيضاً الى تقدم الصناعة وازدهار التجارة الأتروسقية تقدم روما في هذين المجالين بحكم سيطرة الاتروسقيين عليها في العهد الملكي.

٥ ـ الحياة الدينية في العهد الملكي

تعددت الآلهة عند الرومان في العصر الملكي شأنها في ذلك شأن سائر الشعوب الريفية البدائية التي كانت تلجأ الى السحر والأرواح أو القوى الطبيعية وغير الطبيعية. وبحسب اعتقاد الرومان آنذاك كان لكل أسرة عبادة أرواح أو قوى عدة منها: جانس أويانس Janus حارس الباب. ولار فاميلياريس Lar familiaris حامي الأرض والبيت. وبناتس Penates حماة مخازن الحبوب، وفستا Vesta راعية نار البيت، ومارس Mars باعث النشاط والحيوية (التجدد) في النبات كل ربيع. وجوبيتر Jupiter إله الشمس وباعث المطر. هذا فضلاً عن عدد كبير من الآلهة التي كانت، بحسب اعتقادهم تساعد الرعاة أو المزارعين في أعمالهم أو توجههم في المراحل الصعبة من حياتهم اليومية، وبخاصة في مسائل الزواج والولادة أو الوفاة مثل الإلهة جانو Jano راعية النساء في مضاجعهن وفي مخاضهن.

واستمرار الرومان في عبادة آلهتهم مدة طويلة دون إقامة معابد أو تماثيل لها

يفسّر عدم مقدرتهم على تصور اشكال هذه الآلهة أو البَت بأجناسها. أكانت من الذكور أو الاناث على الرغم من ايمانهم بوجود مكان معين يجب أن يعبد فيه كل إله على انفراد. ولا تخرج طقوس العبادة عن التقليد المتبع عند سائر الشعوب القديمة في التفرغ وسكب قدر من اللبن واحياناً من النبيذ لكسب رضا الآلهة، وفي حالة الاستجابة للتفرغات كان لابد من تقديم قربان على هيئة كعكة أو ضحية، ودائما فيما بعد. اما في حالة عدم الاستجابة فكان لا بد من الاستمرار في اقامة تلك الشعائر بإداء أفضل مما سبق مرضاة للآلهة ذات القدرة الخارقة بحسب مفهوم الديانة الرومانية.

٦ ـ الجيش والفتوحات

كان الملك هو رأس السلطة في هذا التنظيم السياسي. فهو الذي يعقد المعاهدات ويقرر السلم والحرب، وان كان ذلك مشروطاً بموافقة لجمعية الأحياء Comita Curiata[١]. وكان هو الذي يمثل الدولة في علاقاتها الخارجية، ويقود جيشها بنفسه. ولم يكن هذا الجيش، في غالب الأحيان في أوائل العهد الملكي، يزد على ٣٠٠٠ راجل Pedites و٣٠٠ فارس Celeres أو Equites التي يقابلها بالانكليزية Knight ومعناه فارس ـ يجندون من القبائل الثلاث[٢] على قدم المساواة. أي أن كل قبيلة تسهم بألف راجل ومائة فارس. على أن هؤلاء لا يؤخذون إلا من طبقة البطارقة الاشراف ومن اتباعهم المزارعين الذين كان بامكانهم تزويد أنفسهم بالسلاح اللازم من خوذة وزرد ودرع وحربة وسيف قصير. في حين كان سلاح الفرسان وهم القوة الضاربة في الجيش الروماني. المفروض فيهم ان يكونوا مدرَّبين تدريباً جيداً على القتال وفي حالة استعداد دائم وتام له. لذا لم يكن متيسراً إلا بين أفراد طبقة البطارقة أصحاب

---

(١) انظر صفحة ٢٠ (الفصل الثالث من هذا الكتاب)

(٢) كانت مدينة روما في العهد الملكي عام ٥٦٠ ق.م تتألف من ثلاثة قبائل فقط. لكن بعد هذا التاريخ قسم الناس فيها الى طبقات على اساس ثروتهم لا على اساس مولدهم ديوارانت قصة الحضارة ٩/ ٣٢.

الثروة الكبرى والعدة المتوافرة فكان العبء الأكبر لمقاتلي الفرسان يقع على هذه الطبقة ومنها ومن اتباعها يتم تأليف الجيش الملكي.

ينتقل الفرسان الى ساحة المعركة عادة على صهوة الجياد والخاصة بكل منهم أو في عربات تقلهم الى القتال. وفي مطلق الأحوال كانوا يقاتلون في اثناء المعركة، وهم على اقدامهم كسائر المشاة في الجيش إلا في أعمال المطاردة التي كانت تقتضي منهم ملاحقة الأعداء والقبض عليهم أو قتلهم، فيستخدمون عندها الجياد والعربات. ولكن المشاة لم يتلقوا التدريب والعناية الكافيين في العهد الملكي، وضباطه ما هم إلا نقباء القوات التي اسهمت بها كل قبيلة من قبائل روما الثلاث من مشاة Tribuni Militum وفرسان Tribuni Celerum.

هذا الجيش الروماني في العهد الملكي لم يكن مهيئاً لتطلعات الملوك الرومان التوسعية، إن وجدت وفي سائر الأحوال كان بإمكانه فقط القضاء على أعمال العدوان أو القرصنة التي تقع على حدود دولة روما الملكية من وقت لآخر. هذا إذا علمنا بأن احكام العرف الفطري بين الشعوب الايطالية كانت تقضي بعدم شن الحروب دون مبرر على الأقل أو دون سابق انذار وهو ما حدا بالملوك الرومان الى انشاء هيئة Fetiales لتفسير أحكام هذا العرف والحفاظ عليها.

ومع هذا وذاك شنَّ ملوك روما حروباً توسعية. فقد سيطر أنقوس مارقيوس Aneus Marcius على أوستيا Austia، وحدَّ لوقيوس تاركوينوس «بريسفوس» Lucius Tarquinius Priscus أو العتيق سيطرته على كامل أتروريا Atruria. وفي حين تمكن الملك لوفيوس تاركوينيوس» سوبربوس» Lucius Tarquinus superbus أو المتكبر وهو الملك الذي ألغي حكمه وخلع حوالى العام ٥٠٩ ق.م. ـ من الاستيلاء على شاطىء لا يقوم بأجمعه حتى سواحل بومبتيناي. ويؤيد هذه الفكرة إنشاء العصبة اللاتينية حوالي أواخر القرن السادس قبل الميلاد بزعامة أريقيا Aricia لمنع التوسع الروماني في لاتيوم. والتخلص من السيادة الاتروسقية على هذا الاقليم. والحقيقة ان الرومان تمكنوا من ضم الجماعات اللاتينية الصغيرة من جيرانهم الى دولتهم سواء في سهل لاتيوم فيما بين روما وألبا لونجا، أم في وادي التيبر الأدنى ابتداء من مصبه. حيث أنشئت أوستيا فيما بعد، حتى فيدناي Fidenea.

الفصل الرابع

توحيد ايطاليا بزعامة روما

كانت القوة العسكرية الرومانية، في بدايتها على عهد الملكية، تتكون من الارستقراطيين واتباعهم. وكان دفاع هؤلاء عن المدينة هو في حقيقة الأمر دفاع عن مصالحهم لأنهم أصحاب الأرض. ثم وجد هؤلاء أن مصالحهم تقتضي توسيع القوة الرومانية العسكرية لارتباط مصالح بطارقة روما بمصالح المناطق المحيطة بها، لتضم بين صفوفها، الى جانب النبلاء وأتباعهم بقية المواطنين الرومان الذين كان أغلبهم من الطبقة العامة. وهكذا أصبحت الخدمة العسكرية واجباً على المواطن الروماني. ونتيجة لذلك تمّ انشاء وظيفتين اداريتين شغلهما موظفان قاما باحصاء المواطنين بغرض استكمال قوائم الخدمة العسكرية.

ثم كانت نتيجة تعرض روما لغارات الايكوبين Aequi والفولسكيين Volsei في القرن الخامس قبل الميلاد، وغالة الغاليين من الشمال سنة ٣٨٢ ق.م. واستيلائهم على قسم من روما ونهبوه، ثم اشعلوا النار فيه. ولما لم يستطيعوا الاستيلاء على حصن الكابيتول رضوا أن يأخذوا فدية من الذهب ويرتدوا الى الشمال لينزلوا في وادي البو. أن أعاد الرومان تنظيم قوتهم العسكرية بطريقة، تتناسب والظروف الجديدة في التدريب العالي بقيادة القناصل الذين كانوا يتمتعون في الشؤون العسكرية بسلطة غير محدودة. فأحاطوا المدينة بسور ضخم من الحجر.

١ ـ روما في القرن الأول من الحكم الجمهوري

أثار خلع الملك الأتروسقي تاركوينيوس المتكبر وطرده من روما عام ٥٠٩ ق.م. كما سرَّ سابقاً ثائره الاتروسقيين ضد روما، محاولين اعادته الى الحكم. ولما لم يقو الاترسقيون على اعادة الملك، حاولوا الانتقام منها بغزوها. وعلى الرغم من أن الملك بورسنا Porsenna ملك قلوسيوم تمكن من هزيمة روما

واخضاعها لنفوذه مدة قصيرة. فإن العصبة اللاتينية ـ نسبة الى اقليم لاتيوم ـ هزمت الاتروسقيين عند أريقيا Aricia عام ٥٠٥ ق.م. وارغمتهم على الانسحاب من لاتيوم بأجمعها باستثناء فيدناي Fidenae.

ـ **روما والحلف الثلاثي**: اثر هزيمة روما امام بورسنا الاتروسقي استبعدت روما من العصبة اللاتينية. تطور خلافها مع العصبة ليس لفقدانها عضويتها فقط بل لنشوب المعارك، بين روما من جهة وبقية أعضاء العصبة من جهة ثانية، بالقرب من توسقو لوم عند بحيرة رجيلوس Lacus Regilus في عام ٤٩٩ أو ٤٩٦ ق.م. والتي بقيت بين المتحاربين عملية كروفر دون تسجيل نصر حاسم. مما أغرى القبائل الجبلية الفقيرة المجاورة على غزو اقليم لاتيوم الغني بموارده الزراعية والرعوية. وتجاه ذلك اضطرت روما والعصبة اللاتينية الى تسوية خلافاتهما حوالى عام ٤٩٣ ق.م.، وعقد معاهدة تحالف بين الطرفين، أصبح بموجبها مواطنو كل مدينة من المدن الأعضاء في الحلف يتمتعون بحقي الاتجار والتزاوج في روما وفي باقي مدن الحلف [(١)] وفي عام ٤٨٦ ق.م. أصبح الحلف يتكون من روما والعصبة اللاتينية وقبائل الهرنيقي Hernici (ثلاثياً) وكان موطن هذه القبائل عند وسط الحدود الشرقية، لاقليم لاتيوم وتؤلف عصبة بزعامة مدينة أناغنيا Anagnia.

حروب الحلف الثلاثي

أ ـ روما والسابينيين: تمكنت روما من أضعاف قوة السابينيين من جراء كسب ود زعيم سابيني يدعى أيتوس قلاوسوس Attius Clausus مقابل اعطائه قطعة أرض فيما بين نهري التيبر والارنيو، استقر فيها هو وعشيرته واتباعه، فضلاً عن منحه حقوق المواطنة الرومانية، وادماجه مع عشيرته في عداد طبقة البطارقة، فكانت نتيجة هذه الدبلوماسية الرومانية ضعف القوة

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/١١٤.

السابينية وبخاصة بعد عام ٤٦٠ ق.م. وصارت اغاراتهم مجرد هجمات على الحدود

ب ـ **روما والايكوي والفولسكي:** واجهت روما غارات من قبائل الايكوي والفولسقي، كانت اشد خطراً، وأطول مدة. تمكن الايكوي خلال هذه الغارات من احتلال الجزء الجنوبي الساحلي من سهل لاتيوم. إلا أن الرومان الذين اعادوا تنظيم قواتهم العسكرية وزيادتها عددياً في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، تمكنوا مع حلفائهم من طرد الايكوي من قلعة الجيدوس حوالى عام ٤٣٠ ق.م. ثم طرد القبائل الفولسقية من السهل الساحلي اللاتيني.

ج ـ **روما ومدينة فياي الاتروسقية:** كانت مدينة فياي Veii الواقعة على بعد عشرين كيلومتراً شمالي روما. تسيطر على اقليم أكثر غنى واتساعاً من اقليم روما، وتحتفظ بحامية لها في مدينة فيدناي. لذلك حاولت روما تحرير هذه المدينة الأخيرة من سيطرة فياي الاتروسقية عام ٤٨٠ ق.م. لكنهم فشلوا في محاولتهم هذه بينما عندما زادوا من أعداد جيشهم وأعادوا تنظيمه، وأتموا حروبهم مع الايكوي والفولسقي حوالى عام ٤٣٠ ق.م. أحرزوا انتصاراً كبيراً على فياي الاتروسقية، وأجلوها عند فيدناي، ثم لم تكتف روما بطرد فياي الاتروسقية واجلائها عن فيدناي، بل تحالفت مع أعوانها في الحلف الثلاثي على محاصرة المدينة مدة طويلة بين ٤٠٥ و٣٩٦ ق.م. حتى انتهى الى هزيمتها والاستيلاء عليها فضمت أراضيها اليها، فتضاعفت مساحة الاقليم الروماني. لكن روما في اثناء القتال مع فياي اضطرت الى الاستعانة بعدد كبير من الجنود والفرسان المتطوعين للخدمة في الجيش على صهوات جيادهم الخاصة. كما أدخلت روما لأول مرة نظام دفع مرتبات للمقاتلين في اثناء الحملات[١].

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ١١٧.

٢ ـ روما في القرن الثاني من الحكم الجمهوري

حوالى بداية القرن الرابع قبل الميلاد أخذت قبائل الغال الفرنسية تعبر جبال الألب لتستقر في الشمال الغربي والجنوب الشرقي من وادي البو في شمال ايطاليا. فترتب من جراء استقرار ثماني قبائل غالية في اقليم ايطاليا الشمالي النتائج التالية:

ـ قضي بالتدريج على ما كان الاتروسقيون يتمتعون به من سيطرة على وادي البو.

ـ أصبح هذا الاقليم الشمالي منذ ذلك الوقت يعرف به غاليا قيس ألبينا Gallia Cis Alpina

ـ وأصبح هذا الاقليم الشمالي مصدر كل خطر على اقليم ايطاليا الجنوبي وأمنه.

واتصف هؤلاء الغال بأنهم كانوا يعيشون على تربية الماشية وممارسة نوع بدائي من الزراعة ولا يعرفون من الصناعة الا صناعة المعادن. وقد إنغمسوا في الشراب والخصام والغزوات غير المنتظمة من أجل الأسلاب والمغانم. وعَبرَتْ جماعة من الغال بقيادة احد زعماء قبائلهم جبال الأبنين حوالى العام ٣٩٠ ق.م.، وحاصرت مدينة قلوسيوم Clusium الأثروسقية. فناشدت الرومان للمساعدة. فبعث مجلس الشيوخ الروماني رسلاً الى الغال يدعونهم الى الانسحاب. فما كان من هؤلاء الا ان اعتبروا تدخل الرومان تحدياً لهم. واستدعوا نجدات جديدة لهم هاجموا بها عام ٣٨٧ ق.م. روما، حيث التقوا الرومان وحلفاءهم اللاتين على ضفاف نهر أليا Allia أحد روافد نهر التيبر. فكانت معركة كبيرة انهزم فيها الرومان واللاتين بعد أن منوا بخسائر جسيمة.

ولو أن القبائل الغالية تابعت طريقها نحو روما لاحتلتها لأنها كانت خالية وبدون أسوار. لكن تمهل الغال في ارض المعركة لجمع المغانم أتاح الفرصة لفريق من الايطاليين الانتحاء الى تل فابيتو لينوسس Fabitolinas المنيع، ولما تابع الغال زحفهم نحو روما دخلوها دون مقاومة فنهبوا وخرّبوا ما وصلت اليه

أيديهم. وحاصروا تل فابيتو لينوس سبعة أشهر حتى أرغموا المحاصرين على الاستسلام. ولما لم يقو الغال على فتح حصن الكابيتول Capitol رضوا بالفدية التي بلغت سبعة ألاف رطل من الذهب وانسحبوا من روما[1] لأن هدفهم كان السلب والنهب ولم يكن الفتح والاستقرار.

أحاط الرومان بمدينتهم بعد انسحاب الغال سورًا من الحجارة. واعادوا تنظيم جيشهم بزيادة عدد فرسانه ومشاته حتى انتظموا في فرقتين، واعادوا تسليمه بما يتلاءم والظروف والأحياء المحيطة بهم. ولما عاود الغال إغاراتهم على اقليم لاتيوم عام ٣٦٠ق.م. فضَّلَ الرومان عدم الاشتباك معهم. لكن تكرر الاغارات عام ٣٤٩ ق.م. تصدى الرومان وحلفاءهم للغال وأجبروهم على التراجع من حيث أتوا. وفي عام ٣٣١ ق.م. عقدت روما مع احدى القبائل الغالية التي كانت تتزعم الاغارات قبيلة السنوس Sinonas معاهدة صلح لتبدأ بين الفريقين فترة سلم دامت حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد.

٣ ـ روما تسيطر على أواسط شبه الجزيرة الايطالية

أ ـ روما والاتروسقيون: كان لانتصار الغال على روما في اليا Allia تشجيعا للأتروسقيين والأيكوي والفولسقي وحتى بعض اللاتين على تحدي روما. لكن الرومان فاجأوا أعداءهم الواحد بعد الآخر بضربات شديدة. فما ان حاولت المدينتان الأتروسقيتان. فاليري Falerii وتاركويني Tarquinii الاستيلاء على اقليم حليفتهما السابقة فياي حتى هزمهما الرومان وثبتوا سيطرتهم جيداً على المنطقة الجنوبية من أترويا حيث وزعوا جزءاً من أراضي هذه المنطقة على فقراء مواطنيهم الذين كانوا أربع قبائل ريفية. وأنشأوا في الجزء الباقي من هذه المنطقة مستعمرتين لاتينيتين، وهما: سوتريوم Sutrium

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ١٢٠.

في عام ٣٨٣ ق.م. ونبتي Nepete عام ٣٧٣ ق.م. وعلى الرغم من هذا فقد ظل الاتروسقيون يقاتلون الرومان حتى عام ٣٥١ ق.م. عندما هزموا هزيمة كبيرة اضطرتهم الى قبول الصلح لمدة أربعين سنة.

ب ـ **روما والأيوكوي والفولسقي**: ساورت الأيكوي والهرنيقي نفسيهما مناصبة العداء للرومان. فما كان من روما إلا أن لقنتهما درساً قاسياً في عام ٣٨٠ بهجوم مباغت عليهما. في حين ردّت روما على محاولات الفولسقي. استعادة جنوب لاتيوم والحفاظ على استقلالهم، بضربة حاسمة منزلة بهم هزائم كبيرة، وضمت في عام ٣٥٨ ق.م. جزءاً كبيراً من اقليمهم الى الدولة الرومانية، منشئين به مستعمرتين رومانيتين كونتا قبيلتين ريفيتين أخريين. لكن الفولسقي لم يهدأوا ويسالموا الرومان إلا بعد سقوط مدينتهم الرئيسية انتيوم Antium في عام ٣٣٨ ق.م.

جـ ـ **روما ومدن لاتيوم وقمبانيا**: حاولت بعض المدن اللاتينية وبتشجيع من الفولسقي والهرنيقي نقض تحالفهم مع روما ومناصبتها العداء. فتصدّت روما لهذه المحاولة بشجاعة كبيرة وأجبرت هذه المدن اللاتينية مع باقي مدن الاقليم على تجديد معاهدة فاسيوس معها في عام ٣٥١ ق.مم..

ولأسباب عدة وقفت عام ٣٤٠ ق.م. جميع المدن اللاتينية ضد روما وقفة واحدة.

أولاً: عند تجديد معاهدة فاسيوس بينهم وبين روما عام ٣٥٨ ق.م. لم تعتمد المناوبة في القيادة.

ثانياً: عندما انتصرت روما على الفولسقي في العام نفسه وضمت جزءاً من اقليمهم لم يحصل الحلفاء على أي جزء.

ثالثاً: عندما عقدت روما عام ٣٥٤ ق.م. معاهدة مع السمينيين في الجنوب الشرقي أحسوا بأنهم محاصرين.

رابعاً: عندما عقدت روما معاهدة مع قرطاجة عام ٣٤٨ ق.م. تعهدت فيها كل من روما وقرطاجة:

تعهدت فيها روما بعدم الاعتداء على منطقة نفوذ قرطاجة كما تعهدت هذه بعدم الاعتداء على شواطىء لاتيوم. وهذا معناه أن روما صاحبة السيادة في لاتيوم.

ازاء هذه الأسباب تحالفت المدن اللاتينية مع مدن قمبانيا الشمالية وطلبت من الرومان اعادة العمل بمعاهدة قاسيوس الأولى التي تجعل كل من اللاتين والرومان على قدم المساواة. ولما رفض الرومان ذلك، اشتبك الفريقان فيما يسمى «بحرب اللاتين الكبرى» التي دامت ثلاث سنوات ٣٤٠ ـ ٣٣٨ ق.م. هزم فيها الرومان المدن اللاتينية، وأجبروا كل مدينة على حدة أن توقع معهم معاهدة بالشروط التي تراها روما مناسبة. وبموجب هذه الشروط فقدت خمس مدن لاتينية استقلالها إذ أدمجت بالدولة الرومانية. في حين احتفظت المدن الباقية، وكذلك المستعمرات اللاتينية باستقلالها في مقابل تقديم قوات عسكرية الى روما كلما دعت الحاجة الى ذلك. وفقدت حقي الاتجار والتزاوج فيما بين المدن اللاتينية بعضها مع بعض بينما احتفظت بهذين الحقين بينها وبين روما. فضلاً عن أنه لا يحق لأي مدينة من المدن اللاتينية عقد أي تحالف من أي نوع مع بعضها بعض.

وامعاناً في عزل المدن اللاتينية بعضها عن بعض وعن العالم الخارجي لجأت روما الى اقامة مستعمرات على شاطىء اقليم لاتيوم. ومنعت على أي مواطن لاتيني الاقامة فيها[1].

في الوقت ذاته الذي سيطرت فيه روما على اقليم لاتيوم. أغرت روما المدن اللاتينية على نقض تحالفها مع مدن قمبانيا التي تخاف هجوم السمينين عليها، وبذلك لم تجد روما صعوبة في ربط مدن قمبانيا بها مقابل:

ـ تحتفظ المدن القمبانية باستقلالها المحلي ودساتيرها وقوانينها إلا إذا رأت استبدالها بالنظم والقوانين الرومانية.

ـ تكتسب هذه المدن حقوق المواطنة الخاصة دون العامة.

---

(١) نصحي، ابراهيم التاريخ الروماني ١/١٢٣.

ـ تلتزم المدن القمبانية بقبول مواطنيها الخدمة العسكرية في الجيوش الرومانية كالرومان وتحقيقاً لهذه المكاسب ولأجل التواصل مع قمبانيا انشأت روما مستعمرتي قالس Calesوفرجلاي Fregellues في موقعين استراتيجيين أولهما في عام ٣٣٤ ق.م. وثانيهما في عام ٣٢٨ ق.م.

د ـ **روما والسمنيون**: بينما كان السمنيون منهمكين في حربهم ضد مدينة تارنتم ـ كبرى المدن الاغريقية ـ ٣٣٤ ـ ٣٣١ ق.م. عقدت روما معها معاهدة في العام ٣٣٤ ق.م، والتزمت فقط بمقتضاها بعدم تقديم اية مساعدة لحلفائهم السنيين. بينما قام الملك بيروس Pirus ملك شبه جزيرة ابيروس Epirus الإغريقية على الادرياتيك بتقديم المساعدة لتارنتم التي تمكنت من الانتصار على السمنيين. لكن السمنيين الذين عقدوا صلحاً مع تارنتم بعد الحرب وجّهوا اهتمامهم نحو قمبانيا واستطراداً الحرب ضد الرومان للأسباب الآتية:

أولاً: إن الرومان أدمجوا مدن قمبانيا الشمالية في دولتهم عام ٣٣٨ ق.م.

ثانياً: إن الرومان تحاربوا مع تارنتم في عام ٣٣٤ ق.م. حين كانت تحارب السمنيين.

ثالثاً: ان المستعمرتين اللتين اقامتهما روما: الأولى في عام ٣٣٤ ق.م. عند فالس على حدود قمبانيا، والثانية في عام ٣٢٨ ق.م. عند فرجلاي في وادي نهر ليريس، تعتبران سداً مانعاً لزحف السمنيين على قمبانيا.

وفي عام ٣٢٧ ق.م تدخل السمنيون مع احد الحزبين المتصارعين في مدينة نابولي «نيابوليس Neapolis الإغريقية، ووضعوا حامية لهم في المدينة. أفزع هذا التدخل مدينة قابوا Capua التي ناشدت الرومان المساعدة. فاقتحم الرومان مدينة نيابوليس وطردوا السمنيين منها وجعلوا المدينة حليفة. ثم استولوا على روفريوم Rufrium واليفاي Allifae الواقعتين على حدود سامنيوم Samnium اي اقليم السامنيوم. وهكذا لم يعد من مفر من وقوع صدام طويل الأمد بين الرومان والسمنيين ـ اقوى قوتين عسكريتين في شبه الجزيرة الإيطالية آنذاك. وقد مرت تلك الحرب بمرحلتين:

ـ المرحلة الأولى من عام ٣٢٦ الى ٣٠٤ ق.م.

في البداية من هذه المرحلة أحرز الرومان بعض الانتصارات الا انهم خسروا المعركة عندما حاولوا تطويق السمينيين من الخلف على طريق ابوليا في عام ٣٢١ ق.م. إذ ان السمينيين كانوا لهم بالمرصاد فأوقعوا الجيش الروماني في كمين ضيق يُعرف باسم «شعاب قاوديوم» Furculae Caudium بين مدينتي قابوا وبنفنتوم[١] Beneventum حيث أرغم الجيش على التسليم ولم يفك أسره الا بعد ان عقدت روما صلحاً مع السمينيين تعهدت فيه لهم بالتنازل عن فرجلاي، وبعدم قتالهم ثانية.

لجأ الرومان إلى إعادة تنظيم الجيش الروماني، شأنهم في ذلك بعد كل خسارة كبيرة تلحق بهم. فزادوا عدد مشاة جيشهم حتى صار يتألف من اربع فرق، عدد كل منها ٤٢٠٠ مقاتل. وفرضوا على المدن الحليفة الإسهام بعدد مماثل من المقاتلين. يعني هذا انه صار بمقدور الرومان تجنيد جيش من الرومان وحلفائهم يتراوح بين ٣٥٠٠٠ و٤٠٠٠٠ مقاتل. ثم نقض الرومان في عام ٣١٥ ق.م. صلح قاوديوم Caudinum Foedus واستأنفوا الهجوم على السمينيين من الخلف عن طريق أبوليا. فرد هؤلاء على الرومان بأن قطعوا الطريق الساحلي للإمدادات. ولما حاول الرومان ارسال قوة لاستعادة السيطرة على الطريق الساحلي اصيبت قوتهم بهزيمة هزت ولاء حلفائهم في قمبانيا. وقبل أن تتسع الفتنة تمكن الرومان في العام الثاني ٣١٤ ق.م من طرد السمينيين من تاراقينا على الساحل، الأمر الذي جعل قابوا تسارع بالاستسلام الى الرومان. ثم انشأ الرومان اشهر طرقهم العامة المرصوفة، وهو طريق أبيوس Via Appia الذي كان يهيىء لهم كل اتصال.

ولما ضيَّق الرومان الخناق على السمينيين عمل هؤلاء على تفريق حلفاء الرومان عنها. فبادر السمينيون إلى تحريض فاليريي وتاركوينيي عام ٣١١ قدم على مهاجمة اقليم اتروريا بعد انقضاء عقد الصلح معها. وفي العام التالي حرضوا

(١) ماغريفور، ماري، التاريخ الروماني ص ٢٨.

قبائل الهرنيقي والأيكوي والبايلجني على رفض تحالفهم مع الرومان. فما كان من الرومان الا ان عاجلوا الاتروسقيين خلال ثلاث سنوات ـ ٣١٠ ـ ٣٠٨ ق.م واجبروهم على عقد الصلح مع الرومان[1]. كما أرغمت عصبة المدن الاتروسقية على عقد هدنة تتجدد سنوياً لمدة عشرين عاماً. كما أرغموا الهرنيقي والأيكوي والبايلجني على التسليم لروما.

ولم يأتِ العام ٣٠٤ ق.م حتى اضطر السمينيون الى طلب الصلح الذي وافقهم عليه الرومان. وسمحوا للسمينيين بالإحتفاظ باستقلالهم الداخلي، وبما يملكون فيما عدا بعض أقاليم الحدود. والسبب ان السمينيين كانوا لا يزالون قوة يتطلب القضاء عليها بظل مجهود كبير.

٤ ـ روما في القرن الثالث من الحكم الجمهوري:

ـ المرحلة الثانية من عام ٢٩٠ الى عام ٢٩٨ ق.م

بدأت المرحلة الثانية، من الحرب بين السمينيين والرومان، عندما انقسم اللوقانيون الى فريقين، ناصر الرومان فريقاً، وناصر السمينيون فريقاً آخر. ولما أرسلت روما قوة من جيشها طردت السمينيين من لوقانيا في عام ٢٩٨ ق.م اعتبر ذلك السمينيون ايذاناً ببداية الحرب بينهما.

وجد السمينيون انفسهم محاصرين من قبل الرومان، فردوا على روما بعقد تحالف منهم ومن السابيني ومن قبيلة السنونس الغالية ومن بعض المدن الاتروسقية. لكن الرومان تمكنوا من الانتصار على هذه الجبهة عند سنتنيوم Sentinum في عام ٢٩٥ ق.م، وبقيت المدن الاتروسقية لقمة سائغة للرومان. ثم هزمت الرومان المدن الاتروسقية وارغمتها على عقد الصلح معها، الأمر الذي فرغها لحرب استنزاف مع السمينيين، أدت هذه الحرب المتكررة على عدة جبهات الى طلب السمينيين الصلح مع الرومان الذين استجابوا له لقاء تنازلهم عن جزء من اقليمهم ويصبحوا حلفاء لروما في عام ٢٩٥ ق.م. عندها

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١٢٨/١.

استفردت روما السابين، فصفت حسابها معهم وضمت اقليمهم ومنحت مواطنيهم حقوق المواطنة الرومانية الخاصة.

لكن قبيلة السنونس الغالبة بقيت تشكل خطراً على روما وبخاصة عندما أغاروا على اتروريا وحاصروا مدينة ارتيوم Arretium في عام ٢٨٤ ق.م. فما كان من الرومان الا ان ارسلوا قوة منهم لنجدة المدينة المحاصرة، وغزوا اقليم السنونس - الغال - واحتلوه. وخربوه وحولوه الى صحراء ظل لا يزرع مدة خمسين سنة. وفي العام ٢٨٣ ق.م. قضى الرومان على قبيلة بويي الغالية وأجبروها على طلب الصلح هي الأخرى. ثم ارغموا بعض المدن الاتروسقية على التسليم الى روما بعد أن استغلت فرصة انشغال روما بحروب جانبية فوافق الرومان عام ٢٨٠ ق.م. على الصلح أيضاً وصاروا اسياد اواسط شبه الجزيرة الإيطالية وشمالها ايضاً.

- روما تسيطر على جنوب شبه الجزيرة الإيطالية

دأبت بعض القبائل من أبوليا ولوقانيا بعد انهيار امبراطور سراقوسة في عام ٣٦٧ ق.م على الاعتداء على المدن الإغريقية في شبه جزيرة ايطاليا. فتزعمت تارنتم المدن الإغريقية وأخذت على نفسها مهمة الدفاع عنها مستعينة بملك اسبرطة الذي قتل في مواجهة اللوقانيين في عام ٣٣٨ ق.م. ثم استعانت تارنتم بملك ابيروس في عام ٣٣٤ ق.م واخيراً بملك اسبرطة في عام ٣٠٣ ق.م وأرغمت اللوقانيين على عقد الصلح حوالى عام ٢٩٨ ق.م. آزر طاغية سراقوسة اغريق ايطاليا، لكنه عندما مات في عام ٢٩٨ ق.م ضعفت سراقوسة ولم يبقَ لدى الإغريق من يحميهم. لذلك طلبت مدينة ثوري Thurii مساعدة الرومان ضد اللوقانيين عندما هاجموها. فأرسل الرومان حامية الى ثوري في عام ٢٨٢ ق.م في البر والبحر هزمت اللوقانيين وحلفاءهم.

لذلك اعتبرت مدينة تارنتم، كبرى المدن الإغريقية ان هذا العمل من جانب روما هو تحدٍ للمدينة، وبخاصة عندما دخلت عشر سفن رومانية خليج تارنتوم في عام ٢٨٢ ق.م معتبرة هذا العمل ايضاً خرقاً لمعاهدة التحالف المعقودة بينهما في عام ٣٣٤ ق.م، والتي كانت تنص على عدم دخول القوات الرومانية الى هذا

الخليج. وعلى الفور قامت تارنتم بإغراق بعض السفن الرومانية واستولت على بعضها الآخر، وطردت الحامية الرومانية من مدينة ثوري واحتلتها بمساعدة بيروس Pyrrhus ملك ابيروس وجيشه[1]. احتجت روما لدى تارنتم مطالبة بتعويضها، لكن الأخيرة، رفضت طلب روما وأهانت سفراءها إهانة بالغة.

لم يعد في وسع الرومان بعد ذلك السكوت عما حدث، وقرروا مواجهة تارنتم وبيروس الذي اصطحب جيشاً مؤلفاً من ٢٠,٠٠٠ مقاتل من المشاة ٣٠٠٠ فارس ٢٠٠٠ من رماة السهام مدربين أفضل تدريب ومجهزين بأحدث الأسلحة المعروفة آنذاك فضلاً عن عشرين فيلاً تدخل المعركة لأول مرة في ايطاليا[2]. فدارت المعركة الأولى في عام ٢٨٠ ق.م عند هرقليا على شاطىء خليج تارنتوم. إنهزمت فيها روما امام بيروس وتارنتم، ورفضت الصلح الذي عرضه عليها مقابل ان تتخلى عن جنوب ايطاليا بأجمعه. ثم الحق بيروس بروما هزيمة ثانية في عام ٢٧٩ ق.م عند أوسقولوم Ausculum في أبوليا. وفي اثناء الاتفاق على بعض بنود الصلح بينهما وقد سارت المفاوضات بنجاح. أسرعت قرطاجة بارسال سفرائها الى روما ليعرضوا عليها المساعدة بالأموال والسفن حتى لا تسمح لبيروس بالتدخل في صقلية، فرفضت روما في عام ٢٧٩ م. مصالحة بيروس وعقدت مع قرطاجة معاهدة عسكرية اتفق فيها الطرفان على:

اولاً: ان يتعاون الأسطول القرطاجي فوراً مع الرومان.

ثانياً: انه لا يحق للقرطاجيين اتخاذ قواعد دائمة في ايطاليا

ثالثاً: انه في حالة ابرام احد الطرفين معاهدة مع العدو المشترك يجب ان يحتفظ لنفسه في هذه المعاهدة بحق مساعدة الطرف الآخر إذا غزيت اراضيه.

وقرر بيروس نجدة اغريق صقلية الذين وقعوا، بعد وفاة اجاثوفلس طاغية سراقوسة في عام ٢٨٩ ق.م، بين خطرين:

---

(١) P. Lévêque, Pyrrhos, Epuris 1951 p:138.

(٢) غاوي التاريخ الروماني ص: ٧٧.

الأول: ان القرطاجيين انتهزوا فرصة وفاته وجددوا هجماتهم على المدن الإغريقية.

الثاني: ان القمبانيين المأجورين تركوا خدمة سراقوسة بعد وفاة مولاهم واستولوا على مسانا = مسينا Messana وجعلوها قاعدة لاغاراتهم على المدن الإغريقية في صقلية.

لذلك جاء الى صقلية في عام ٢٧٨ ق.م، ووجه جُل اهتماماته لمحاربة القرطاجيين على مدى ثلاث سنوات، حتى أرغمهم على التخلي عن كل ممتلكاتهم فيما عدا ليلوبايوم Lilybaeum. وكاد ينقل الصراع الى افريقيا لولا تخلي حلفائه عنه وعقدهم الصلح مع القرطاجيين، الأمر الذي جعله يغادر صقلية في عام ٢٧٥ ق.م عائداً الى حلفائه في جنوب ايطاليا. وفي ايطاليا اعاد تنظيم قواته لينقض على جيش روماني كان قد زحف على سامنيوم ووصل حتى بنفنتوم Beneventum لكن خطته فشلت. فانسحب الى تارنتم، ثم الى بلاده الأصلية ليحقق ما عجز عن تحقيقه في ايطاليا، باحتلال مقدونيا وتأسيس امبراطورية كبيرة، وبخاصة ان الظروف الراهنة في بلاد الإغريق كانت افضل له للاستيلاء على مقدونيا[١]. لكنه قتل في ميدان المعركة ببلاد الإغريق عام ٢٧٢ ق.م. وصادف ان ارسل قبيل وفاته في طلب حامية تارنتم. فسلمت هذه الحامية المدينة الى الرومان لتؤمن خروجها بسلام. فوضع الرومان في تارنتم حامية رومانية دائمة وتفرغوا للقضاء على اللوقانيين والبروتيين والسمينيين وحلفائهم القبائل السابلية واستولوا على قسم كبير من أقاليمهم حيث اقاموا فيها عدداً من المستعمرات. في جنوبي ايطاليا. ولم يبدأ عام ٢٦٥ ق.م حتى كانت شبه جزيرة ايطاليا بأجمعها تعترف بسيادة الرومان.

---

(١) ماغريفور، ماري تاريخ الرومان ص ٣١.

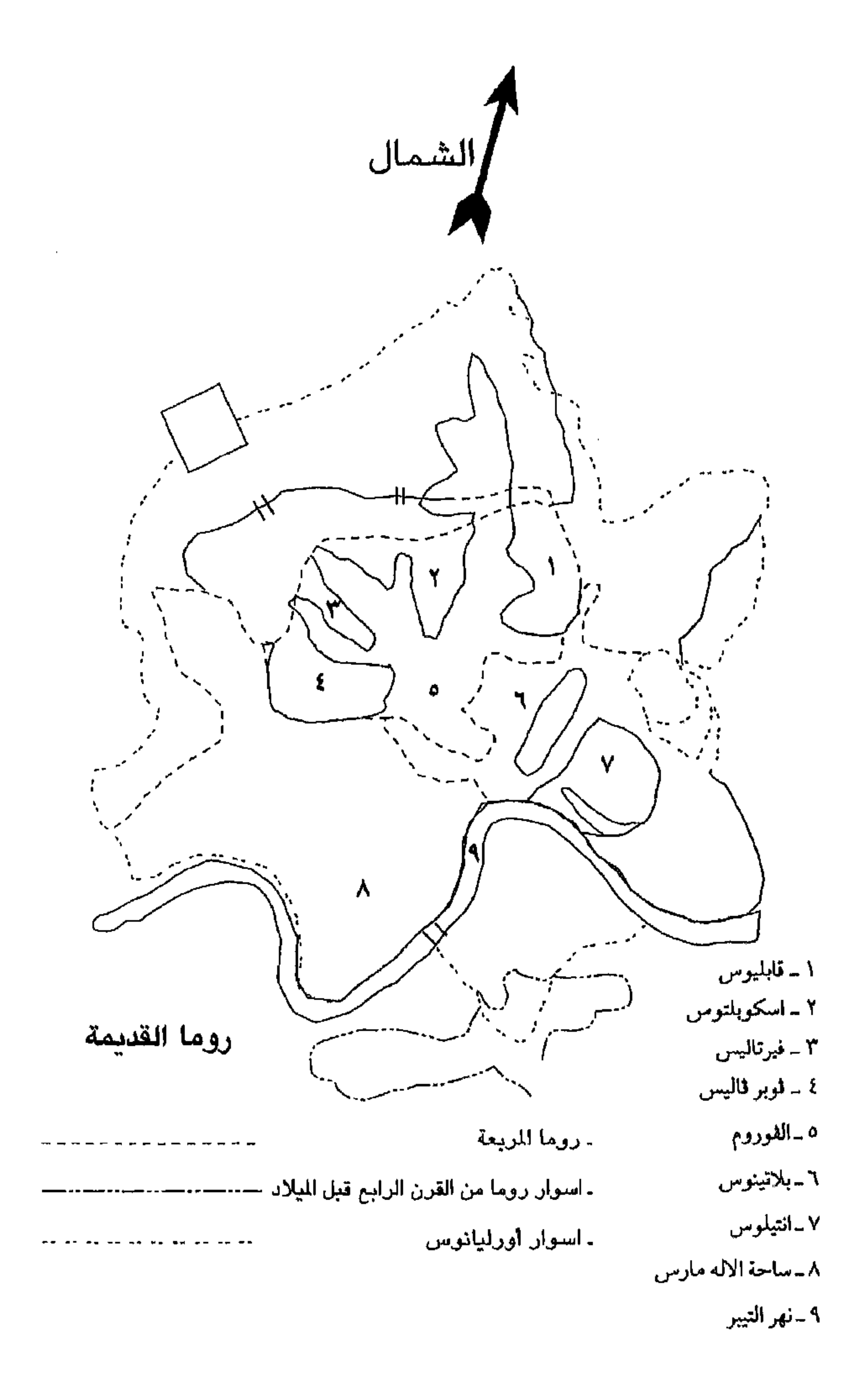
٥ ـ التنظيم السياسي لإيطاليا بعد توحيدها

وجدت روما نفسها ازاء مشكلة تنظيم سياسي يتلاءم مع التوحيد العسكري داخل شبه جزيرة ايطاليا وخارجها مساحتها ٨٣,٠٠٠ كيلو متر مربع، منها ١٦,٠٠٠ كيلومتر مربع مساحة الإقليم الروماني الذي لم تزد مساحته عن ٥٠٠ كيلومتر مربع في عام ٥٠٨ ق.م ـ السنة الأولى من الحكم الجمهوري ـ حتى وصلت مساحته في عام ٢٦٥ ق.م الى ١٦,٠٠٠ كيلومتر مربع نتيجة لضم الأراضي المصادرة اليه. وكان عدد سكان الإقليم الروماني في القرن الثالث قبل الميلاد حوالى المليون نسمة. في حين بلغ عدد سكان الأقاليم الباقية والبالغ مساحتها ٦٧,٠٠٠ كيلومتر مربع حوالى المليونين يخضعون للسيادة الرومانية.

فقد اتبعت روما في سياستها، في اثناء فتوحاتها مبدأين: الأول وهو مبدأ الضم الذي يمنح حقوق المواطنة الرومانية، كاملة او منقوصة تبعاً لظروف الضم لأهل المجتمعات التي شملها هذا المبدأ. والثاني وهو يشمل اهل المجتمعات التي كانت تعتبر نظرياً دولاً مستقلة. وكان أهلها يعتبرون من الناحية السياسية حلفاء Socii ومن الناحية القانونية غرباء او اجانب Peregrini ولا يلتزمون بأداء أية ضرائب مباشرة وان التزموا بإداء المكوس الجمركية. على ان المجتمعات التي طبق عليها المبدأ الأول أو المبدأ الثاني. كانت تلتزم بأداء الخدمة العسكرية التي تتطلبها حاجات الدولة الرومانية.

وهذا التنظيم السياسي لم تعرفه اية دولة قامت على نظام المدينة في العصر القديم ـ روما نفسها كانت دولة من هذا الطراز ـ ولكي نفهم جيداً التنظيم السياسي الذي اخذت به مدينة روما في شبه جزيرة ايطاليا بعد توحيدها وتكتلها في نطاق واحد. نشير في كلمة قصيرة إلى ما قامت به دول المدينة في بلاد الإغريق في هذا المجال اولاً ثم نعود الى التنظيم الروماني.

سادت فكرة التكتل في بلاد اليونان او الإغريق في اتجاهين رئيسيين:



الشمال
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
روما القديمة
١ ـ قابليوس
٢ ـ اسكويلتوس
٣ ـ فيرتاليس
٤ ـ فوبر قاليس
٥ ـ الفوروم
٦ ـ بلاتينوس
٧ ـ انتيلوس
٨ ـ ساحة الاله مارس
٩ ـ نهر التيبر
ـ روما المربعة
ـ اسوار روما من القرن الرابع قبل الميلاد
ـ اسوار أورليانوس

الإتجاه الأول:

كان الإتجاه الأول في صورة زعامات او سيادات اتخذ الدعاة لها وجود خطر حقيقي او وهمي مبرراً لدعاياتهم نحو التكتل. فظهر الحلف الأثيني الأول في القرن الخامس قبل الميلاد. ثم تلته في القرن الرابع قبل الميلاد عدة زعامات او سيادات متتالية: كالسيادة الإسبارطية على بلاد اليونان في بداية القرن. ثم زعامة طيبة وسيادة ديونيسيوس على صقلية والمدن الإغريقية في جنوب ايطاليا. واخيراً كان حلف كورنثه او الحلف اليوناني برئاسة فيليب المقدوني ومن بعده ابنه الاسكندر. وفي جميع هذه الأحلاف او التكتلات او الزعامات. كانت عدة مدن يونانية تتكتل مع بعضها بطريقة او بأخرى. وقد تم ذلك في أغلب الأحيان على يد مدينة او دولة لجأت الى القوة في فرض زعامتها[١].

الاتجاه الثاني:

إتخذ الاتجاه الثاني شكل التوسع في منح حق المواطنة بين المدن اليونانية. فوجدت في القرن الرابع قبل الميلاد هذه المدن او الدويلات التي قام بينها نظام المواطنة المتبادلة. بمعنى ان يتمتع المواطن من مدينة او دولة ما بحق المواطن في مدينة اخرى او دولة اخرى اذا وُجد فيها. علماً بأنه لم يكن للدولتين المتعاقدتين مواطنة واحدة تجمع بينهما.

ووُجد الى جانب نظام المواطنة المتبادلة نظام آخر أوسع منه بعض الشيء تحتفظ فيه المدن المتعاقدة بكيانها. ولكن يقوم بينها جميعاً مواطنة مشتركة تتعلق بها حقوق وواجبات. تتنازل، في سبيل اقامتها، كل من هذه المدن عن جانب او اكثر من جوانب سيادتها او سلطتها وتسهم كل منها بنسبة معينة في ادارة الشؤون التي تنجم عن السلطة المشتركة.

ولكن هذا التكتل كان من الجانب الآخر يقابله اتجاه سيطر على بلاد الإغريق او

---

(١) توينبي آرنولد تاريخ الحضارة الهلينية ترجمة رمزي جرجس ص ١٠٤ ـ ١٣٥ منشورات مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٣.

اليونان منذ بداية تاريخها، تمثله النزعة الإنفصالية، او الإنعزالية، التي كانت توقف إدراك اليوناني لمعنى القومية عند حدود مدينته[1]. وقد كان لهذا أثره المباشر على هذه التكتلات اليونانية التي لم تعمر طويلاً، ولم يكتب لها النجاح، إذ تفككت وانهارت امام هذا التيار الإنفصالي القوي الذي ظهر في شكل او في آخر.

هذا ما حدث في دولة المدينة التي ظهرت في العصر القديم في بلاد اليونان بشكل خاص. في حين ان روما لم تسر على نظام دولة المدينة. إذ لم تتبع في التنظيم السياسي اسلوباً واحداً. انما تطورت طريقة معالجتها لهذه المشكلة حسب تطور الظروف والملابسات التي أحاطت بها. ففي المراحل الأولى من توسع روما في شبه الجزيرة. كانت المناطق التي تخضعها تتبع مباشرة روما. وبذلك يصبح سكان تلك المناطق مواطنين رومان يخضعون للسلطة مباشرة وللهيئة التنفيذية التي يمثلها ويرأسها القنصلان. ويسري عليهم ما يسري على سكان روما من الخدمة العسكرية في القوات الرومانية.

وقد ترك الرومان لسكان هذه المناطق قدراً كبيراً من الحرية في تصريف أمورهم الداخلية. غير ان هؤلاء السكان كانوا يتمتعون بالحقوق الأساسية للمواطن الروماني التي تتمثل في حماية القانون الروماني لأشخاصهم ولممتلكاتهم. بل إن بعضهم، مثل سكان منطقة لاتيوم Latium قد وصلوا فعلاً الى مناصب القنصلية وعضوية مجلس الشيوخ مشاركين بذلك في أعلى جهاز تنفيذي وسلطة تشريعية في روما. تغيرت هذه الصورة حين اتسعت فتوحات روما، عندها وجد الرومان ان هذه الطريقة لن تسمح لهم بالإدارة المباشرة المحكمة، على الجهات النائية من فتوحاتهم. كما أنها ستضم بالضرورة الى مجموع المواطنين الرومان أقواماً جديدة لا تربطها بالرومان اية روابط من اللغة او الثقافة. فلجأ الرومان في ربط فتوحاتهم النائية الى نظام جديد هو نظام المعاهدات. فيرتبط سكان المناطق المفتوحة سياسياً بروما عن طريق المعاهدات ويسمون حلفاء او شركاء Socii ولكن اسمياً بينما كانت روما هي سيدتهم بالفعل.

---

(١) توينبي، آرنولد تاريخ الحضارة الهلينية ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

فالرومان لم يفكروا في استشارة هؤلاء الحلفاء او الشركاء في أمور السياسة العامة المشتركة. بل اكثر من ذلك، لم يكن لهم حق الاعتراض عليها او مناقشة الهدف الذي ترمي اليه روما من ورائها. ولم تكن بنود المعاهدات بين روما وهذه المناطق واحدة موحدة. بل اختلفت بشكل متفاوت الى حدٍ كبير في حالة كل من هذه المناطق تبعاً للملابسات التي احاطت بفتحها، ومدى ما أبدته من عناد او استسلام. الا ان جميع هذه المعاهدات، دون استثناء، كانت تضم بنداً معيناً، وهو البند الذي يفرض على كل من هذه المناطق ان تقدم الى روما عدداً من الفرق المحاربة التي تحددها روما تبعاً لاحتياجاتها عند اللزوم.

ملاحظة هنا يجب الا تغيب عن بالنا، وهي ان هذه الرابطة من المعاهدات بين روما والمناطق المحتلة، كانت اسوأ من الرابطة التي كانت قائمة بين اسبارطة وبين أعضاء الحلف البلوبونيزي في بلاد الإغريق (اليونان) الذين عليهم ان يقدموا المساعدات العسكرية لاسبرطة. لكن لغرض حفظ السلام داخل الحلف فحسب، دون ان تورطهم اسبرطة كروما بتقديم هذه المساعدة للقيام بفتوحات لحسابها الخاص. كما كانت أسوأ من الرابطة التي كانت تربط مقدونية تحت حكم فيليب ـ والد الاسكندر ـ بالمدن او الدويلات التي ظهر فيها هي الأخرى عنصر تقديم المساعدات العسكرية المقدونية. ولكن في حدود، ولغرض حفظ السلام فيما بين هذه المدن نفسها فحسب.

ولكن إذا كان للرابطة التي ربطت هذه المناطق بروما جانبها السيء، فقد كان لها جانبها الحسن. إذ لم تكن على هذه المناطق واجبات أخرى غير هذا الواجب العسكري نحو روما. وفي ما عدا ذلك فقد كانت حقوقها مصانة، تتمتع بحريتها الكاملة في ادارة شؤونها المحلية، في جميع انحاء ايطاليا. وهكذا لم يعد سكان المناطق معرضين من وقت لآخر لغارات القبائل القاطنة على جبال الابنين، او لخطر الغاليين الذين كانوا قبل ذلك ينقضون على سكان شبه الجزيرة من المنطقة الشمالية. وقد أدت هذه الرابطة الى المشاركة الحقيقة بين اهل هذه المنطقة وبين روما. وهي مشاركة اخذت طريقها الى الشكل الكامل تدريجياً، وبقدر استيعاب هؤلاء السكان للطرق والاتجاهات الرومانية سواء في الحضارة في فنون الحرب.

وهكذا نجد ان التنظيم السياسي الروماني، قد كتب له النجاح منذ بدايته. فسكان المناطق المختلفة من ايطاليا قد وقفوا، بسبب الميزات التي تمتعوا بها، الى جانب تعهداتهم العسكرية لروما، موقفاً حسناً. وقاموا بدورهم الكامل في اقامة الامبراطورية الرومانية. كذلك كان للزمالة في ميدان القتال، خلال سنوات طويلة، اثرها الظاهر على الجنود الذين اتوا من هذه المناطق. فقد اكتسبوا بالتدريج العادات الرومانية، وبدأوا ينبذون تنظيماتهم السياسية البدائية ليقيموا محلها تنظيمات تقوم على اسس دولة المدينة التي كانت روما مثلها الأعلى في ايطاليا. ثم اخذوا يتخلون تدريجاً عن لهجاتهم المحلية ليجعلوا من اللاتينية، التي أصبحت لغة الثقافة، والحضارة في شبه الجزيرة لغتهم الأساسية.

وقد استطاع الرومان عن طريق تنظيمهم السياسي لإيطاليا، ان يحولوا سكانها الى مجموعة متكاتفة معهم، جعلت تحت تصرفهم في النهاية قوة بشرية هائلة، استطاعوا عن طريقها أن يسيطروا على كافة أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط.

الفصل الخامس

الجمهورية الرومانية داخل ايطاليا
في النصف الأول من الحكم من ٥٠٩ إلى ٢٦٥ ق.م

١ ـ نظم الحكم الجمهوري

أ ـ القنصلية :

عندما ألغي الحكم الملكي وطرد الملك تاركوينيوس Turquinius استبدل الملك بشخصين كان مجلس الشيوخ ينتخبهما، على ان يمارس السلطة كل منهما لمدة سنة كاملة يراقب الثاني اعمال الأول اذ يستطيع وقف كل ما لا يروق له من تصرفاته بحق الإعتراض Intercessio. وسُمي هذان الحاكمان في اول الأمر باسم برايتورس Praetores اي الرئيسين، وبعد مدة تغير سنة ٣٦٧ ق.م إلى اسم القنصلين Consules أي الزميلين. ووظيفة القنصل هي من أعلى الوظائف في الجمهورية الرومانية، لأن سلطة الملك لم تلغ عنها اذ بقي بالسلطة المطلقة Imperium، إنما أدخل عليها بعض الضوابط التي اعتقدوا انها كفيلة بالحيلولة دون الاستبداد في استخدامها. على انه يجب التفريق بين المنصب وشاغلي المنصب الذي أُنشىء فيما بعد وكان أدنى شأناً من المنصب الأول. ولكن شاغليه كانوا يدعون أيضاً برايتوريس على نحو ما سنرى فيما بعد.

وبانتقال صلاحيات الملك، والشارات الدالة عليها، والكرسي الصاجي الذي يجلس عليها، اصبح القناصل هم الذين يرعون استتباب الأمن والنظام في الدولة. ويسمحون للمواطنين داخل روما Domiباستئناف Provocare الأحكام الشديدة الصادرة عليهم امام جمعية الأحياء او الكور Comita Curiata. وينيبون عنهم حكاماً arbitri للفصل في المنازعات، ويعينون عادة حكاماً في المقاطعات يدعون بروقنصل pro-consules. كما يعينون هيئتين قضائيتين تفصل احداهما في

قضايا الخيانة Duoviri perduellionis والأخرى في قضايا القتل دون مبرر Quaestores parricidii. يدعون مجلس الشيوخ للاجتماع ويترأسون اجتماعاته، كما يدعون الكوميسيا المئوية للاجتماع ويترأسونها، وينظمون الجيوش ويقودونها في الحرب. وإذا صادف خروج القنصلين معاً الى ميدان الحرب، كانا يتوليان القيادة العليا بالتناوب يوماً فيوماً. ويعطي القنصل اسمه للسنة التي كان يحكم فيها، فيقال: حدث ذلك في عهد قنصلية ماريوس مثلاً. وبعد إنتهاء مدة حكم القناصل يعينون عادة حكاماً في المقاطعات، ويدعون برو قنصل.

ب ـ جماعة الكهنة

في الحكم الملكي، كان الملك يمارس سلطات دينية واسعة. بينما في العهد الجمهوري لم تنتقل الى القناصل السلطات الدينية باستثناء حق استطلاع وغياب الآلهة auspicia لمعرفة رضائها او سخطها قبل الأقدام على عمل عام. اما أغلب هذه الاختصاصات فإن شطراً منها وهو الخاص بتقديم القرابين كان يتولاه كاهن يُسمى ملك القرابين Rex Saerorum على حين ان الشطر الأكبر، وهو الخاص بالعلاقات الرسمية بين المجتمع الروماني وآلهته التي ترعاه بعنايتها، كانت تتولاه جماعة Collegium من الكهنة يقوم على رأسها الكاهن الأكبر او الحبر الأعظم Pontifex Maximus[1]. ووجد عدة جماعات Collegia من الكهنة تختص كل منها بإقامة شعائر طقوس دينية بعينها بمثل ما كانت تقوم به في عهد الملكية. واشتهر من جماعات الكهنة في العهد الجمهوري جماعتان[2]:

ـ **الجماعة الأولى**: تجمع نبوءات وهي سيبولاي Sibyllae والحفاظ عليها، واستطلاعها كلما امر مجلس الشيوخ Sinatos بذلك في الأزمات.

ـ **الجماعة الأخرى**: هي جماعة العراف Augures التي كانت تشرف على استطلاع رغبات الآلهة إزاء الشؤون العامة.

---

(١) ماغريفور، ماري تاريخ الرومان ص ٢١.

(٢) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ص ١٥٤.

والملاحظ ان الكهنة الرومان لم يؤلفوا فئة خاصة من فئات المجتمع، لأنهم كانوا في بداية عهد الجمهورية من البطارقة دون غيرهم. ولما كان الكاهن في الوقت نفسه عضواً في مجلس الشيوخ ويتولى احد المناصب، فإن المصالح الطبقية والخاصة على السواء اخذت تطغى شيئاً فشيئاً على الديانة الرومانية الرسمية. وأخذت هذه الديانة تتسم شيئاً فشيئاً بطابع شكلي بحت.

وكان للكهنة دورٌ كبيرٌ في بداية عهد الجمهورية، لأنهم كانوا حراس القانون الديني الذي يسري تطبيقه في عقوبة جرائم كثيرة كانت معتبرة ذنوباً ضد الآلهة. ورجال الدين هؤلاء هم وحدهم الذين يعرفون هذا القانون والصيغ المتبعة في جميع انواع التعاقد حتى يكون العقد صحيحاً من الناحية القانونية. ورئيس الكهنة ـ الحبر الأعظم ـ هو الذي يحدد سنوياً أيام الأعياد العامة، دينية أم غير دينية، ويعلن في كل شهر الأيام التي يجوز مباشرة العمل الرسمي فيها، وتواريخ الأيام التي يحظر العمل فيها. وهو بالإتفاق مع جماعة العراف. كان من الممكن تعطيل اي اجراء عام، بالإعلان عن وقوع نذر سيئة في الموعد الذي كان محدداً لاتخاذ هذا الإجراء. إزاء هذا النفوذ الواسع، والمكانة العالية في الدولة، وإزاء ما كان من فرص لخدمة مصالح طبقتهم، فقد حرص البطارقة طويلاً على ان تقتصر عضوية الجماعات الدينية على أنفسهم.

ج ـ الديكتاتورية:

وضع الرومان بعض القواعد، في بداية عهد الجمهورية، لمنصب القنصلية حتى لا ينفرد شخص واحد بالسلطة، فاتسم قناصل الرومان بسمات ميزت منصبهم بالمبادىء التالية:

- مبدأ الزمالة في ممارسة السلطة على قدم المساواة par potestas
- مبدأ قصر مدة تولي المنصب على عام واحد.
- مبدأ حق الاعتراض Intercessio.

وبمرور الزمن، وبسبب الحروب الكثيرة التي خاضتها روما فيما بعد، إضطر الرومان الى التفكير في جعل السلطة كاملة في شخص واحد وانما لمدة محددة. وبناء على ذلك تشاور القنصلان مع مجلس الشيوخ، واتفقوا على ان

يتنازلا عن سلطتهما لشخص في أوقات الطوارىء يمارس سلطة مطلقة بمفرده لمدة ستة اشهر. وكان هذا الحاكم يعرف في اول الأمر «بحاكم الشعب» Magister Populi، ولم يلبث ان تغير هذا اللقب بـ «الدكتاتور» Dictator. ويختار الدكتاتور من بين القناصل القدماء غالباً. ويتخذ مساعداً له شخصاً يدعى قائد الفرسان Magister Equitum، على أن يتم تعليق العمل بجميع الوظائف الأخرى ما عدا محامي العامة Tribun.

واستعاض مجلس الشيوخ بعد سنة ٢١٦ ق.م عن الدكتاتور، بتوسيع صلاحيات القناصل. فكان اول ديكتاتور بعد ذلك التاريخ سولا Sulla. مع الانتباه الى ان الدكتاتور حرم من حق ركوب الخيل خوفاً من اعادة الملكية.

د ـ مجلس الشيوخ

يعتبر مجلس الشيوخ ممثلاً لعظمة الشعب الروماني والدولة، لهذا كان اسمه يرتفع دائماً على اعلام روما S.R.R اي «المجلس والشعب الرومانيان» وكان أكبر سلطة رومانية في العهد الجمهوري وإن لم يكن له سلطة تنفيذية. وكان يتم تعيين الشيوخ من بين صفوف البطارقة، قبل سنة ٣١٨ ق.م من جانب القناصل او الحكام العسكريين الذين حشوا المجلس بأصدقائهم. بينما أصبح بعد سنة ٣١٨ ق.م حق تعيين الشيوخ، اثر صدور القانون الأوفيني Lex Ovinia، منحصراً بمراقبي الأحصاء وحدهم او القونسورس Censores وتستمر عضوية الشيوخ مدى الحياة الا اذا ارتكب العضو عملاً مشيناً advita autculpam في سلوكه العام او الخاص. ولم يزد عدد اعضاء هذا المجلس في العهد الجمهوري عن ٣٠٠ شيخاً حتى بداية القرن الأول قبل الميلاد. وليس للمجلس مبدئياً حتى التقرير او التنفيذ لأن كل قرار عند الرومان خاصاً كان او عاماً يؤخذ في مجلس شورى. لكنه لم يلبث ان اكتسب حقاً هاماً وهو ابرام او نقض قرارات الجمعية الشعبية بحيث أصبحت مصادقة الشيوخ Patrum auctoritas على هذه القرارات شرطاً أساسياً لتكتسب قوة القانون، فتحول معها المجلس من هيئة استشارية الى هيئة رقابة عليا.

والأصول المتبعة في تعيين الشيوخ اختلفت باختلاف مراحل الحكم الجمهوري بعد ان تكتب اسماء المرشحين بالفحم الأسود على لوح أبيض يسمى

Album. كل خمس سنوات شرط ان تكتب عليها اسماء اصحاب الوظائف الكبرى بموجب القانون الأوفيني. فأمكن القول بأن وظيفة الشيوخ أصبحت محصورة بالطبقة الارستقراطية. كما أن تعيينهم اصطبغ بصبغة ديمقراطية لأن الشعب هو الذي ينتخب الحكام، وبسبب وظائفهم هذه يعينون شيوخاً ويكون رئيساً لمجلس الشيوخ Princips Senatus من يرد اسمه في رأس اللائحة.

وإمتاز الشيوخ بلبس القميص الرومانية الفضفاضة المحلاة بشرائط حمراء على أطرافها. سميت التوغا. وينتعلون الأحذية الحمراء التي تزينها بكلة فضية بشكل هلال.

تعقد جلسات مجلس الشيوخ في هيكل الكونكرد، أو في هيكل جوبيتر بالكابيتول[١] أو خارج حَرَم المدينة. على أن تبقى، طيلة الانعقاد، الأبواب مفتوحة، ودون أن تكون الجلسات علنية، يجلس في اثنائها الشيوخ على مقاعد أكثرها من الحجر، وليست معينة لكل واحد منهم، إذ يجلس الشيخ في المكان الفارغ عند وصوله. كما ان العرف لم يحدد عدداً معيناً لاكتمال النصاب. والشيوخ الذين كانوا لا يزالون يمارسون وظائفهم ليس لهم مبدئياً حق الاقتراع. بينما الكبار منهم لهم حق التعاون مع المجلس Jusagandiem Partibus أي حق رئاسة مجلس الشيوخ، وطرح الاقتراحات عليه، والتدخل في مناقشاته، اما الذين ينتخبون للوظائف من بين أعضاء المجلس، فقد جرت العادة بأن يمنحوا حق ابداء الرأي إذا دعت الحاجة، أي أنهم يدعون الى حضور مناقشات المجلس، وذلك منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد[٢].

---

(١) كان التقليد المتبع يحتم عقد الجلسة الأولى من كل سنة في هيكل الإله جوبيتر Jupiter Capitolinus، على ان يقدم رئيس مجلس الشيوخ والداعي الى جلسة الانعقاد ذبيحة لإله الهيكل الذي تنعقد فيه الجلسة.

(٢) إذا نال القرار او المشروع اكثرية المجلس، تجتمع لجنة صياغية للقرار او اعداد المشروع على ان يشمل: اسماء اصحاب السلطة التنفيذية - الحكام او القناصل - وتاريخ الجلسة ومكان انعقادها، واسماء المقترحين، واسماء لجنة الصياغة، ثم يأتي نص القرار نفسه. الذي يكتب =

وحدد الدستور الروماني صلاحيات مجلس الشيوخ بثلاث:

- الشورى Consilium
- الحكم بالوكالة Interregnum
- الوصاية Auetoritas

- **الشورى Consilium**

كان دور المجلس في العهد الملكي والعهد الجمهوري أيضاً استشارياً، فينعقد بدعوة ممن له الحق بالعمل معه، كبار الموظفين الشيوخ - كما لا يقرر بذاته جدول الأعمال، انما يعرض الرأي عليه الحاكم الذي دعا الى عقده، ثم يدعو بعد مناقشة المشاريع أو القرارات، الى التصويت الإسمي - المناداة بالاسماء - برفع الأيدي أو القيام والقعود.

وُيدوَّن رأي المجلس في محضر يساهم المترئس في نصه ويدعى Senatus Consultus وهو مجرد رأي أو مشورة لا أكثر. يحق للحكام الكبار قناصل وبريتور الاعتراض على المشورة. ويسمى هذا الحق Intercassio وإلغائها أحياناً وحق النقض Veto.

- **الحكم بالوكالة Interregnum**

كان المجلس في العهد الملكي، عندما يموت الملك، تنتقل سلطته الى الأباء في المجلس، الذين يعينون ملكاً بالوكالة الى أن يجري انتخاب الملك الجديد اما السلطة بالوكالة في العهد الجمهوري فقد أعطت المجلس، في حال موت القناصل أو اقالتهما لنقص في شرعية انتخابهما، حق تعيين حاكم بالوكالة يشرف بدوره على إجراء الانتخابات. كما يلجأ المجلس الى مثل هذه الحالة في حال انتخاب قناصل لا يروقون له.

= على نسختين على لوحات خشبية او برونزية تثبت احداهما في هيكل فيدس Fides آلهة الشرف وحفظ العهود في روما. والأخرى في هيكل الأمة او الجماعة صاحبة العلاقة.

ـ الوصاية Auetoritas

ولما كان بعض أعضاء المجلس «أباء Patres» فقد كان لهم حق الأبوة والوصاية على الشعب تماماً كالوالد على أبنائه. لذلك يحق للمجلس، بموجب سلطة الموافقة على القرارات التي يقررها آباء الشعب، حق الوصاية، حتى أصبح هذا الحق ـ الوصاية ـ في القرن الثاني قبل الميلاد ذا أهمية لمقارنته بقرارات الشعب الجديدة بالقرارات السابقة المنبثقة عن الانتخابات، والتي أعطى هذا الشعب فيها ثقته للحكام الذين يؤلفون مجلس اليوم، في العهد الجمهوري، وبذلك أصبح اعضاء المجلس يمثلون ارادة الناخبين المستمرة.

كانت هذه سلطات مجلس الشيوخ بموجب الدستور الروماني. إلا أن هذه السلطات ازدادت وتضاعفت على حساب سلطات الحكام، عندما حاول البطارقة اضعاف سلطة القناصل، بعدما أصبحت هذه الوظائف في متناول أبناء العامة، بفصلهم بعض صلاحيات القناصل، اعتقاداً من البطارقة بأنهم سيحتفظون بهذه الصلاحيات لأنفسهم.

هـ ـ الجمعية الشعبية Comitia Curiata

تعود التسمية الى كوريا Curia، وهي قسم من اقسام الشعب الروماني في العهد الملكي، وكان عددها عشرة، ثم أصبحت ثلاثين. ثم أطلق اسم كوريا على المكان الذي يسكنه الملك، وحتى على مكان اجتماع مجلس الشيوخ. وفي بداية العهد الجمهوري كانت هذه الجمعية هي التي تنتخب القنصلين سنوياً وتمنحهما سلطتهما التنفيذية العليا Imperium بمقتضى قانون خاص تصدره في كل حالة Lexcuriata Imperio وتوافق على المقترحات التي يعرضها عليها القناصل أو ترفض الموافقة دون أن تحق لها مناقشة المعروض عليها أو تعديله أو اقتراح بديل عنه، أي أن حقها كان مقصوراً على ابداء الرأي فيما يعرض عليها، وبخاصة عندما أصبح من حق مجلس الشيوخ ابرام أو نقض قراراتها.

وبقيت الجمعية الشعبية أو جمعية الكور مدة طويلة تقوم بدور المحكمة التي كان المواطنون الرومان يستأنفون أمامها ما صدر عليهم من أحكام بالاعدام أو بالنفي او بالجلد أو بدفع غرامة كبيرة. واحتفظت أيضاً حتى نهاية عهد

الجمهورية بحق الشهادة على الوصايا وحالات التبني والفصل في شرعية التبني. واقتصرت اجتماعاتها على الدعوة لتدريس بعض القوانين، وخاصة منها الدينية، على أن يترأسها الحبر الأعظم Pontife Maximun.

وكان التصويت في الجمعية الشعبية يتم بالمناداة علناً، اما برفع اليد أو الوقوف. وكان لكل كورة من الكور العشر صوت واحد فقط يمثل غالبيتها. إذ يعبر عن رأي الكورة بالرفض أو بالموافقة. وكان للبطاركة تأثير قوي على التصويت بسبب ما يتمتع به البطاركة من نفوذ شخصي وإلتزام أتباعهم على تأييد رغباتهم.

و ـ سيطرة البطارقة

لما كان البطارقة قد احتكروا تولي مناصب الحكام، وعضوية الجماعات الدينية فضلاً عن عضوية مجلس الشيوخ، على نحو ما عرفنا مما سبق، فإنهم بفضل هذا الاحتكار كانوا يمارسون السلطة العليا ويوجهون سياسة الدولة ويتحكمون في تصريف العدالة، والتحكم في قرارات الجمعية الشعبية عن طريق حق الشيوخ في ابرام هذه القرارات أو في نقضها إذا فشلت جهودهم في أخذ موافقة الجمعية الشعبية على وجهة نظرهم.

ولم يؤلف البطارقة من مجموع المواطنين الرومان إلا نسبة ضئيلة تتراوح بين ٧٪ و٨٪ فلا عجب إذا رأينا أن الغالبية العظمى من الشعب الروماني تصطدم مع طبقة البطارقة في نزاع مستمر للحصول منها على بعض من حقوقها المشروعة على ما سنرى فيما بعد.

٢ ـ تطور نظم الجمهورية الرومانية في النصف الأول من الحكم الجمهوري

أ ـ زيادة عدد القبائل

أخذ عدد القبائل الرومانية يزداد، بعد زيادة عدد المواطنين واتساع رقعة الاقليم[١]. فبعد أن كان عدد القبائل ثلاثاً في العهد الملكي، أصبح عددها في

---

(١) انظر مساحة الاقليم الروماني قبل التوسع وبعده في التنظيم السياسي لايطاليا بعد توحيدها.

العام ٢٦٥ ق.م. من العهد الجمهوري، خمس وثلاثون قبيلة: أربع قبائل منها داخل روما، والمواطنون الرومان في مختلف انحاء الاقليم الروماني، احدى وثلاثين قبيلة، كانت القبائل الريفية ـ خارج مدينة روما ـ تعرف بـ Tribus Rusticae، بينما تعرف القبائل داخل مدينة روما بـ القبائل الحضرية Tribus urbanae وقد أصبحت القبائل الدعائم الأساسية التي يعتمد عليها نظام التجنيد ودفع الضرائب الملكية لأن كل مواطن كان يتم تسجيله وما يملك في سجل قبيلة على أساس تقسيم الرومان الى قبائل اقليمية بحسب موقع مسكن كل منهم.

ب ـ الاصلاحات العسكرية

كان الجيش الروماني في العهد الملكي يتألف من ٣٠٠٠ راجل و٣٠٠ فارس يؤخذون بالتساوي من القبائل الثلاث القديمة داخل روما على أساس أن كل قبيلة تقدم ١٠٠٠ راجل و١٠٠ فارس، بقيادة ضابطهم الراجل Tribunus Militum وضابط فارس Tribunus celerum أي أن كل كورة من الكور العشرة كانت تسهم بمائة راجل وعشرة فرسان.

ولما كان هذا النظام قد بقي معمولاً به في بداية العهد الجمهوري وإن أدخل عليه بعض التعديلات بحيث ضوعف عدد الفرسان، فأصبح عدد افراد الجيش ٣٠٠٠ راجل أو ثلاثين مئيناً Centuria ثلاثين وحدة عدد أفراد كل منها مائة، و٦٠٠ فارس مقصوراً على البطارقة، كما كان أكثر المشاة منهم ومن اتباعهم أيضاً. لأنهم أكثر تدريباً وأوفر مالاً، وأقدر من غيرهم على تزويد أنفسهم بالخيول والأسلحة. لما كانت حروب روما الكثيرة، سببت عجز البطارقة عن النهوض باعبائها المتزايدة تزايداً لا يتناسب وعددهم. فقد عمدت روما الى زيادة عدد المواطنين الرومان، عن طريق الضم وتوسيع رقعة الاقليم، الذين ألقي على عاتقهم عبء الخدمة العسكرية. وتبعاً لذلك زيد عدد المشاة في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد الى أربعين مئيناً أي الى ٤٠٠٠ راجل أخضعوا الى تدريب وتنظيم يجعلهم كتلة صلبة متلاحمة phalanx على غرار ما كان معمولاً به عند الاغريق.

في اثناء الحرب مع مدينة فياي Veii الاتروسقية بين ٤٠٥ ـ ٣٩٦ ق.م. زاد الرومان من عدد جيشهم حتى صار ٦٠٠٠ مقاتل بتجنيد الشباب ممن تتراوح اعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والأربعين. مكونين ٦٠ مئيناً من المشاة الى جانب ست مئينات من الفرسان إنضموا جميعاً الى ما عرف بالجيش العامل. اما المواطنين الذين تتراوح اعمارهم بين السادسة والاربعين والستين كونوا منهم ٦٠ مئيناً من الشيوخ Senatos. على أن يعهد لهم أعمال الحراسة فقط. وبالنظر الى حاجة الدولة الى عدد كبير من الفرسان سمحت للقادرين من أصحاب الثروة المنقولة بالتطوع للخدمة في الجيش على صهوة جيادهم الخاصة، فعرفوا بـ «الفرسان ذوي الخيول الخاصة» Equites Equo privato أو Equites Equo Suo تمييزاً لهم عن «الفرسان ذوي خيول الدولة Equites equo publieo»[١].

ثم زادت روما من أعداد جيشها، إثر هزيمتها مع الغال في معركة أليا Allia، فأصبح يضم ٨٤٠٠ راجل و١٨٠٠ فارس، أي ٨٤ مئيناً من المشاة تنتظم في فرقتين ومن ثمانية عشر مئيناً من الفرسان. كذلك رُفع عدد الجيش المرابط الى ٨٤ مئيناً أيضاً. فضلاً الى أنهم أدخلوا ترتيبات جديدة على توزيع الاسلحة. فوضع الرومان أمام قوة المشاة الثقيلي العدة قوة من المشاة خفيفي العدة Velites تتألف من أصحاب المقاليع ورماة الرماح، وسلّح كل مقاتل في صفوف القسم الأمامي Principes من المشاة الثقيلي العدة بحربتين وسيف، وكل مقاتل في صفوف القسمين الأوسط Hostati والخلفي Triiorii بحربة طويلة. وفيما بعد سلح مقاتلو الصفوف الوسطى والخلفية بحراب طويلة.

ولم يلبث الرومان إلا أن استبدلوا التقسيم على اساس المئينات بوحدات تكتيكية منفصلة Manipulus تتألف كل وحدة منها من ٦٠ أو ١٢٠ مقاتلاً وأن هذه الوحدة كانت تقف في صفوف منتظمة متباعدة عن بعضها بعضاً. وبامكانها أن تترك مثلاً وحدات القسم الأوسط من خلال الثغرات لمساندة وحدات القسم الأمامي، ووحدات القسم الخلفي تتقدم لشد أزر وحدات القسم

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ص ١٥٩ ـ ١٦١.

الأوسط أو الأمامي بحسب الظروف. وعندما سمح للعامة بتولي منصب القنصلية دون قيد أو شرط في عام ٣٦٧ ق.م. أصبح في مقدور جميع أصحاب الكفاءات تولي منصب قيادة الجيش الجديد.

جـ - إنشاء جميعة المئينات أو الكوميسيا المئوية Comitia Centuriata

رُفع عدد القبائل بعد سنة ٤٧٠ ق.م. الى ٢١ قبيلة. أربع قبائل منها في مدينة روما، و١٧ قبيلة في الريف. لكن الشيء المهم في هذا التوزيع كما ذكرنا سابقاً، هو أن على المواطن الروماني ان ينتسب الى إحدى هذه القبائل يضاف اسمها الى اسمه كعنصر أساسي. وقد تم تقسيم الشعب منذ العهد الملكي الى طبقات على اساس دفع الضرائب المباشرة والتجنيد. ووزعت الطبقات بدورها الى مئويات. والتقسيم الطبقي بالنسبة الى الثروة كان على الشكل الآتي أواخر النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد.

ثلاث فئات Classes ومفردها Classis وقسمت كل فئة الى مئينات نصفها من الشباب ونصفها الآخر من الشيوخ وكانت:

- الفئة الأولى تضم: ٨٠ مئيناً - ٤٠ مئيناً من الشبان و٤٠ مئيناً من الشيوخ.
- الفئة الثانية تضم: ٢٠ مئيناً - ١٠ مئينات من الشبان و١٠ مئينات من الشيوخ.
- الفئة الثالثة تضم: ٢٠ مئيناً - ١٠ مئينات من الشبان و١٠ مئينات من الشيوخ

وبذلك كان يوجد ١٢٠ مئيناً - نصف للجيش المرابط ونصفها الآخر للجيش العامل ويضاف ٦ مئينات من الفرسان فيكون ١٢٦ مئيناً مجموع الجيش الكلي العامل والمرابط.

وفي أوائل القرن الرابع قبل الميلاد عندما زيدت قوة الجيش الروماني عقب نكبة أليا Allia، ترتب على ذلك اضافة فئتين آخريين هما الفئة الرابعة والخامسة، فأصبح التوزيع على النحو الآتي:

- الفئة الأولى تضم: ٨٠ مئينا - ٤٠ مئيناً من الشبان ٤٠ مئيناً من الشيوخ.
- الفئة الثانية تضم: ٢٠ مئيناً - ١٠ مئينات من الشبان و١٠ مئينات من الشيوخ.
- الفئة الثالثة تضم: ٢٠ مئيناً - ١٠ مئينات من الشبان و١٠ مئينات من الشيوخ.

ـ الفئة الرابعة تضم: ٢٠ مئيناً ـ ١٠ مئينات من الشبان و١٠ مئينات من الشيوخ.
ـ الفئة الخامسة تضم: ٣٠ مئيناً ـ ١٥ مئيناً من الشبان و١٥ مئيناً من الشيوخ.
و٠٤ مئينات من العمال Fabri والموسيقيين Cornieines
و ٠١ مئينة من أفقر المواطنين Proletarii يدعون عند الضرورة
و١٨ مئيناً من الفرسان من خارج الفئات الخمس الأولى
فيكون المجموع ١٩٣ مئوية مجموع مئينات الجيش.

وعندما اضطرت روما، اثر هزيمة شعاب قاوديوم، لم تلجأ الى زيادة عدد مئينات كل فئة، وانما عمدت الى زيادة أفراد كل مئين. وأن اصطلاح المئين الذي كان يعني أصلاً وحدة عسكرية تتألف من مائة مقاتل، قد فقد مدلوله الأصلي نتيجة لعاملين:

ـ **العامل الأول**: أصبح بالتدريج عدد أفراد المئين يزيد على مائة في حالة مئينات الشبان، ويقل عن مائة في حالة مئينات الشيوخ.
ـ **العامل الأخر**: نتيجة للإصلاح العسكري الذي أدخل على تنظيم الجيش بعد الخسارة في آليا Allia لم تعد المئينات تكوّن الوحدات الاساسية في الجيش بل خلفتها وحدات تكتيكية Manipulus أخرى.

وعلى الرغم من هذه التغيرات التي طرأت على مدلول اصطلاح المئين، فإن المواطنين الرومان ظلوا ينقسمون الى الفئات التي ذكرتها قبلاً، وان كل فئة ظلت تتألف من ذات عدد المئينات، لأن المئين أصبح يؤلف وحدة إنتخابية في جمعية شعبية جديدة سنأتي عليها في الكلام.

وعلى هذا الاساس كان المواطنون الرومان يصنّفون مئينات وفئات، ولا يتحدد مركزهم الضريبي فحسب بل مئين كل المواطنين والوحدات التي تنظم المئينات المختلفة. وبعد تصنيف المواطنين، كانت المئينات تدعى للاجتماع في تشكيلاتها العسكرية بقيادة ضباطها وتحت ألويتها. ولما كان اجتماع هذه المئينات

في تشكيلات عسكرية على هيئة جيش Exereitus . ولما كان غير مسموح للجيش بالاجتماع داخل روما. لذلك كانت المئنيات تدعى للاجتماع في ساحة التدريب العسكري المعروفة باسم ساحة إله الحرب مارس Campus Martius خارج سور روما المقدس Pomerium.

وتبعاً لذلك، صار المواطنون، بطارقة وعامة، يدعون للخدمة العسكرية على أساس واحد هو القدرتين البدنية والمالية. ومن البديهي أن يكون لكل واجب حق يقابله. فإن كل الفئات التي ذكرتها منحت عدداً من الأصوات يقابل عدد مئيناتها، وان عملية التصويت نظمت بحيث يبدأ بمئينات الفرسان ثم تليها مئينات الفئة الأولى فمئينات الفئة الثانية وهكذا دواليك. وبما أن كل مئين في الجمعية الشعبية يدلي بصوته على حدة، لمعرفة الرأي الذي يمثل رأي غالبيته. فإن هذه الجمعية سميت «جمية المئينات» Comitia Centuriata وقد إستكملت شكلها النهائي في القرن الرابع قبل الميلاد.

وحتى الربع الأخير من هذا القرن، كان المواطنون الرومان يوزعون على مئينات الفرسان ومئينات الفئات الخمس وفقاً لمقدار ما يملكونه من أرض وماشية وعبيد. اما بعد عام ٣١٢ ق.م. في ايام قنسورية أبيوس قلاوديوس أصبح التوزيع على أساس القيمة النقدية لثروة المواطنين، وبذلك تساوى أصحاب الثروة النقدية وهم أقلية مع أصحاب الأراضي والماشية والعبيد في عضوية جميعة المئينات بحسب القيمة النقدية للثروة:

١ ـ مئينات الفرسان، ممن تزيد ثروتهم على ١٠٠,٠٠٠ آس[١]

٢ ـ الطبقة الأولى، ممن لا تقل ثروتهم عن ١٠٠,٠٠٠ آس

٣ ـ الطبقة الثانية، ممن لا تقل ثروتهم عن ٧٥,٠٠٠ آس

٤ ـ الطبقة الثالثة، ممن لا تقل ثروتهم عن ٥٠,٠٠٠ آس

٥ ـ الطبقة الرابعة ممن لا تقل ثروتهم عن ٢٥,٠٠٠ آس

٦ ـ الطبقة الخامسة ممن لا تقل ثروتهم عن ١١,٠٠٠ آس.

---

(١) الـ آس as = رطل روماني من البرونز. نصحي. تاريخ الرومان ١/ ١٦٥.

ولم يمض وقت طويل حتى صارت جمعية المئينات هيئة سياسية أكثر منها تنظيماً عسكرياً ، لأنها بمرور الزمن أصبحت تضم كثيرين ممن لم يعودوا صالحين للخدمة العسكرية. كما ان مئينات الفرسان فقدت طابعها العسكري، وبخاصة عندما أخذ اسم الفرسان يشمل ليس فقط ملاك الأراضي المسجلين في مئينات الفرسان بل أيضاً أثرياء التجار الذين لم يكونوا مسجلين في هذه المئينات الممتازة وظلوا لا يسجلون فيها بسبب ثروتهم المنقولة، ولكنه كان لديهم نصاب الفرسان. وقد حدث هذان التطوران لعاملين، هما:

- **العامل الأول**: قد أتينا على ذكره سابقاً، من أنه في أثناء محاربة مدينة فياي Feii سمح لأثرياء التجار من المواطنين الرومان بالتطوع للخدمة في الجيش على صهوة خيولهم.
- **العامل الآخر**: أنه منذ ألقت روما على عاتق حلفائها عبء إمداد الجيش الروماني بالفرسان قلّ إعتمادها تدريجاً على الفرسان الرومان.

والواقع ان جمعية المئينات قد حافظت على طابع تكوينها الأصلي ليس فقط من حيث تقسيم المواطنين الى فئات ومئينات. بل أيضاً من حيث انعقادها الذي ظل وقتاً طويلاً على هيئة انتظام المواطنين في تشكيلاتهم العسكرية بقيادة ضباطهم وتحت ألويتهم. ومن حيث أنه في أثناء انعقادها كان يرفع عَلَمَ الحرب ويوضع حرس فوق تل قابيتولينوس، ومن حيث انها ظلت بانتظام لا تعقد اجتماعاتها إلا في ساحة الإله مارس، ولا تجتمع إلا بناء على دعوة صادرة من حاكم يتمتع بالسلطة القنصلية Imperium لأن هذه السلطة تتضمن سلطة عسكرية. والجدير ذكره في هذا المجال انه لا يتمتع بالسلطة التنفيذية إلا الدكتاتور والقناصل والبرايتورس.

إنتقلت الى جمعية المئينات بالتدريج أغلب اختصاصات جمعية الكور Comitia Curiata. فأصبحت بذلك الجمعية الرئيسية للشعب الروماني، الى ان تضاءلت مهمتها التشريعية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، لقيام جمعية اخرى هي جمعية القبائل Comitia Tributa التي سأتحدث عنها في معرض الحديث عن الصراع بين البطارقة والعامة.

وبحكم نشأة جميعة المئينات وتكوينها كان لها الحق في الموافقة على اعلان الحرب. ثم صارت تنتخب كبار الحكام جميعاً، وتعرض عليها كل التشريعات التي يتقدم بها الحكام المتمتعون بالسلطة التنفيذية Imperium لإقرارها أو رفضها. وحوالي العام ٣٥٠ ق.م. أصبحت هذه الجمعية هي التي يستأنف المواطنون أمامها الأحكام الشديدة الصادرة عليهم. لكن تمسك مجلس الشيوخ لمدة طويلة بحق ابرام Patrum auetoritas القرارات التي تصدرها جمعية المئينات قبل أن تكتسب سلطة القانون، حَدَّ من السلطة التشريعية التي كانت تتمتع بها هذه الجمعية طوال هذه المدة، ولم يعد لهذا القيد أي وطأة بعدما أصدر الدكتاتور بويليليوس في عام ٣٣٩ ق.م. القانون المعروف باسمه Lex Publilia. إذ قضى هذا القانون بأن يقر السناتو أو يرفض الاقتراحات قبل عرضها على جمعية المئينات.

وكما كان متبعاً في جمعية الكور. لم يكن من حق جمعية المئينات اقتراح التشريعات، أو مناقشة أو تعديل ما يعرضه عليها الحاكم الذي يدعوها للانعقاد ويرأس اجتماعها. وكان أيضاً افراد كل مئين يدلون باصواتهم على انفراد لتبيين رأي غالبيتهم، وهو يعتبر صوتاً واحداً يعبر عن رأي المئين بأجمعه. هذا ولا يغيب عن بالنا انه كان يختار من بين مئينات الفرسان المئين الذي يكون له شرف البدء في الإدلاء بالأصوات Centuria praerogativa على حين أن مئينات كل فئة كانت تدلي بأصواتها في وقت واحد عندما يأتي دور تلك الفئة. ويسجل صوت كل مئين بمجرد وصوله الى نتيجة. ومن مفارقات نظم جميعة المئينات أنه بالرغم من أن عدد أفراد مئينات الشيوخ كان أقل من عدد أفراد مئينات الشبان - طبعا لأن الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و٤٥ سنة أكثر من الذين تتراوح اعمارهم بين ٤٦ و٦٠ سنة - فانه كان للشيوخ ٨٤ صوتاً مثل ما كان للشبان تماماً.

وعند الادلاء بالأصوات كانت مئينات الفرسان تدلي بأصواتها أولاً ثم تليها مئينات الفئة الأولى فمئينات الفئة الثانية، الى ان تتكون غالبية مطلقة لصالح أو ضد المشروع المعروض أو المرشحين لشغل المناصب العامة، وبمجرد الوصول الى غالبية مطلقة كانت تتوقف عملية التصويت. وبناء عليه، كانت مئينات

الفئات الدنيا نادراً ما تدعى للإدلاء بأصواتها. وبخاصة عندما كانت مئينات الفرسان ومئينات الفئة الأولى تُجمِع على رأي واحد. فقد كان مجموع أصوات الفرسان ١٨ وأصوات مئينات الفئة الأولى ٨٠ = ٩٨ صوتاً، يزيد على نصف المجموع الكلي للأصوات في جمعية المئينات، وهو يخدم مصالح الفريقين أصحاب الثروة في المجتمع الروماني.

٣ ـ انشاء وظائف جديدة للحكام الرومان

أ ـ الترابنة العسكريون ذوو السلطة القنصلية Tribuni Militum consulari potestate

أوجبت الاصلاحات العسكرية اختيار اكثر من شخصين (قنصلين) لممارسة السلطة المدنية والعسكرية في عدة أماكن وفي وقت واحد. فيما بين عامي ٤٤٤ و٣٦٧ ق.م. استبدل الرومان بالقنصلين (عدة مرات، وفي فترات غير منتظمة) هيئة من الحكام، كان عددهم يزداد باطراد ويدعون «الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية، وتفصيل ذلك: انتخبت ست هيئات من هؤلاء الترابنة بين عامي ٤٤٤ و٤٢٧ ق.م.، وكان عدد أعضاء كل هيئة عندئذ ثلاثة فقط. وكذلك بين عامي ٤٢٦ و٤٠٦ ق.م. انتخبت عشر هيئات من هؤلاء الترابنة، كانت ثلاث منها ثلاثية العدد، وسبع منها رباعيته، وفيما بين عامي ٤٠٥ و٣٦٧ ق.م. انتخبت ثلاث وثلاثون هيئة كانت عادة سداسية العدد. وإن كان يتعذر التثبت من عدد أعضاء بعضها[١].

وفي العهد الملكي، كان التريبون نقيب القبيلة وقائد الجنود الذين تقدمهم قبيلته، لأن كل قبيلة كانت تقدم ١٠٠٠ جندي فإن لقب تريبون عسكري كان يطلق على قائد كل وحدة من الجنود يبلغ عددها ألفا، اما عندما أصبح نظام الجيش لا يقوم على اساس قبلي، وانما على اساس الفئات التي قُسِّم اليها المواطنون الرومان. أصبح لقب التريبون يطلق على ضباط الوحدات الرئيسية في

---

(١) ماغريفور، ماري تاريخ الرومان ص ٣٠ ـ ٣٢.

الجيش الروماني. فهذا هو مدلول لقب تريبون عسكري في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد. ولهذا فإن الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية كانوا الضباط الرئيسيين للقوات الرومانية ويتمتعون بالسلطة التنفيذية Imperium التي كان القناصل يتمتعون بها، وكانت جمعية المئينات هي التي تنتخبهم.

وفي العام٣٦٧ ق.م. تقرر العودة الى انتخاب قنصلين سنوياً لتولي السلطة العليا مدنية وعسكرية، اعتباراً من العالم التالي ٣٦٦ ق.م.، تَمَّ الاستغناء عن تجربة انتخاب الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية والعودة الى نظام القنصلية. ومنذ ذلك الوقت صارت السلطة العليا، كما كانت في الماضي عند بداية العهد الجمهوري، للقنصلين مع امكان اسنادها حين تقتضي الضرورة الى حاكم جديد تقرر اختياره لمساعدة القنصلين. وأصبح الترابنة العسكريين ضباط وحدات في الجيش تحت إمرة القائد العام.

ب ـ البرايتورس Praetores

بعد أن أعيد العمل بنظام القنصلية، تقرر ان تنتخب جمعية المئينات سنوياً حاكماً جديداً يدعى برايتور Praetor لمساعدة القنصلين في القيام بأعباء وظيفتهما. وتبعاً لذلك كان يمنح السلطة التنفيذية العليا وتسند اليه مهمة تصريف العدالة بدلاً من القنصلين لكي يتسنى لهما التفرغ الى باقي مهامهم، وبخاصة الشؤون العسكرية. وبما ان البرايتور كان ينتخب في الأساس لمساعدة القنصلين، ويتمتع بالسلطة العليا. فإنه عند الضرورة كان يتولى قيادة احد الجيوش، وأحياناً دعوة مجلس الشيوخ، أو إحدى الجمعيات الشعبية للاجتماع. وحتى عام ٣٣٧ ق.م كان تولى البرايتورية مقتصراً على طبقة البطارقة.

وتقرر في حوالى العام ٢٤٢ ق.م، عندما اتسع نطاق العلاقات الخارجية الرومانية، ان ينتخب سنوياً برايتور ثانٍ ليشرف على الفصل في القضايا التي يكون احد طرفيها او كلاهما من الأجانب. وللتفرقة بين هذين الحاكمين كان أولهما يسمى برايتور المدينة Praetor Urbanus وثانيهما يسمى برايتور الأجانب

Praetor Peregrinus وهذا اختصار لعبارة البرايتور الذي يقضي في امور الأجانب Praetor qui inter Peregrines ius dieit.

وتقتصر صلاحيات البرايتور القضائي على القضايا المدنية. فهو يستمع في المرافعات المبدئية، ثم يصدر تعليماته الى قاض Index أو الى هيئة تتألف من ثلاثة او خمسة محلفين Recuperato لفحص الأدلة واصدار الحكم. وكان من أهم واجبات البرايتور ان يصدر فَوْرَ توليه منصبه الجديد قراراً يبين القواعد التي سيفصل بمقتضاها في القضايا المنطوية على نقاط لا تعطى فيها القوانين القائمة او العرف السائد أحكاماً قاطعة. وقد كان لقرارات Edicta البرايتورس المتعاقبين دور كبير في تطور القانون الروماني.

وبسبب توسع روما في فتوحاتها خارج شبه الجزيرة الإيطالية، وما يقتضي هذا التوسع، من حاجة الى حكام يتولون ادارة ممتلكات روما خارج ايطاليا التي كانت تسمى ولايات، اتسع نطاق اختصاصات البرايتورس ولم يعد اختصاصهم الفصل في القضايا فقط بل تعداه الى ان أسند اليهم حكم بعض الولايات. فكانت من هنا الحاجة الى زيادة عددهم على نحو ما سأتحدث عنه عند الحديث على الجمهورية الرومانية في النصف الثاني.

جـ ـ القنسورس Censores

تزامن إنشاء وظيفة التربيونية ذات السلطة القنصلية وحوالى عام ٤٤٣ وظيفة جديدة هي وظيفة القنسورية اعتباراً من عام ٤٤٥ ق.م تكون مهمة من يتولاها عملية إحصاء Censuss المواطنين الرومان وممتلكاتهم. ولما كان الإحصاء يجري في روما كل خمس سنوات في الربيع. لذلك، كانت الجمعية المئينية تنتخب قنسورين في بداية كل فترة احصائية، أي كل خمس سنوات، ليتوليا منصبيهما في الربيع. ويشغل القنسوزان منصبيهما مدة ثمانية عشر شهراً فقط، ولا يتمتعان بالسلطة التنفيذية العليا Imperium. وكان أهم عمل يقومان به فور تسلمهما منصبيهما هو:

أولاً: تسجيل كل المواطنين الرومان وممتلكاتهم تبعاً لقبائلهم وتوزيعهم على الفئات والمئينات المختلفة. على أن يتم الإنتهاء من اعداد قوائم

الإحصاء في خلال فترة تتراوح بين اثني عشر شهراً وخمسة عشر شهراً منذ تولي القنسورين منصبيهما.

ثانياً: فحص قوائم الإحصاء ومعاقبة الذين أعطوا بيانات غير صحيحة أفضت الى تسجيلهم في فئة أدنى من الفئة التي تؤهلهم لها ثروتهم. أو تأخروا عن تسجيل انفسهم وممتلكاتهم بغرض غرامات عليهم.

ثالثاً: يعاقبون الذين اتسموا بالجبن في ميدان القتال او بددوا الأموال العامة، أو أساءوا السلوك في حياتهم الخاصة بالحكم عليهم بسوء السمعة Infamis، وبتسجيلهم في فئة أدنى من الفئة التي تؤهلهم لها ثروتهم. واحترام الرأي العام لمثل هكذا حكم، يفتقر الى الصيغة القانونية الشكلية. كان يكسبه قوة الحكم الصادر من هيئة قضائية. لكن كان باستطاعة اي قنسور يأتي بعد ذلك أن يعيد النظر في قضايا من سبقت ادانتهم بسببها، ورد اعتبارهم باعادتهم الى مكانتهم السابقة.

ظل القنسورس يمارسون الرقابة الخلقية بدقة وعناية، ما دام المواطنون الرومان متمسكين وكذلك القنسورس بمستوى خلقي عالٍ. واتسع نطاق رقابة القنسورس، قبل بداية القرن الرابع قبل الميلاد، فشمل سلوك أعضاء مجلس الشيوخ في الشؤون العامة والخاصة لاستبعاد اسماء المجرمين من هؤلاء الأعضاء بوضع امام اسم كل منهم العلامة الدالة على عدم الصلاحية لعضوية هذا المجلس nota Censoris واعداد قائمة جديدة بأسماء الصالحين لعضويته.

رابعاً: تقدير ضريبة الملكية Tributum التي تجمع في وقت الحرب.

فلم يكن ميسوراً سواء للقنصليين ام للترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية مباشرة هذه العملية الى جانب الاضطلاع بمهامهم الأخرى. لذلك كان من اختصاص القنسورس ايضاً التعاقد باسم الدولة على استثمار ممتلكاتها واقامة منشآتها العامة.

من أجل هذه المهام الدقيقة والخطيرة، كان لا ينتخب لتولي وظيفة القنسورية إلا من سبق لهم تولي وظيفة القنصلية. وكانوا يتمتعون بأخلاق عالية. وقد ظلت وظيفة القنسورية مقتصرة على ابناء طبقة البطارقة حتى عام

٣٥١ ق.م، ثم توصل العامة الى إكتساب هذا الحق في عام ٣٣٩ ق.م وتأكد ذلك عندما تقرر: انه يجب ان يكون أحد القنسرين على الأقل في كل مرة من العامة. ولكنه لم يشغل هذه الوظيفة إثنان من العامة في وقت واحد قبل عام ١٣١ ق.م.

د ـ الكوايستروس Quaestores

لم تنشأ وظيفة الكوايستور الا في بداية عهد الجمهورية عندما كان القنصلان يعينان سنوياً كوايستورين لينوبا عنهما في الفصل في قضايا القتل بدون مبرر Quaestores Parrarieidii. ولم يصبح الكوايستوران في عداد الحكام الرومان إلا عندما تقرر في عام ٤٤٩ ق.م، ان تنتخب جمعية القبائل Comitia Tributa في كل عام كوايستورين من البطارقة. في حين ارتفع عدد الكوايستورس إلى أربعة عندما أعطي الحق للعامة بتولي هذه الوظيفة في عام ٤٢١ ق.م. فأصبح اثنان منهما «أميني الخزانة العامة» Quaestores Tribani أو Quaestores aerarii. أما الاثنان الآخران فيساعدان القنصلين ويصحبانهما الى ميدان القتال ليتوليان مهمة توفير مؤونة الجيش وصرف رواتب الجنود. وزيد عدد الكوايستروس، في عام ٢٦٧ ق.م، الى ثمانية عهد الى الأربعة الجدد الاهتمام بتوفير حاجة روما الى المال والرجال من الأقاليم الإيطالية التي ضمتها. وكانوا يسمون «كوايستورس الايطاليين» Quaestores Italiei.

واعتباراً من إنشاء وظيفة البرايتورية في عام ٣٦٦ ق.م، اصبح اختصاص الكوايستورس في روما مقصوراً على الشؤون المالية دون القضائية. وأصبح «أمينا الخزانة العامة» اهم الكوايستورس جميعاً. فيما راح الباقون يصحبون القواد العسكريين الى ميدان القتال، ثم فيما بعد يصحبون حكام الولايات الى ولاياتهم ليمارسوا أعمالاً لا تمت الى الشؤون المالية بصلة. ووظيفة الكوايستور تعتبر أدنى الوظائف في سلك الوظائف العامة الرومانية Cursus honorum. لكن من يتولاها كان يعتبرها تجربة ناجحة وصولاً الى تولي الوظائف التي تليها.

٤ ـ اطالة مدة ممارسة السلطة التنفيذية العليا

في حوالى العام ٣٩٠ ق.م. تقرر الا يعاد انتخاب اي مواطن لتولي المنصب ذاته قبل انقضاء فترة عشر سنوات على توليه المنصب من قبل. لكن الرومان الذين ينتخبون القنصل في بداية عهد الجمهورية لمدة سنة واحدة، لم تتلائم مع تواصل الحروب التي كانت روما تقوم بها سواء في رد عدوان عن ممتلكات او في شن غزوات وحروب توسعية. فظهرت للرومان عيوب تخلي القنصل عن قيادته بمجرد انتهاء عام حكمه[1]. لذلك أبقوا على خدمات القناصل بعد انتهاء حكمهم الى ان يفرغوا من المهام القيادية التي كانوا يضطلعون بها. وطبعاً لم يفعل الرومان ذلك عن طريق استبقاء القناصل في مناصبهم، وانما عن طريق اطالة ممارستهم السلطة القنصلية Prorogatio Consulare Imperium. ولما كانت هذه المهمة التي يقوم بها القنصل السابق الذي اطيلت مدة ممارسته السلطة القنصلية. كانت من صميم اختصاص القنصل، فقد أعطي لقباً هو بروقنصل Pro Consule. وجمعها Proconsule اي القائم بعمل القنصل. وكانت سلطته تسمى السلطة البروقنصلية Pro Consulare Imperium. وفيما كان من المفروض ان تؤخذ موافقة جمعية المئينات على أطالة مدة ممارسة السلطة القنصلية.

وتجاه اتساع نطاق الامبراطورية الرومانية في خلال القرن الثاني قبل الميلاد صارت القاعدة اعتباراً من عام ١٤٦ ق.م هي اطالة مدة ممارسة السلطة القنصلية، والسلطة البرايتورية بعد انقضاء عام على حكم القناصل والبرايتورس ليتولوا حكم ولايات الامبراطورية، بوصف الواحد منهم قائماً بعمل القنصل Pro Consule او قائماً بعمل البروبرايتور Pro Praetore. وكان مجلس الشيوخ هو الذي يقرر في كل عام أية ولاية يتولى حكمها بروقنصل وأية ولاية يتولى حكمها برواكيتوتيور[2].

قبل بداية القرن الرابع قبل الميلاد، استكمل الرومان سلك الوظائف

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/١٧٦.

(٢) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/١٧٧.

الرومانية الذي ظل معمولاً به حتى نهاية عهد الجمهورية. والملاحظ ان تلك الوظائف لم تكن متساوية في المرتبة بسبب تباين اهمية اختصاصات كل منها. وكان شغلها طبقاً لنظام اقتضاه العرف اولاً، ثم حدده قانون صدر في عام ٣٤٢ ق.م. وكان على طالب شغل اي وظيفة في السلك العام ان يكتسب الخبرة العسكرية اولاً، ثم يتولى الوظائف العامة وفقاً للترتيب التالي: الكوايستورية فالأيديلية او التريبونية الشعبية فالبرايتورية فالقنصلية. دون أن يكون تولي الأيديلية او التريبونية الشعبية شرطاً أساسياً لتولي البرايتورية. أما القنسورية والدكتاتورية، فإنه كان لا يتولاهما إلا القناصل السابقون[1].

وحتى لا تتأثر مصالح الدولة العليا، عندما يكون القنصلان في روما معاً، فقد يتناوبان السهر على مصلحة الدولة، كما يتناوبان القيادة العليا يوماً فيوماً حين يكونان سوياً في ميدان واحد للقتال، لأن الزمالة في شغل الوظائف العامة. كانت تُعطي الحق لأي حاكم في الاعتراض Intereesio على أعمال زميله ووقفها. وكان الحكام الأعلى مرتبة يتمتعون بنفوذ اعلى Major Potestas ممن هم أدنى مرتبة، ويحق لهم عادة وقف تصرفاتهم أو الغاؤها. ومن هنا، القول بأن القنصلين او الدكتاتور في وسعهم الاشراف على تصرفات جميع الحكام الآخرين. وهذا الترابط بين مناصب الحكام، ساعد على دعمه ازدياد نفوذ مجلس الشيوخ على الحكام تبعاً للحد من اختصاصات القناصل وسلطتهم، وإنشاء وظائف جديدة.

ففي حين أن الحكام جميعاً تقريباً يتمتعون بقدر متفاوت من النفوذ Potestas. فإن الدكتاتور، والقناصل، والبرايتورس فقط هم الذين كانوا يتمتعون بالسلطة التنفيذية Imperium، بدرجات متفاوتة، وهؤلاء، فقط يحق لهم تولي القيادة العسكرية، ودعوة مجلس الشيوخ، والجمعيات الشعبية للاجتماع، والفصل في القضايا. على أنه يحق للحكام جميعاً اتخاذ ما يلزم من

---

(١) ماغريفور، ماري تاريخ الرومان ص ٣٤.

اجراءات لاطاعة وتنفيذ اوامرهم بالقاء القبض Coereitio على من يرفضون إطاعتها.

٥ ـ الصراع بين الطبقات

نشأ الصراع بين الطبقات ـ العامة والبطارقة ـ في روما في بداية الحكم الجمهوري نتيجة لعاملين:

العامل الأول: دخول روما في سلسلة من الحروب المتواصلة، ادى الى إزدياد الأعباء التي أُلقيت على كاهل ابناء الطبقة العامة، لأن البطارقة لم يعد بمقدورهم الإنفراد بتحمل اعبائها.

العامل الآخر: احتكار البطارقة تولي الوظائف العامة، وعضوية مجلس الشيوخ، والجماعات الدينية، وبمعنى آخر احتكار أجهزة الحكم، وتصريف العدالة بصرامة شديدة.

لهذا لم تستمر الحالة طويلاً وفق هذه الممارسات، الأمر الذي نشأ عنها الصراع الطبقي بين العامة والبطارقة. الذي امتد زهاء قرنين. تمكن خلالهما العامة من الحصول على بعض المكاسب، بإنشاء وظائف عامة جديدة وإنشاء جمعيتي: المئينات والقبائل ونمو هاتين الجمعيتين بسلطاتهما التي تصاحبت مع الجهود التي بذلها العامة للفوز بالمساواة مع البطارقة في الحقوق والامتيازات التي كانت وقفاً عليهم في بداية العهد الجمهوري.

لم تحصل العامة على مكاسبها من البطارقة بالسهولة، إذ لاقت مطالب العامة معارضة قوية من البطارقة، بسبب مركزهم وسيطرتهم المطلقة على أجهزة الحكم، ومكانتهم الفردية والجماعية فضلاً عن تأييد اتباعهم، في كل عمل يقومون به، مغلوبين على أمرهم. فقد ساعد على تحقيق مطالب العامة عاملان، وهما:

العامل الأول: أصبح بين العامة العدد الكبير ممن كانت ثرواتهم تعادل ثروات البطارقة، ويرفضون حرمانهم حقهم الطبيعي في تولي الوظائف العامة، وبخاصة بعد بروز زعماء أعضاء منهم قادوا العامة في صراعهم مع البطارقة.

ـ **العامل الآخر**: اشتراك روما في حروب شبه مستمرة أدى الى زيادة الأعباء الملقاة على عاتق المواطنين الرومان من ابناء الطبقة العامة الذين شاركوا البطارقة مشاركة كاملة في تحمل هذه الأعباء.

لذلك لم يعد بالإمكان تجاهل العامة والاستمرار الى ما شاء الله في حرمانهم حقهم بالمساواة السياسية مع البطارقة دون تعريض مصالح الدولة الرومانية للخطر. فتجاوب مع مطالب العامة بعض أعضاء مجلس الشيوخ البطارقة، ببعد نظرهم، كلما شعروا بأن التأخير في تلبية بعض المطالب قد يؤدي الى حرب أهلية او تنفيذ تهديد العامة بالهجرة من روما وترك أبناء البطارقة يتحملون وحدهم الدفاع عن المدينة.

وعلى الرغم من نزول البطارقة عن تسلطهم والقبول بمبدأ إتخاذ الثروة اساساً لتوزيع اعباء الخدمة العسكرية على المواطنين، فأدى إلى إنشاء جمعية المثينات، ونَظَّمَ عمليات توزيع الأصوات. فقد ظل البطارقة يتحكمون بالأمور. ولم يستطع العامة تحقيق مطالبهم عن طريق اشتراكهم في عضوية هذه الجمعية لأن تحكم البطارقة في توزيع الأصوات وخضوع قرارات هذه الجمعية لموافقة مجلس الشيوخ قبل أن تكتسب قوة القانون أبقى مكسب إنشاء جمعية المثينات دون فائدة تُذكر.

وأذكى شعور العامة بالاجحاف والظلم عاملان آخران وهما:

العامل الأول: إحتفاظ العامة بنصيب الأسد من الأراضي التي كانت تضم الى الدولة، على الرغم من أن العامة قد شاركوا البطارقة في الحروب التي بنتيجتها جرى ضم الأراضي.

العامل الآخر: عجز أرباب الأراضي عن سداد الديون لدفع الضريبة على الممتلكات Tributum لسد نفقات الحروب، بعدما عاد هؤلاء المزارعون الجنود من الحروب ووجدوا أراضيهم لم تستغل كما يجب. فعجز عن سداد الدين، مما جعل الحق للدائنين الاستيلاء على أراضي المدين، وإذا لم تكفِ للوفاء بالدين الاستيلاء على شخص المدين واستبعاده في خدمته او بيعه في سوق النخاسة.

وقد تحققت مطالب العامة على مراحل متتابعة، لكن تحقيقها لم يؤدِ في الواقع الى تحقيق المساواة بين العامة والارستقراطية.

أ ـ ترابنة العامة Tribuni Plebis، مجلس العامة Coneilium Plebis وجمعية القبائل Comitia Tributa

إنتخب العامة، في عام ٤٩٤ ق.م، من بينهم نقيبين يسميان «تريبوني العامة» على ان يكون لهما حق الاعتراض Intereessio على اي اجراء او تصرف يصدر عن اي حاكم في أثناء ممارسته سلطته، وبسط حمايتهما على كل من ينشدها من العامة نجاةً من اجراءات الحكام وتصرفاتهم. وقد إستمد تريبونا العامة سلطتهما من اليمين التي أقسمها العامة باعتبار شخصيهما مقدسين لا يجوز مسهما Saeroseant. وأن كل من يغفل تدخل اي واحد من تريبوني العامة أو يعتدي عليه انه قد حلت به لعنة الآلهة ويباح سفك دمه. وبما ان البطارقة، لم يتحدوا هذا الاجراء، فإنه كان اول اجراء فاز به العامة مما شجعهم في عام ٤٧١ ق.م على اتخاذ خطوتين اخريين:

الخطوة الأولى: تكوين مجلس عرف «بمجلس العامة» Coneilium Plebis وفي هذا المجلس كانت الوحدة الانتخابية، هي القبيلة وليست الكورة ولا المئين.

الخطوة الثانية: كانت زيادة عدد الترابنة العامين الى اربعة. وكان مجلس العامة هو الذي ينتخبهم سنوياً.

لكن بما أن عضوية مجلس العامة كانت مقصورة على عامة القبائل الأربع التي اختصت بها مدينة روما. ولما كان المجلس الذي شكله العامة لا يضم المواطنين الرومان جميعاً ولا يحظى باعتراف البطارقة به رسمياً، فإنه لم يعتبر في عداد الجمعيات الشعبية الرسمية.

وحوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد طرأ بعض التغيير على الأوضاع التي كانت سائدة في روما وبخاصة ما يتعلق منها بتريبيونية العامة ومجلسهم وسن الفوانين ونشرها.

ـ فبالنسبة الى الترابنة، زيد عددهم الى عشرة، واعترف بهم رسمياً بوصفهم ممثلي العامة. وبذلك اصبحوا في عداد ارباب الوظائف العامة الذين يتمتعون

بنفوذ Potestas دون ان تكون لهم سلطة تنفيذية Imperium ولم يعد في وسع احد ان يتحدى تدخلهم دفاعاً عن العامة وممتلكاتهم باستخدام «حق الاعتراض» ضد أعمال الحكام، وعلى أعمال اي زميل من ترابنة العامة، وعلى الانتخابات والقوانين وقرارات مجلس الشيوخ Senatus Consulta، بل على ما هو معروض على السناتو قبل أن يصبح قراراً، وتنفيذ مشيئتهم بالقوة الجبرية، إذا اقتضى الأمر. ثم اصبح يحق لترابنة العامة حضور جلسات مجلس السناتو (الشيوخ) لكي يُسمَح لهم بالاعتراض على ما يدور فيها من مناقشات.

وحوالى عام ٣٠٠ ق.م اصبح يحق لترابنة العامة تقديم اي حاكم سابق للمحاكمة امام جمعية القبائل، مما جعلهم الحراس على المصلحة العليا للدولة لجهة سوء استخدام الحكام سلطتهم في أثناء توليهم الحكم. ولم يأت العام ٢١٦ ق.م حتى أصبح من حق ترابنة العامة دعوة السناتو الى الاجتماع. وفي خلال القرن الثاني قبل الميلاد اصبح تولي تريبونية العامة مؤهلاً كافياً للحصول على عضوية السناتو.

أما مجلس العامة فقد تحول في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد الى جمعية تسمى «جمعية القبائل» Comitia Tribuna. وكانت تتألف هذه الجمعية من مواطني القبائل الرومانية ـ كان عدد القبائل ٢١ قبيلة ثم اصبح ٣٥ قبيلة بحسب ما رأينا سابقاً ـ وتعتبر الوحدة الانتخابية في هذه الجمعية، القبيلة. كما كانت في مجلس العامة. ولما كانت القبائل عبارة عن وحدات إقليمية يتوجب على المواطنين الرومان أن يتسجلوا فيها بحسب مواطن سكنهم، فلا مجال للشك في انها كانت تجمع بين البطارقة والعامة، وان كل قبيلة من هذه القبائل كان لها هيئتين:

- **إحدى هاتان الهيئتان**: تتألف من العامة، ويرأس اجتماعاتها ترابنة العامة، وتعرف بالإسم القديم «مجلس العامة».
- **أما الهيئة الأخرى**: فكانت تتألف من العامة والبطارقة على السواء. ويرأس اجتماعاتها الترابنة او غيرهم من الحكام المتمتعين بالسلطة القنصلية، وتعرف باسم «جمعية القبائل»[1].

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ١٨٤.

والواقع ان مجلس العامة كان الأصل الذي نمت فيه جمعية القبائل، وأن جمعية القبائل، أصبحت اكبر نصير لحقوق العامة، ومصدر اكثر التشريعات التي حققت مكاسب العامة على الرغم من تمثل البطارقة في عضويتها.

وفي البداية، كان ترابنة العامة هم الذين يدعون جمعية القبائل الى الإنعقاد ويتولون رئاسة اجتماعاتها لانتخاب ترابنة العامة وأيدبلي العامة، وتدارس وجهات النظر التي تعينهم في الوصول الى تحقيق مطالبهم. فكانت جمعية القبائل تصدر قرارات تعرف باسم «قرارات العامة» Plebiseita التي تتألف من كلمتين لاتينيتين: Plebi و Scitum اللتين معناهما ما أقره العامة. تمييزاً لهذه القرارات عن القوانين Leges ومفردها Lex التي كانت تصدرها جمعية يرأس اجتماعاتها حاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية. ولكن قرارات العامة لا تصبح نافذة وتكتسب قوة القانون إلا إذا أبرمها السناتو، مثلها في ذلك مثل: جمعية الكور (الأحياء) Comitia Curiata، وكذلك قرارات جمعية المئينات حتى عام ٣٣٩ ق.م. إذ تقرر بموجب قانون بوبليليوس Lex publilia، تطبيق قرارات العامة على جميع المواطنين الرومان إذا ابرمها السناتو (الشيوخ).

عندما أدرك القناصل انه كان من الأيسر عليهم اصدار التشريعات في جمعية القبائل منه في جمعية المئينات، لأن الأولى كان يمكن عقدها داخل روما ذاتها، على حين ان الجمعية الثانية كانت لا يمكن ان تنعقد الا خارج سياج روما المقدس، فضلاً عن ان نظام التصويت في الأولى كان أقل تعقيداً منه في الثانية. أخذ القناصل منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد يستخدمون جمعية القبائل لإصدار ما يتراءى لهم من تشريعات. وفي هذه الحالات كان القناصل هم الذين يرأسون اجتماعات جمعية القبائل. ولكن بالرغم من ان القناصل كانوا يتمتعون بالسلطة التنفيذية. وبالرغم من أن قرارات جمعية القبائل كانت عندئذٍ تسمى قوانين. فإن هذه القرارات كانت، لا تصبح نافذة المفعول إلا إذا ابرمها السناتو، اي أن شأنها كان شأن قرارات العامة حتى ألغي هذا القيد بموجب قانون هورتنسيوس Lex Hortensia الذي أصدره الدكتاتور كوينتوس

هورتنسيوس في عام ٢٧٨ ق.م[1]. وحرر القرارات والقوانين التي تصدرها جمعية القبائل من قيد موافقة السناتو (الشيوخ) عليها.

ومن أهم الأعمال التي اكتسبتها جمعية القبائل انها كانت تقوم بدور محكمة عليا في القضايا السياسية وتنتخب الكوايستورس وايديلس البطارقة. فضلاً عن انتخاب ايديلس العامة وترابنتهم.

ب ـ سن القوانين ونشرها

لم تكن القوانين الرومانية الا عادات وتقاليد تتصل اتصالاً وثيقاً بالديانة وترجع الى تاريخ قديم جداً. ولما كان البطارقة لا يحتكرون الوظائف العامة فقط بل أيضاً عضوية الجماعات الدينية، وانطلاقاً القوانين الرومانية وتفسيرها وتطبيقها. في حين كان العامة يتعذر عليهم معرفة القوانين وتفهمها والتحقق من صحة تفسيرها وتطبيقها. بينما كان حكام البطارقة يستخدمون سلطتهم القضائية على هواهم، فيحللون ما هو محرم، ويحرمون ما هو محلل ما دام هذا الحكم يتفق ومصالح أفراد طبقتهم.

تجاه ذلك الوضع، احتج العامة، وتقدموا بمطالب واضحة لأجل نشر القوانين حتى يتسنى لهم الاطلاع عليها وفهمها ومطالبة الحكام بمراعاتها واحترام نصوصها. وبعد إصرار العامة على ذلك لم يعد امام البطارقة، الا الاستجابة الى مطلب العامة، فانتخب لذلك عام ٤٥٤ ق.م ثلاثة اشخاص أوفدوا الى «أثينا» لدراسة قوانين «سولون». وبعد غياب دام عامين عاد المبعوثون الى روما، وأوصوا بانتخاب لجنة مؤلفة من عشرة اشخاص Decemviri لتسن القوانين الرومانية. وفي عام ٤٥١ ق.م انتخبت هذه اللجنة لتتولى الحكم بدلاً من القنصلين، وتقوم بسن القوانين ونشرها، ولما لم تنته اللجنة من عملها في خلال عام واحد انتخبت لجنة اخرى أتمت سن القوانين وقامت بنشرها[2].

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/١٨٦. الشيخ، حسين الرومان ص ٥٣.

(٢) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/١٧٦ ـ ١٨٨.

وبعد الانتهاء من سن القوانين حفرت على اثنتي عشرة لوحة أُقيمت في: الفوروم، ولهذا السبب عرفت باسم قوانين الألواح الاثنتي عشرة[1]

لم يتبق من هذه القوانين الرومانية الا بعض المقتطفات المتفرقة في كتب المؤرخين الرومان المتأخرين. وهذه القوانين مجموعة مختلطة من الأعراف القديمة والحديثة، مع اضافات من القوانين المعمول بها في المدن الإغريقية. فصيغت كلها صياغة دقيقة، ورتبت ترتيباً منطقياً. فصار لروما مجموعة من القوانين المدنية والجنائية، والنظم الاجتماعية والاجراءات القانونية. وهي بالتالي الأسس التي وضع عليها القانون المدني الروماني.

أعطت هذه القوانين الحق للمواطنين الرومان في أن يستأنفوا provoca (والاسم منها Provocatio) الى الجمعية الشعبية أي حكم يصدره أي حاكم او اية محكمة. وأنها جعلت الرأي النهائي في الأحكام بالإعدام او بالنفي من حق أعلى جمعية Comitiatus Maximus. وفي جميع الأحوال فإن ما جاء في هذه القوانين هو تقييد لسلطة الحكام المطلقة في إصدار الأحكام الشديدة وأمّنتْ المواطنين الرومان على سلامة حياتهم وعلى حقوقهم الدستورية.

ولكن هذه القوانين ـ اللوحات الاثنتي عشرة ـ لم تخلُ من بعض الشوائب إذ ظلت تعترف بحق الدائن في القبض على مدينه وسجنه وبيعه في سوق النخاسة اذا لم يتيسر له الحصول على حقه بوسيلة أخرى. كما أعطت سنداً قانونياً لرفض البطارقة الاعتراف بشرعية الزواج الذي يعقد بين طرفين احدهما من العامة والآخر من البطارقة، الى ان تمت الموافقة في عام ٤٤٥ ق.م بصدور قانون Canuleia يعترف بشرعية التزاوج بين العامة والبطارقة وإن سمح بهذا التزاوج على نطاق ضيق.

جـ ـ السماح للعامة بتولي الوظائف العامة الكبرى

كان لا يحق لأبناء الطبقة العامة في خلال القرن الخامس قبل الميلاد تولي

---

(١) الشيخ، حسين الرومان ص ٥٢.

سوى وظائف الأيديلية والكوايستورية وتريبونية العامة. وهذه الوظائف لا تخول اصحابها اكتساب السلطة التنفيذية العليا Imperium. ولكن في أواخر هذا القرن، وبسبب الحروب الرومانية المتواصلة تمكن ابناء الطبقة العامة انتزاع حق تولي التريبونية ذات السلطة القنصلية. وهكذا شكلوا غالبية شاغلي وظيفة التريبونية العسكرية في الأعوام ٣٩٩ و٣٩٦ و٤٠٠ ق.م حين كانت هيئة الترابنة العسكريين تتألف من ستة عسكريين[١].

وعندما تقرر في عام ٣٦٧ ق.م الاستغناء نهائياً عن وظيفة التريبونية العسكرية والعودة الى نظام القنصلية اعتباراً من العام التالي. اعترف رسمياً للعامة بحق تولي منصب القنصلية. فكان احد قنصلي عام ٣٦٦ ق.م من العامة، ويدعى لوقيوس سكستيبوس Lucius Sextius وقد كان هذا القنصل تريبوناً عسكرياً يتمتع بالسلطة القنصلية العليا Imperium في عام ٣٦٧ ق.م الذي اصدر مع زميله التريبون جايوس ليقينيوس Gaius Licinius، في أثناء شغلهما وظيفة التريبونية العسكرية، مجموعة من القوانين باسميهما عرفت «بالقوانين الليقينية السكستية» Lieiniaesextiae[٢]. وبمقتضى هذه القوانين تقرر ان يكون احد القنصلين في كل سنة من العامة، كان لعدم تطبيق القوانين أن جاء: القنصلان من البطارقة بين عامي ٣٥٤ و٣٤٢ ق.م وأخيراً حدث ان تولاها اثنان من العامة سنة ١٧٢ ق.م.

بعد ان تمكن العامة من تولي وظيفة القنصلية اصبح من الجائز لهم تولي باقي الوظائف العامة الأخرى. فقد اكتسبوا حق تولي الدكتاتورية في عام ٣٦٥ ق.م حين اسندت هذه الوظيفة الى محارب قدير من الطبقة العامة يُدعى جايوس مارقيوس روتيلوس Gaius Mareius Rutilusum. وفي عام ٣٥١ ق.م اكتسبوا حق تولي القنسورية عندما انتخب هذا الرجل نفسه قنسوراً. وفي ٣٣٧ ق.م اكتسبوا حق البرايتورية حينما انتخب كوينتوس بوبليليوس فيلو Quintus

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/١٩٠.

(٢) المصدر نفسه :١/١٩٢.

Publilius Philo وهو الذي كان قد تولى الدكتاتورية في عام ٣٣٩ ق.م واستصدر في جمعية المئينات إبان توليه هذه الوظيفة عدداً من القوانين الهامة المعروفة باسمه Leges Publiliae. وكان العامة قبل ذلك قد اكتسبوا في عام ٣٦٦ ق.م حق تولي الأيديلية القوروليه على ان يتناوبوا مع البطارقة شغل هذه الوظيفة عاماً بعد عام على ما ذكرت سابقاً.

ومع اكتساب حق العامة في تولي الوظائف الكبرى العامة ملاحظتين:

- **الملاحظة الأولى**: لم يؤد هذا الحق الى توليها برجال من العامة في أغلب الأحيان، لأن الناخبين كانوا يفضلون ابناء الطبقة العليا ذوي الماضي العريق في الحياة العامة من خبرة ومعرفة مما لا يتوافر للمواطن العادي، فضلاً عن انه لم يكن من مرتبات للوظائف العامة مع الإشارة إلى أن الدعاية الانتخابية للفوز بها كانت مكلفة كثيراً، لا يستطيع التفكير او التطلع اليها الا من كان من الأثرياء.
- والملاحظة **الأخرى**: على الرغم من إزالة الحواجز لم يؤد الى ان يتولى الوظائف العامة اشخاص بارزون من عامة الرومان، بل اشخاص ينتمون الى الأسر الحاكمة في المدن اللاتينية والإيطالية، التي ضمت الى الدولة الرومانية، ومنح مواطنوها حقوق المواطنة الرومانية الكاملة[١].

د ـ العامة وعضوية مجلس الشيوخ (السناتو)

كان يمارس حق اختيار اعضاء مجلس (السناتو) الحكام الذين يشغلون أعلى وظائف الدولة الرومانية. وقد مارس هذا الحق الترابنة العسكريون ذو السلطة القنصلية ما بين العامين ٤٤٤ و٣٦٧ ق.م. فلم يكن اختيار أحد من العامة عضواً في السناتو إلا استثناء نادراً على أحسن تقدير. لكن لما أصبح مقرراً منذ عهد بعيد ادراج القناصل السابقين في قائمة اعضاء السناتو، وكان الترابنة العسكريون ذوو السلطة القنصلية قد خلفوا القناصل لفترة امتدت زهاء ثلاثة

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ١٩٠ ـ ١٩١.

ارباع القرن وأصبحوا يدرجون في عداد أعضاء السناتو. وسمح للعامة بتولي التريبونية ذات السلطة القنصلية منذ عام ٤٠٠ ق.م. فإن العامة منذ ذلك التاريخ اخذوا يدخلون أبواب السناتو. ومنذ إكتسبوا في عام ٣٦٧ ق.م. حق تولي القنصلية أخذ يزداد بأطراد عدد أعضاء السناتو من العامة. أذ أنه بين عامي ٣٦٦ و٢٦٥ ق.م. تولى القنصلية من العامة تسعون شخصاً أصبحوا بعد عام حكمهم أعضاء في السناتو[١].

وقد ساعد على وجود عدد كبير في مجلس السناتو عاملان آخران هما:

العامل الأول: اكتساب العامة حق تولي الوظائف العامة الأخرى.

العامل الآخر: قيام تريبون العامة أوفينيوس ovinius باستصدار القانون المعروف باسمه[٢] Lex ovinia ما بين عامي ٣١٨ و٣١٢ ق.م. وهذا القانون قضى بأن يختار الفنسورس أعضاء السناتو من «أفضل المواطنين مهما تكن مرتبتهم Optimum quemque Ex omni ordine ويبدو من تطبيق هذا القانون أنه قصد به اختيار أعضاء السناتو من كافة الحكام السابقين ذوي السلوك الطيب.

من هذا الاختيار يتبين لنا أن الاختيار لعضوية السناتو لم يعد مقتصراً على البطارقة ولا على القنسورس والقناصل السابقين فقط، بل شمل من سبق لهم تولي البرايتورية في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية ليمتد في النصف الثاني من عهدها ويشمل البرايتورس الآنيين ومن سبق لهم وتولوا الأيديلية أو تريبونية العامة أو الكوايستورية. وفيما كان أعضاء مجلس السناتو من البطارقة كانوا يسمون الآباء Patres بينما كان اعضاء السناتو من العامة يسمون أحياناً «المختارين» adleti وعادة «المسجلين» «Comseripti»

وهذا الاختلاف في السناتو بين البطارقة وأبرز رجال العامة، وأبرز اللاتين والايطاليين ساهم في تغيير تكوين الأرستقراطية الرومانية. وأدى بالتالي الى تكوين أرستقراطية جديدة تختلف اختلافاً كبيراً عن ارستقراطية البطارقة

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) P. Willemas. Le Sénat de la République Romaine I, pp 157-168

القديمة. وهكذا لم يؤد الصراع بين البطارقة والعامة الى اضعاف مجلس السناتو بل الى تقويته لأنه قد تم تغذيته بعناصر ممتازة. ودعم مكانته وازدياد نفوذه.

والجدير ذكره في أثناء الحديث عن السناتو والعامة، ما قام به أحد رجال البطارقة المدعو أبيوس قلاوديوس Appius Claudius الذي كان أحد القنسوريين في عامي ٣١٢ ـ ٣١١ ق.م. قد خلد اسمه بإنشاء الطريق العام المعروف باسم «طريق أبيوس» Via Appia وإنشاء أول قناة اصطناعية للمياه[1] Aqua Appia، بموجب حقه في القنسورية أدخل الى السناتو عدد كبير من العامة كان من بينهم بعض أبناء «المعتقين» الذين كانوا عبيداً واعتقوا، وأصبحوا مواطنين رومان، كما سمح لسكان روما ممن لم يمتلكوا أرضاً أي التجار والعمال، بأن يسجلوا أنفسهم في أية قبيلة خارج المدينة، لايجاد نوع من التوازن في عدد مواطني القبائل داخل المدينة وخارجها. وقد تولى القنصلية مرتين في عامي ٣٠٧ و٢٩٦ ق.م. والبرايتورية في عام ٢٩٥ ق.م. التي لم يجد فيها غضاضة بعد القنصلية.

هـ ـ العامة وعضوية الجماعات الدينية

دخل العامة عضوية الجماعات الدينية حوالي عام ٣٦٨ ق.م. عندما تقرر زيادة عدد أعضاء الجماعة المختصة بجمع النبوءات المقدسة والحفاظ عليها وتفسيرها من إثنين. Duoviri saeris faeinaddis الى عشرة dacemviri Saeris faciundis على أن يكون نصفهم من العامة. وفي عام ٣٠٠ ق.م. وصل العامة الى أهم جماعتين دينيتين عندما قضى قانون أوجولينوس Lex Ogulnia بأن يزاد عدد اعضاء جماعة كبار الكهنة Pontifiess من أربعة الى ثمانية وعدد اعضاء جماعة العراف Augures من خمسة الى عشرة على أن يكون نصف الأعضاء من العامة في كل من هاتين الجماعتين.

و ـ العامة وحق استئناف الأحكام الصارمة

أيدت اللوحات الاثنتي عشرة حق المواطنين الرومان في استئناف ما يصدر

---

(١) Wissowa Hroll. Realen eye and oxford clas, Diet, s.v. c 8m 1 D a ot ete .

عليهم من احكام، وجعلت الرأي النهائي في الاحكام بالاعدام أو النفي من حق الجمعية الشعبية العليا ـ جمعية الكور ـ التي كانت تعقد برئاسة أحد الحكام ذوي السلطة التنفيذية. ثم انتقل حق النظر في الاستئناف الى جمعية المئينات قبل منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. لكن الارستقراطية عطلت نشاط جمعية المئينات فترة من الزمن في اوقات الأزمات عندما كانت تقنع القنصلين بتعيين دكتاتور مكانهما فتؤول سلطتهما طبيعياً اليه.

وتذرع الارستقراطية بأن حق الاستئناف لا ينطبق على الأحكام الصادرة عن أي حاكم عادي مثل الدكتاتور. غير أن مرقوس Marcus Valerius أحد قنصلي عام ٣٠٠ ق.م. قضى على هذا التحايل بالقانون الذي أصدره Lex Valeriade Provocatione. وأعطى المواطنين الرومان حق استئناف جميع الأحكام التي يصدرها عليهم أي حاكم روماني. ومنع أي حاكم روماني من انزال عقوبة الجلد أو عقوبة الاعدام بأي مواطن قدم استئنافاً عن الحكم الذي صدر بحقه. وحتى امام هذا القانون وُجد التحايل، إذ جاءت ممارسة تطبيق حق الاستئناف على الأحكام الصادرة في المنطقة الواقعة داخل المنطقة التي يحق فيها لترابنة العامة ممارسة حقهم في الاعتراض والتدخل لحماية ارواح المواطنين الرومان وممتلكاتهم. أو بعبارة أوجز، داخل سياج روما المقدس Pomerium وأحياناً حتى مسافة ميل واحد من حدود السياج الى الخارج.

هذا يعني أن الأحكام التي كانت تصدر عن الحكام ذوي السلطة التنفيذية على المواطنين الرومان خارج سياج روما المقدس لا يجوز استئناف الاحكام التي كان يصدرها هؤلاء الحكام بمقتضى سلطاتهم ولا حتى اعتراض ترابنة العامة عليها.

ز ـ إنتهاء الصراع بين العامة والبطارقة

أدت مشكلة الديون التي كان المزارعون الرومان يرزحون تحت عبئها بسبب تجنيدهم وطول غيابهم عن مزارعهم الى خلق مشلكة صعبة ومزمنة تقضي بايجاد حلول جذرية لهذه المسألة، وبلغت هذه المسألة ذروتها عندما تقرر في عام ٢٨٩ ق.م. ضرورة استخدام «العملة» في جميع أنواع التعامل بدلاً من المقايضة التي كانت شائعة آنذاك.

فعقّد الأمور تيسير عقد القروض واحتساب فوائد مرتفعة عليها. وصادف ارتفاع أصوات العامة مطالبة بتصحيح أوضاع المدينين منهم. ولما لم يستجب مجلس السناتو الى مطالب العامة بايجاد حلول أو الموافقة على التشريعات التي أقرتها جمعية القبائل لتحسين حال المدينين كونه ممثلاً وراعياً لمصالح الدائنين، أقدم العامة على خطوة جريئة في عام ٢٨٧ ق.م. بأنهم هاجروا الى «تل» «بانيقولوس» عبر نهر التيبر، وهددوا بالانفصال عن الدولة الرومانية.

إزاء ذلك وافق السناتو على تعيين دكتاتور من العامة يدعى كوينتوس هورتنسيوس Quint Hortensius لفض الخلاف. فنجح في ايجاد حل له، واستصدر القانون المعروف باسمه Lex Hortensia الذي قضى بأن تصبح منذ ذلك الوقت كل قرارات جمعية القبائل قوانين سارية المفعول دون أن تسبقها أو تعقبها موافقة السناتو عليها. وبذلك أصبحت جمعية القبائل الجمعية التشريعية الرئيسية، في حين أن جمعية المئينات أصبحت الجمعية الأنتخابية العليا التي تنتخب أعلى الحكام مرتبة مثل: القناصل والقنسوس والبرايتورس. على أن يدعو الى اجتماع جمعية الميئنات حاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية ويرأس اجتماعاتها. في حين كان يدعو جمعية القبائل التشريعية الى الانعقاد يتمتع بالسلطة التنفيذية واما أحد ترابنة العامة بحسب انتخاب المناصب العليا ام الأدنى منها.

ثمة ملاحظة يجب الانتباه اليها وهي، إذا كانت جمعيتا المئينات والقبائل تتألفان من جميع المواطنين الرومان، فانهما اختفتا عن بعضهما لجهة توزيع المواطنين الى وحدات انتخابية، إذ أدى ذلك الى جعل جمعية المئينات تحت سيطرة فئات المواطنين الغنية في حين وقعت جمعية القبائل تحت سيطرة أكثر فئات المواطنين عدداً فإتسمت بأنها أكثر ديموقراطية عن الأولى.

وعلى الرغم من حدة الصراع بين العامة والبطارقة، فإن الفريقين لم يترددا مرة بعد أخرى في دفن خلافاتهما وتوحيد كلمتهما والوقوف صفاً واحداً في وجه الأخطار المحدقة بالوطن. فليس من قبيل الصدف قبول البطارقة اكثر مطالب العامة تدريجاً إلا بدافع الميل الى الروية والتطور خطوة فخطوة. وليس من مجال للمقارنة بين ما حصل من صراع بين العامة والبطارقة بالصراع المدمر

والعنيف الذي حصل بين العامة والارستقراطية في المدن الاغريقية أو الصراع الدموي الذي وقع في القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية. فأتت انتصارات العامة في القرون الأربعة الأولى من عهد الجمهورية نتيجة لحلقات متتالية من الاتفاقات بين العامة والبطارقة الرومان.

وهكذا يبدو أنه قبل نهاية عام ٢٨٧ ق.م. كانت الخلافات التي نشأت بين طبقتي العامة والبطارقة قد انتهت مع سلسلة من التشريعات التي أدت الى ايجاد ازدواجية في نظم الحكم الروماني. فتريبونية العامة وجمعية القبائل اللتين انشئتا للدفاع عن مصالح العامة ثم منحتا سلطات عالية، أصبحتا جزءاً من التنظيم الحكومي الروماني الى جانب الوظائف العامة وجمعية الكور وجمعية المئينات. وهذه جميعها كان إنشاؤها لخدمة شؤون المواطنين جميعاً وتسيير عجلة الحكم. لكن هذه الازدواجية في نظام الحكم أدت الى أن تعمل كل طبقة منفردة على تمرير المشاريع والقوانين أو القرارات التي تخدم مصالح كل طبقة على حدة. ولكن كان من شأن ما مُنح للعامة من حقوق ولترابنة العامة من سلطات ولجمعية القبائل من اختصاصات أن إتسم الدستور الروماني بطابع ديموقراطي.

وثمة ملاحظة هي أن استقرار نظام الحكم مرده الى ما حدث من تآلف بين البطارقة وأبرز اسر العامة. فيما أن ترابنة العامة كانوا يختارون من بين صفوف العامة، فانهم لم يكونوا عادة لاهم ولا جمعية القبائل ادوات معوقة لاجهزة الحكم الأخرى أو سيوف مسلّطة على رقاب البطارقة. وليس أدل على ذلك من أن ترابنة العامة كانوا يأخذون رأي السناتوا قبل استخدام حقهم في الاعتراض أو حقهم في استصدار قوانين من جمعية القبائل، أو حقهم في تقديم حاكم سابق للمحاكمة[١].

وكان وراء رغبة الرومان للحفاظ على تقاليدهم أمران مهمان:

الأمر الأول: ان المكاسب التي حققت للعامة المساواة قانوناً مع البطارقة كانت شكلية اكثر منها واقعية بدليل ان العامة لم يندفعوا الى شغلها برجال من العامة، بل ظل الناخبون يميلون الى تأييد المرشحين ذوي الخبرة الحميدة لهم أو لأسرهم.

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/١٩٧ ـ ٢٠٢.

الأمر الآخر: وعلى الرغم من الحقوق التي منحت العامة، وما أتسمت به تريبونية العامة، وجمعية القبائل من طابع ديموقراطي، لم يصبح نظام الحكم الروماني نظاماً ديمقراطياً بمعنى الكلمة، وانما ظل في الواقع نظاماً ارستقراطياً. وكان مرد ذلك الى عاملين اثنين:

العامل الأول: تآلف العامة والبطارقة مما أدى الى اعطاء الطبقة الحاكمة الجديدة تشجيعاً في تنفيذ مشيئتها والحفاظ على مقاليد الأمور في يدها.

العامل الآخر: على الرغم من التطورات التي حدثت في اثناء الصراع بين العامة والبطارقة احتفظ الرومان في كل جمعياتهم الشعبية بنظام اقتراع وحدات لا أفراداً. من جمعية الكور أولاً ثم في جمعية المثينات. وفي جمعية القبائل. حيث كان رأي كل قبيلة يعتبر صوتاً واحداً ممثلاً لرأي هذه القبيلة.

وازاء عدم التساوي بين الكور أم بين القبائل. وبين المثينات على مرور الزمن ليس فقط من حيث عدد أفراد كل وحدة من هذه الوحدات، بل من حيث نسبة الموافقة، أو عدم الموافقة في كل وحدة، كان من الممكن أن يؤدي الاقتراع وفقاً لهذا النظام، في بعض الاحيان الى نتائج مختلفة عن النتائج التي يؤدي اليها الاقتراع لو أن اصوات الافراد وليست اصوات الوحدات هي التي كانت تحتسب.

وفي مطلق الأحوال أن العامة الذين كللوا جهودهم بالمكاسب التي حققوها عام ٢٨٧ ق.م. وكفل لهم المساواة في الحقوق مع البطارقة لم يعودا تلك القوة الضاغطة في الحياة السياسية الرومانية، وانما قنعوا باقرار المساواة، وتركوا شؤون الحكم للارستقراطية الجديدة.

الفصل السادس

المجتمع الروماني في النصف الأول من عهد الجمهورية

١ ـ الحياة الاجتماعية

أ ـ بناء المجتمع

بقيت الأسرة في عهد الجمهورية كما كانت في عهد الملكية هي الركيزة الاساسية في بناء المجتمع الروماني. لأن هذا المجتمع كان عبارة عن مجموعة من الأسر. فكان الفرد سواء في المجتمع أو في الدولة ترتفع مكانته أو تنخفض تبعاً لمكانة الأسرة التي تنتمي اليها. وتتألف الأسرة من أب الاسرة Pater familias والزوجة والبنات غير المتزوجات والأبناء ـ بالمولد أو بالتبني ـ وزوجاتهم وأبنائهم وعبيد الأسرة، يخضع جميع هؤلاء للسلطة المطلقة المتمثلة في «أب الاسرة». وتختلف هذه السلطة باختلاف أوضاع أصحابها من حيث التسمية، فعند الأحرار تعرف بـ سلطة الأب «Patria potestas» اما عند العبيد منهم بـ «السيادة» dominum. فكانت سلطة الأب تشمل جميع أعضاء الأسرة وممتلكاتها res familiaris التي تعتبر في قبضته manus. وهذه السلطة تشبه الى حد بعيد سلطة القناصل في بداية العهد الجمهوري. ومقابل هيمنته على أسرته، كان عليه واجبات تجاهها مثل الرعاية وتأمين الحاجات المعيشية وتقديم القرابين واقامة الشعائر الدينية استرضاءً للألهة، ولكن بمشاركة أفراد أسرته.

ونظام التبعية الذي كان معروفاً في العهد الملكي[1] بقي معمولاً به في العهد الجمهوري، فبقي لكل أسرة عهد من الأتباع Elientes الأحرار الذين كانوا في السابق عبيد الأسرة واعتقوا Liberti ومستأجري أرضها، وممن طلبوا حماية أب

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٢١٥.

الأسرة فأصبح تبعاً لراعيها Patronus. واختلف أيضاً عدد اتباع الأسرة باختلاف ثرائها ومكانتها ونفوذها. ولم يكن هؤلاء الاتباع يعدون كاعضاء منها.

ومن أجل الحفاظ على كيان الأسرة وبقائها. كان يقتضي أن تتمثل سلطة الأب باستمرار، ولأنه لا يجوز ان تتحول هذه السلطة الى المرأة، لذلك يقتضي وجود أبناء في الأسرة وعلى الأقل ولد واحد. وإذا لم يكن للأب نسيب أو ولد آخر، فان باستطاعة هذا الأب أن يتبنى ولداً حتى تنتقل اليه السلطة بعد وفاة الأب، ويخضع لسلطة الأب الذي تبناه، ولا يتعبد إلا الى الهة أسرته الجديدة. اما إذا كان للأب المتوفي أكثر من ولد. يصبح الراشدون منهم آباء ويتقاسمون أملاك الأسرة الأصلية. في حين تبقى الأم والبنات غير المتزوجات والأبناء القاصرين تحت سلطة أحد الأبناء الراشدين حتى تتزوج البنات ويبلغ القاصرون سن الرشد. وفي حال وفاة أب الأسرة الجديد قبل زواج البنات أو قبل بلوغ الأبناء القاصرين سن الرشد ينتقل هؤلاء جميعاً الى سلطة أب أقرب أقارب «أب الأسرة» المتوفي.

والزواج عند الرومان ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول**: في هذا النوع كان الزوج يكتسب سلطته على الزوجة بخلعها عليه Confarreatio. وهذا الزواج كان من أقدم الأنواع وأكثرها شيوعاً بين البطارقة. ويتم في حفل ديني وحضور عشرة شهود وأحد كبار الكهنة لمباركة الزواج بتلاوة عبارات مقدسة.
- **النوع الثاني**: وفي هذا النوع من الزواج كان الزوج يكتسب سلطته على الزوجة، بمقتضى صفقة بيع صورية Coemptio. وهذا النوع قديم أيضاً مثل الأول إلا أنه كان شائعاً بين العامة. ويتم بحضور خمسة شهود.
- **النوع الثالث**: هذا النوع من أبسط أنواع الزواج الرومانية. ويتم باتفاق الزوجين على أن يعاشرا بعضهما بعضاً معاشرة الازواج مع تمتع كل منهما بسلطة متساوية، ولكن الزوج كان بامكانه اكتساب السلطة كاملة على زوجته إذا عاشرته معاشرة زوجية منفصلة لمدة عام كامل.

لكن قوانين اللوحات الاثنتي عشرة اعتبرت المعاشرة الزوجية غير متصلة

بمجرد قضاء الزوجة ثلاث ليال في العام الواحد خارج بيت الزوجية وبذلك كانت الزوجة تستطيع الافلات من سيطرة زوجها. وتتمتع بحقوق متساوية مع الزوج، وبخاصة لأن قانوناً آخر من قوانين اللوحات الاثنتي عشرة منح المرأة الرومانية حق الملكية. والحد الأدنى لسن الزواج عند الرومان كان ١٤ سنة بالنسبة الى الذكور و١٢ سنة بالنسبة الى الاناث.

وفي جميع الأحوال كان الزواج مسألة شخصية لا تتم بموجب عقد قانوني أو صيغة خاصة، وما كان يصحبه من مراسم أو حفلات لم يكن لها أي طابع قانوني. وما دام الزواج مسألة شخصية فالطلاق كذلك مسألة شخصية من السهل الحصول عليه. ومع ذلك فقد كان الطلاق نادراً وبخاصة لدى الأسر الغنية والكبيرة للحفاظ على كيان الاسرة.

ومهما يكن فالمرأة «أم الأسرة Mater familias أو Matrona كانت تتمع بمكانة بارزة في حياة الأسرة، وتشارك زوجها مكانته الاجتماعية. كما كانت المرأة الرومانية بعكس المرأة الاغريقية. سواء في اثينا أم في غيرها من المدن الاغريقية. لأن الرومانيات قد شاركن في الحفلات الدينية وفي المآدب، ولم ينعزلن في جناح خاص بمنازلهن، كما كن يشرفن على شؤون بيوتهن من القاعة الرئيسية Atrium حيث كنَّ يغزلن الصوف اللازم لنسج ملابس الأسرة منه وتزيين اطفالهن.

وبما انه لا بد ان يكون على رأس كل أسرة «أب» أي رجل. فقد كان في وسع الابناء الذكور تكوين أسر جديدة بعد وفاة آبائهم وبذلك يصبحون آباء أسرهم في حين أن البنات كن عاجزات عن ذلك لأنهن كن عادة في عصمة أب الاسرة التي ينتمين اليها. وعلى ذلك فإن أفراد سلالة الذكور في أية أسرة كانوا يعتبرون أقرباء قرابة عصب Agnati على حين أن أفراد سلالة النساء كانوا بالنسبة الى هؤلاء أقرباء قرابة الرحم Coganti.

وكل مجموعة من الأسر تنحدر من جد واحد مشترك عن طريق الذكور تؤلف عشيرة gens لكل منها اسم nomen يجب أن يحمله كل فرد من أفرادها بعد إسمه الشخصي Praenomen وقبل اسم اسرته cognomen ما دام لا يحمل ولم

يصبح في عداد عشيرة أخرى إما بالتبني في حالة الرجال وإما بالزواج في حالة النساء. وتمارس كل عشيرة طقوساً دينية خاصة Saera gentiliea وتقيم شعائرها الدينية اجلالاً وتقرباً للآلهة التي ترعاها بعنايتها. ولكل عشيرة مجلس يتألف من آباء اسرها للفصل في شؤونها مثل الوصايا والميراث والتبني والعتق (للعبيد) وإقامة الأوصياء على القاصرين والمسرفين والمعتوهين. واتباع الاسرة يعتبرون اتباعاً للعشيرة التي تنتمي اليها الأسرة تنطبق عليها ما ينطبق على الأسرة.

لم يكن انتظام أسر العامة في عشائر مألوفاً في العهد الملكي الا بين البطارقة أما في عهد الجمهورية فقد حذت الأسر الغنية حذو الأسر البطارقة فنظموا حياتهم الاجتماعية مكونين عشائر جديدة عرفت بالأسر الارستقراطية الرومانية. لذلك كانت الروابط بين أفراد العشيرة وبين اتباعهم تعتبر روابط قوية على الرغم من كونها روابط اجتماعية ودينية، ولم تكن سياسية. لهذا لا يمكن تجاهل اثر العشائر في الحياة السياسية. وبالتالي يمكن ان نقول أن قوة العشيرة من قوة أسرها ومكانة العشيرة من مكانة أفراد الأسرة.

ب ـ الحياة اليومية والتربية والتعليم

كما مر معنا، يرعى الأب شؤون الأسرة الزراعية والدينية، وتؤدي المرأة الواجبات البيتية، ويقوم عبيد الأسرة على خدمة مطالبها، وإذا كان قد ترتب على فتوحات روما زيادة عدد العبيد، فانهم في ذلك الوقت لم يتمكنوا من تشكيل قوة ذات تأثير اقتصادي كبير. وكان أكثر هؤلاء العبيد أسرى حرب لم يحدث أن استبدلوا بأسرى رومان أو تمت فديتهم من قبل بلادهم الأصلية. لذلك كانت الحكومة الرومانية تلجأ الى بيع عدد كبير من هؤلاء العبيد، عبر نهر التيبر للأتروسقيين. لكن فرض ضريبة على عتق العبيد في عام ٣٥٧ ق.م. يدل على أن عدد العبيد ازداد في روما الى أن صار عتقهم يؤلف مصدر دخل للدولة على جانب من الأهمية، لأن في وسع صاحب العبيد ان يعتقهم بعد اتخاذ اجراءات معيّنة. وبعد استكمال هذه الاجراءات كان المعتق وسلالته يصبحونه أحراراً، لكن دون أن يحق له تولي الوظائف العامة. في حين أن أولاد المعتق الذين كانوا يولدون بعد العتق ingenuui فانهم يصبحون

مواطنين رومان كاملي الحقوق، إلا أنهم مع ذلك يبقون وسلالتهم أتباعاً للعاتق.

لم تشكل الحياة اليومية في تلك الفترة عبئاً كبيراً لأنها كانت بسيطة من حيث المسكن أم المأكل أم الملبس. فالمساكن عند الرومان في النصف الأول من عهد الجمهورية تتألف من نوعين رئيسيين، مساكن الميسورين، ومساكن الفقراء. ومساكن الميسورين، حتى في روما ذاتها، لم تتألف من أكثر من طابق واحد، جدارنه مبنية بقوالب من اللبن lateres ومغطاة بسقوف من الخشب. وتتوسط هذه المساكن قاعة كبرى Atruum تؤدي الى عدد من الغرف الصغرى[1] وهذه القاعة الكبرى كانت تستخدم للأكل والجلوس واستقبال الضيوف وتزينها تماثيل الآلهة التي ترعى الأسرة ومدفأة كبيرة. كما تعلق صورة كبيرة Imagines للموتى الذين شغلوا وظائف كبرى كانت تعرف بالوظائف القوروليه، واستحصلوا على حق عمل صورة لهم في حياتهم، في صدر القاعة الكبرى. وهذه الصورة كانت على هيئة أقنعة تطابق ملامح الوجه، درجوا على تسميتها «أقنعة الموت» death masks أو صور الشمع Wax images لأنها كانت تصنع بعد الوفاة من الشمع. فعند وفاة أحد الأشخاص من أصحاب المقامات الرفيعة، كانت أسرته تستأجر ممثلين ليضعوا على وجوههم أقنعة موتاهم ويشتركوا مع المشيعين في الموكب الجنازي الذي يقام في هذه المناسبة.

بينما كانت مساكن الفقراء، ولا سيما في الريف، عبارة عن اكواخ صغيرة مبنية من أغصان الاشجار الرفيعة، ومغطاة بطبقة من الطين. اما ما كان منها في روما فإنه لم يتعد الغرفة أو الغرفتين بشكل مستطيل الى جانب بعضها أو فوق بعضها. وفي كثير من الاحيان كان يشغل الصانع منهم احدى الغرفتين حانوتاً يزاول فيه عمله. وهذه المساكن كانت مبنية في غالب الأحيان من اللبن والخشب فوق السقوف.

كان طعام الرومان بسيطاً قوامه اللبن مع سليقة القمح أو الخبز وبعض

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٢٣١ - ٢٣٢.

البقول أو الخضراوات وبعض الفاكهة، وقلما كانت اللحوم عنصراً أساسياً في غذاء الرومان اليومي، ولا تؤكل اللحوم إلا في المناسبات كالاعياد وعند تقديم القرابين، ومن وقت لآخر كان الاغنياء يقيمون مآدب تنشد في اثنائها اغان تشيد بالأعمال التي قام بها أسلافهم العظام(١). واعتمدت الأسر الغنية في قوتها على سد حاجتها بما تستغله من أراضيها ومراعيها من طعام وشراب، وما ينقصها كانت تحصل عليه عن طريق المقايضة من الأسواق التي كانوا يقيمونها اسبوعياً. في حين اعتمدت الأسر الفقيرة على ما تستبدله ببعض الحاجات او الخدمات الأخرى من تلك الاسواق.

وكان الملبس هو الآخر في الغالب مادته الرئيسية من الصوف، فقد كانت كما ذكرت سابقاً ربة البيت وبناتها يقمن بغزل الصوف ونسجه وصنع الملابس منه. وهن لم يحتجن في ذلك إلا الى شرائط قرمزية كانت توضع على أطراف العباءة Toga للفتيان والحكام فوق الاكتاف. والعباءة في الأصل هي الرداء الذي كانت تستخدمه النساء والرجال على حدّ سواء. وإن استبدلتها النساء فيما بعد بثوب طويل Stola والثياب الداخلية للنساء والرجال كانت عبارة عن قميص من الصوف Tuniea. ولما كانت العباءة هي الرداء الصحيح الذي يرتديه المواطنون الرومان خارج بيوتهم، فقد أخذ عنهم كل حلفاء روما الايطاليون استعمالها. وانتعل الرجال والنساء نعلاً من الجلد في أرجلهم. كما كان الروماني العادي يتزين بخاتم من الحديد في حين كان الروماني الثري، وبخاصة من كان منهم في بعثة رسمية، يتخذ في إصبعه خاتماً من الذهب، اما النساء فكان الذهب هو حليهن المفضلة على الدوام مع مراعاة تمشيط شعورهن وتصفيفهن، بينما كان الرجال يطلقون لحاهم وشعور رؤوسهم.

درج بعض الرومان، في النصف الأول من عهد الجمهورية، على عادة حرق جثمان موتاهم، والبعض الآخر على دفن موتاهم. وفي كلتا الحالتين كانوا يعتقدون بأن الأرواح تنزل الى عالم الأرواح السفلى di inferni ثم تعود لزيارة

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٢٢٠.

الأرض في أوقات معينة من السنة، وهي المناسبات، يحتفلون بها إحياء لذكر موتاهم لرضاء آلهتهم ورداً لأي خطر يمكن ان يلحق بالأحياء من أسرهم إذ هم أهملوا هذه المناسبات. ومن عادة الرومان تشييع الموتى الى مثواهم الأخير ضمن مواكب جنائزية كبيرة أم صغيرة بحسب مكانة المتوفي ومكانة أسرته. ومن كان من عظام قومه يمضي المشيعون بالموكب حتى الفوروم حيث يعتلي منصة الخطابة أحد أفراد الاسرة ليعدد مناقب الفقيد واعماله الجليلة. فلم يفت شيشرون[1] ولا ليفيوس الاشارة الى ما كان الخطباء ينزلقون اليه من المبالغة في الاشارة بمناقب اسلافهم.

ومورست عادة حرق الجثث ودفن الموتى داخل روما ذاتها في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية. وسط مظاهر اتسمت بالاسراف احتفاء بموتاهم. وعلى الرغم من ان اللوحات الاثنتي عشرة حظرت حرق الجثث ودفنها داخل المدينة، كما حظرت الترف والأسراف المرافقين في هذه المناسبة. فان الرومان وإن راعو الحظر الأول، فإنهم لم يراعوا الحظر الثاني، لأن الأسر الكبيرة كانت تعتبر المناسبات الجنائزية مناسبات بالغة الأهمية. ثم ظهرت عادة المجالدة عند الرومان. والتي أدرجها يونيوس بروتس ـ ugnun prutus

أحد أفراد أسرة حديثة العهد بالثروة ـ بإقامة مباراة للمجالدين في جنازة والده في عام ٢٦٤ ق.م. شاعت فيما بعد عند الرومان.

أنشئت اول مدرسة في روما، حوالى عام ٢٥٠ ق.م[2]. وقبل ذلك لم يكن في روما من مدارس لتعليم النشء في تلك الفترة، لأن الرومان اعتبروا التعليم من واجبات المرأة التي تسهر على تربية اولادها الصغار وتعلم بناتها الغزل والنسيج وادارة شؤون المنزل. وما ان يشب الأولاد حتى كان الأب يتولى تعليمهم الكتابة والقراءة ومبادىء الحساب والألعاب الرياضية، كالجري والسباحة والملاكمة والمصارعة واستخدام الأسلحة المعروفة آنذاك، ويعلمهم

---

(١) ماغريفور، ماري تاريخ الرومان ص: ٥٣.

(٢) H. I. Marrou, History of Education Antiquity (Trans) p.p. 229 ff. 1958.

قواعد المحافظة على النظافة وآداب السلوك وأساطير الأبطال وتاريخ الوطن الذي يعيشون فيه. وحتى يكسبوا خبرة منذ صغرهم، كان الأب يصطحب اولاده معه في غدواته وروحاته لأداء واجبه اليومي. فكانوا يتدربون عملياً على الزراعة، ويتعرفون بأساليب الحياة العامة مثل تقديم القرابين وما شابه من الطقوس الدينية، واتقان حفظ ايام الأعياد الرسمية والأيام التي يمكن العمل فيها، والأيام التي يعطل فيها حتى لا تغضب عليه الدولة أو الآلهة، بعدم مراعاته العمل بموجبها، والإجراءات التي تتبع في الجمعيات الشعبية عند الانتخابات او اصدار التشريعات او النظر في الأحكام المستأنفة، واختصاصات الحكام على اختلاف درجاتهم، وعقود البيع والشراء وانتقال الملكية.. الخ. فما ان يبلغ الشاب سن الرشد حتى يكون قد اكتسب بعض المهارات والمؤهلات التي تجعله يضطلع بالمسؤولية وممارسة واجباته وحقوقه الدستورية على اكمل وجه. وعادة يبدأ ذلك مع بداية الثامنة عشرة من عمره عندما يصبح أهلاً للدخول كعضو في الجمعية الشعبية او الخدمة العسكرية التي يقضي فيها مدة عشر سنوات قبل ان يتطلع الى الحصول على ادنى وظيفة عامة.

كان هدف الرومان من التربية والتعليم تكوين خلق النشء، واعدادهم لكي يكونوا مواطنين صالحين يتسمون بالرجولة والجد والبساطة والصلابة والقناعة والطاعة والدأب على العمل والحفاظ على سنن الأباء وأداء الواجب نحو الآلهة والوطن وذوي القربى ليس إلا.

وبفضل العادات البيئية والتقاليد العسكرية من اطاعة النظام واحترام الأوامر، وتعلقهم بالآلهة وشعورهم بالفضل تجاههم، وما استتبع ذلك من التزام الدقة في إقامة الشعائر الدينية في مواعيدها، غرست هذه كلها فيهم صفات حميدة كثيرة وبخاصة صفات الجد gravitas والميل الى الحفاظ على سنن الآباء mos Maisrum والشعور بالواجب Pietas. لأن ارفع الصفات عند الروماني كانت اداء الواجب على خير وجه نحو الوطن والآلهة وذوي القربى. وكان الوفاء للوطن يأتي في طليعتها. فمن اجله كانت تهون التضحية بالأصدقاء وبالأقربين وبالحياة. ومن هنا نراهم لا يترددون في اعدام من يخالفون الأوامر

العسكرية او يقدمون اية خدمة للعدو، حتى ولو كان المذنبون أبناءهم.

هذه السياسية التربوية التي اتينا في حديثنا عليها إذا كانت كافية لبناء قوة روما على نحو مكنها من فتح ايطاليا. فإن القرنين اللاحقين لهذا الفتح سيكشفان ان ذلك النظام لم يكن كافياً لتكوين رجال لديهم من القدرة ما يكفيهم لمعالجة انواع من الصراع اشد ضراوة وألواناً من المشاكل أكثر تعقيداً من تلك التي صادفته روما في النصف الأول من عهد الجمهورية.

وسيبرز أمامنا عجز حكام روما ومخططي سياستها عن مواجهة ما سيصادفهم من مصاعب جديدة. فالقوة التي تمكنت روما بها من اجتياز أزمات خطيرة بعد تحمل تضحيات كبيرة دون مبرر، كما ستمكنها من بناء امبراطورية واسعة الأرجاء. لكن عجز روما سيكون واضحاً في عدم قدرتها على حكم تلك الأمبراطورية حكماً سليماً. بل على الحفاظ على النظام الجمهوري.

جـ ـ الديانة

لم يطرأ أي تغير يذكر على ديانة الأسرة في النصف الأول من عهد الجمهورية باستثناء المؤثرات الأتروسقية والإغريقية التي ظهرت جلية في الديانة الرسمية منذ عهد الملكية، واستمرت في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية. فقد تابع الرومان بناء المعابد والهياكل والتماثيل للآلهة بدلاً من الذبائح[1].

فدخل عدد آخر من الآلهة الإغريقية مجموعة المعبودات الرومانية. فعبادة التوأمين «كاستور» و «بولوكس» Castor et Pollux = الديوسقوري Dioscuri دخلت روما عام ٤٨٤ ق.م بحسب قول ليقيوس المؤرخ الروماني[2]. ومع ان للرومان آلهة للشفاء تدعى سالوس Salus فإنه بعد تفشي الطاعون في روما عام ٢٩٣ ق.م واستطلاع الكتب السيبوليّة أدخلت عبادة إله الشفاء الإغريقي

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه : ١/ ٣٣٥.

اسقلبيوس Ascalepius الذي سماه الرومان إيسقولابيوس Aesculapius.

وإزداد تعلق الرومان بالعرافة الاتروسقية لأمرين:

أولاً: بسبب ايفاد ابنائهم الى أتروريا لدراسة التعاليم الأتروسقية disciplino Etrusea الخاصة بذلك.

ثانياً: بسبب ازدياد استخدامهم خبراء في العرافة الأتروسقية havuspices صار لهم جماعة من المؤيدين ازدادت أهميتهم بمرور الزمن. حتى شكلت منافسة شديدة لجماعة العراف الرومان augures على الرغم من أن لكل جماعة من العراف أساليبها الخاصة في التعرف على الإرادة الآلهية.

والرومان، سواء في عبادتهم للآلهة، الأسرية ام في عبادتهم الرسمية، هم لا يتضرعون الى الآلهة، من اجل ان تمنحهم بركات روحية تطهر قلوبهم ونفوسهم، وانما من أجل ان تسبغ عليهم بركات مادية تكسبهم الصحة والثروة. وترجع سيطرة الديانة على عقول الرومان الى ثلاثة عوامل:

العامل الأول: ان الديانة كانت رمزاً للوحدة، وان عبادة الأسرة رمزاً لوحدة الأسرة وان العبادة الرسمية رمزاً لوحدة الدولة.

العامل الثاني: ان الإيمان العميق بقدرة الآلهة، على مساعدة من يكتسب رضاءها عن طريق إقامة شعائرها طبقاً لأصولها الصحيحة، بالخير والبركة.

وان تصب جام غضبها على من يغفل إقامة هذه الشعائر بكل دقة.

العامل الثالث: ان قوة التقاليد الدينية في احترام السلطة الأبوية دعمته مثل ما دعمت الشعور بالواجب.

إن هذه الديانة الرومانية كان لها الأثر الخلقي الرفيع الذي سما بالنفس الإنسانية فوق مستوى الدناءات. قد اسهمت في تنمية صفتين هامتين كانتا من أبرز ما إتسم به الخلق الروماني في هذه الفترة بوجه خاص. وهما: الشعور بالواجب والحفاظ على التقاليد.

وباعتقاد الرومان أن ما يصيبهم في حياتهم من خير أو شر هو متوقف ليس فقط على إقامة الشعائر الدينية للآلهة بل على إقامتها طبقاً لأصولها الصحيحة.

لذلك كان اقامة هذه الشعائر على هذا النحو الصحيح يحتل اهمية كبيرة في الحياة العامة والخاصة على حدٍ سواء. لأن قدرة الآلهة الرومانية كفيلة بأن تكلأ برعايتها المجتمع الروماني مثل ما تكلأ الأفراد. ومن هذ الشعائر واصول تطبيقها كان يتألف القانون الروماني المقدس، وهو الذي صار جزءاً هاماً من القانون الروماني العام. ولما كان الكهنة هم حراس القانون المقدس، فإن ذلك كان المصدر الذي استمد منه كبارهم ما تمتعوا به من مكانة ونفوذ عظيمين في الدولة الرومانية.

فقد كان الكهنة يعنون بالحفاظ على التقاليد الدينية للدولة، ويثابرون على تفسيرها، وإضافة سوابق جديدة اليها ويباشرون بأنفسهم أو يشرفون على إقامة الشعائر الدينية في المناسبات العامة، وبعض المناسبات الخاصة. ويصفون للحكام الطقوس الدينية الواجب القيام بها عند الاقدام على اعمال عامة. كما كان العراف يستمدون قوتهم من الاعتقاد بأن الآلهة كانت تصدر تحذيرات على هيئة ظواهر معينة كان يمكن عن طريق مراقبتها تبين اتجاهات الآلهة إزاء اي عمل يعتزمون القيام به. لذلك كان على كل حاكم قبل الإقدام على اي عمل عام استطلاع رغبات الآلهة، وعليه الإلتزام بإشارة العراف والانتباه الى عدم الوقوع في خطأ التطبيق لأن ذلك سيرتد عليهم بالشر، وبخاصة إذا أغفل نصيحتهم.

٢ ـ الحياة الإقتصادية

أ ـ الزراعة:

أثرت الحروب المستمرة التي خاضتها روما على مدى قرنين ونصف من عهد الجمهورية الرومانية على تطور الزراعة وبالتالي الحياة الإقتصادية على الرغم من اتساع مساحة الأرض العامة ager publicus التي تملكها الدولة بعد اتساع نطاق الإقليم الروماني نتيجة لنجاحهم في الحروب المستمرة.

ولعل اهم ما طرأ على الزراعة، في خلال فترة النصف الأول من العهد الجمهوري، هو ادخال نوع جديد من القمح Frumentum استقدم من الخارج، وبما ان هذا النوع افضل من النوع القديم Far وأصلح لصناعة الخبز، فإن

الرومان اقبلوا على زراعته تدريجاً، واصبح المحصول الرئيسي، الى جانب انواع اخرى، من الحبوب، والبقول والخضروات مثل: العدس والفاصوليا والبازيلا والبصل والثوم والكراث والقرنب والقرع.

وأما إدخال فلاحة انواع متعددة من البقول والفاكهة المعروفة جهات متعددة من العالم، لم يأت الا على مراحل بعد ذلك. وأما انواع الحيوان الرئيسة أغلبها، الثيران والأبقار والحمير والأغنام والماعز والخنازير، وكذلك الدجاج والأوز.

وصاحب اتساع الإقليم الروماني، وما شمله من مزارع تنشيط تربية الحيوان وازدياد عدده. فكانت تربى الأغنام من أجل ألبانها وصوفها، والأبقار والحمير من اجل الحرث والنقل. كما احتل لحم الخنزير مكانة رفيعة.

وشاعت تربية النحل لشدة حاجتهم اليه بسبب استخدامه بدلاً من السكر.

كانت العادة المألوفة، حتى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، هي تأجير الأرض العامة. وكان البطارقة بحكم نفوذهم وثرائهم وأنانيتهم يحتكرون ذلك ويعتبرون ما يستأجرونه في حيازتهم Possessio. بينما زادت الأزمة الإقتصادية على العامة بسبب ازدياد عددهم وطول الانقطاع عن رعاية الأرض وطول استغلال اقليم لاتيوم. وفي الوقت ذاته ادت الحروب الى اتساع رقعة الإقليم الروماني، فتقرر امران:

- **الأول**: تقام في الأماكن الاستراتيجية مستعمرات عسكرية بعضها رومانية وبعضها لاتينية. وفي هذه المستعمرات تقام حصون يعهد الى المواطنين الرومان واللاتين بالدفاع عن هذه المستعمرات، وتخصص لهؤلاء في المستعمرة مساحة من الأرض العامة.
- **الآخر**: يوزع جانب من الأرض الصالحة الزراعة في مختلف انحاء الإقليم الروماني او اللاتيني على مواطني كل إقليم الراغبين في الاستقرار بتلك الجهات لتكوين مستعمرات مدنية هناك وتكون هذه الأرض ملكاً حراً لأربابها افرادياً بطريقة التقسيم divisio وتبع إقامة هذه المستعمرات المدنية والعسكرية زيادة عدد أصحاب الأراضي، ففيما بين عامي ٣٤٣ و٢٦٤ ق.م وصل عددهم الى ٦٠,٠٠٠. هذا ما ترك السلطة في روما

الى البطارقة بعد ما تم ابعاد الميالين الى الشعب عنها بهذه الطريقة.

وقد تم تأجير الجانب الأكبر من الأراضي الصالحة للزراعة - وأراضي المراعي والغابات - الى البطارقة الذين كانوا يفوزون بها ويضمونها الى أراضيهم على ان تبقي ملكيتها للدولة. ولما وجد العامة طغيان البطارقة قد استشرى في هذا المجال، استصدر تريبونا العامة ليقينيوس وسكستوس في عام ٣٦٧ ق.م قانوناً يقضي بألا يمتلك أكثر من ١٠٠ رأس من الماشية أو ٥٠٠ رأس من الأغنام فضلاً عن ٥٠٠ يوجرا اي مواطن Possessor مستقبلا[1].

ب - مشكلة الديون

كانت أولى المحاولات لمعالجة مشكلة الديون في عام ٣٦٧ ق.م عندما اصدر ليقينيوس وسكستوس ايضاً قانوناً يقضي بحسم الفوائد السابق سدادها من المبلغ المتبقي على المدينين، وبأنه إذا بقي عليهم شيء بعد ذلك يتعين سداده في خلال ثلاث سنوات بالتقسيط. وهذا القانون الذي عالج أعراض الداء ولم يعالج الداء نفسه، إذ أن الفائدة المرتفعة بمقدار ١/١٢ من الدين اي بنسبة ٨,٥ ٪ جعلت المرابين يتحكمون في رقاب المدينين. ثم قام القنصلان في عام ٣٥٢ ق.م بإنشاء هيئة خماسية تعمل على تقديم القروض من الأموال العامة لقاء رهونات مناسبة، وتسوية ديون المعسرين بإشهار إفلاسهم. وفي عام ٣٤٧ ق.م خفض سعر الفائدة الى ٥٪ وأُمهِلَ المدينون ثلاث سنوات لتسديد ديونهم. وفي عام ٣٤٢ ق.م حُظر اعطاء قروض بفوائد.

وأصدر بوتيليوس Lex Poetelia في عام ٣٢٦ أو ٣١٣ ق.م قضى بقبول أية ممتلكات يقدمها المدين وفاء لدينه، وبعدم جواز الإستيلاء على شخص المدين واستعباد المواطنين لأنه لم يعمل طويلاً بالقانون الصادر عام ٣٤٢ ق.م. وعندما تجددت ازمة المدينين في أول القرن الثالث قبل الميلاد، أَقَرَّ العالم القورلي كوينتوس هورتنسيوس الذي عين دكتاتوراً عام ٢٨٧ ق.م معالجة هذه الأزمة.

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/٢٠٣ - ٢٠٥.

جـ - الحرف والتجارة

كانت غالبية الرومان العظمى مزراعين ورأسماليين زراعيين. ولما كانوا يؤمنون بأن المشاركة في الحروب كانت الواجب الأول على كل روماني نحو وطنه، لذلك اعتبروا مزاولة التجارة والحرف المختلفة لا يمكن ان تعد المواطن لتحمل عناء الحرب مثل ما تعده ممارسة الزراعة. فتبعاً لذلك لم يستدع ارباب الحرف والتجار للخدمة العسكرية الا في أوقات الضرورة القصوى وإن جرت العادة باستخدامهم في السفن الحربية. فلم يمارس التجارة من بين الرومان الا بعض العامة فقط. ولا يزاول الحرف إلا أدنى فئات عامة مدينة روما.

والواقع انه لم يمارس هذين المجالين، الا مَنْ كان من اللاتين والإيطاليين والإغريق نزلاء روما، الذين جذبتهم اليها أهمية مكانتها، وتشجيع الحكومة من أجل سد حاجات السكان الملحة. وبما ان الرومان، في تلك الفترة، كانوا يحيون حياة بسيطة إتسمت بالتقشف، لم تزدهر الصناعات التي أخذت تنمو منذ أيام الملكية الا ما اتصل منها بمعدات القتال، ودليلنا الى ذلك وصول السفن الفينيقية والأتروسقية والإغريقية إلى إيطاليا وهي محملة بالبضائع التي كانت تسد حاجات سكانها.

يعزى الفضل في تقدم ايطاليا الإقتصادي في اثناء الفترة التي نحن بصددها من عهد الجمهورية الرومانية، الى إغريق جنوب شبه جزيرة ايطاليا والى تلاميذهم من الإيطاليين الساكنين في قمبانيا وأبوليا، وكذلك الى المدن الأتروسقية. فغدت قابوا Capua مركزاً رئيسياً للمصنوعات البرونزية، وأخذ صناع الفخار في قمبانيا وأبوليا في خلال القرن الرابع قبل الميلاد يقلدون الأتيقية المصبوغة بالألوان. وكانت المصنوعات الأتروسقية من المعادن والفخار تلقى سوقاً رائجة في روما. وفي لاتيوم تقدمت بعض المدن فيه تقدماً كبيراً في صباغة وزخرفة الأدوات الذهبية والفضية.

وتجارياً احتلت تارنتم اهم مركز تجاري في شبه جزيرة ايطاليا. فبعدما فقدت سراقوسة مركزها المهم في تزويد روما باحتياجاتها من الخارج في نهاية النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. حلت ماسيليا ـ مرسيليا اليوم ـ

محلها، وأصبحت اكبر مصدر الى روما. وليس ادل على عدم اهتمام روما بشؤون التجارة الخارجية في النصف الأول من عهد الجمهورية المعاهدتان اللتان عقدتهما روما مع قرطاجة[1]. وبمقتضاهما أمنت روما سلامة لاتيوم من الاحتلال الأجنبي، ولكنها اعترفت لقرطاجة بإحتكار التجارة في غرب البحر الأبيض المتوسط. وبالرغم من أن المعاهدة الأولى حرمت على القرطاجيين إقامة حصون لهم في لاتيوم إلا أنها أباحت لهم دخول اقليم روما وأقاليم حلفائها اللاتين دون قيد او شرط كتجار. على حين لم تعطِ حقوق مماثلة لتجار الرومان وحلفائهم في امبراطورية قرطاجة. وقد كانت الموانىء الوحيدة، التي سمح للرومان بموجب تلك المعاهدة، دخولها، من قبل الرومان وحلفائهم، هي موانىء صقلية. وفي هذه الأحوال حُظر عليهم الا يبيعوا او يشتروا شيئاً الا ما هو ضروري لاصلاح سفنهم وأداء الشعائر الدينية، وألا تطول مدة اقامتهم اكثر من خمسة أيام إذا اضطروا بسبب الطقس أو ظروف الحرب الى الإبحار غرباً خارج صقلية.

وأفقدت المعاهدة الثانية الرومان حق الاتجار مع سردينيا. وكذلك التجارة مع ليبيا وصقلية ضمن قيود معينة. في حين احتفظ القرطاجيون بامتيازاتهم التجارية في روما وفي لاتيوم.

د ـ النقود

عدم ادراك الرومان لأهمية النشاط التجاري انعكس في بطء ادراكهم ضرورة ان تكون لهم عملية نقدية خاصة، ربط تطور نظام عملتهم، على الرغم من اتصالاتهم المستمرة بالإغريق في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وصقلية، الذين كان نظام النقود سائداً عندهم منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وكذلك مع الاتروسقيين الذين اخذوا بنظام النقود منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

فالرومان لم يعرفوا اي نوع من العملة قبل هذا التاريخ، وكان التداول

(١) A. Aymard, Les deux premiers traités entre rome et - Carthage, Rev. et Ane, 1957, Lix pp 277-293; Etudes d'histoire ancienne 1967. pp 373 ff.

عندهم يتم وفق قواعد موحدة تقدر على اساسها قيمة الأشياء في المعاملات العامة والخاصة في التبادل ـ فالكلمة Pecunia مستمدة من كلمة Pecus ومعناها قطيع ـ التي استخدمها الرومان للدلالة على النقود. في الوقت الذي كانت فيه قيم الأشياء تقدر بما تساويه من الماشية او الأغنام على نحو ما كان متعارفاً عليه عند الإغريق وغيرهم من المجتمعات الزراعية والرعوية.

كان هذا النظام البدائي للمعاملات لا يزال متبعاً حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لدى الرومان. ثم خلفه نظام أبسط «للعملة» بُدىء بإتباعه منذ عهد بعيد. هذه العملة كانت كمثل البرونز aes Rude غير مسكوكة. ووزن كل منها رطل أو إثنا عشر أوقية. ولما كانت هذه الكتل لا تحمل طابع الدولة ضماناً لوزنها ونقائها، فإنها كانت توزن عند التعامل بها. وهي على كل حال غير متوافرة بكثرة لدى الناس مما جعل الدولة تصدر في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد قانوناً تقرر بمقتضاه اعتبار قيمة الثور الواحد او عشر أغنام معادلة لعشرة ارطال asses ومفردها as من البرونز تيسيراً للمعاملات وتسهيلاً لدفع الغرامات للدولة.

بدأت الدولة الرومانية استخدام العملة في التبادل التجاري في العام ٢٩٨ ق.م. لذلك عينت هيئة ثلاثية للإشراف على دار سك العملة Triumviri monetales. ومن أولى مهمات هذه اللجنة كان اصدار سبائك تحمل صورة aes signatus تزن كل منها حوالى ستة ارطال. وإذا كانت هذه السبائك تعتبر «عملة»، فلا يمكن اعتبارها نقوداً بكل معنى الكلمة لأن لم تسك روما نقوداً حقيقية لأول مرة إلا في عام ٢٦٨ ق.م. عندما اصبحت نوعين من النقود:

ـ نوع من الفضة على نسق اغريقي، وكان من فئتين احداهما من فئة الدراخمتين، والأخرى من فئة الدراخمة الواحدة.

ـ نوع آخر من البرونز ويُسمى الآس as، ويتألف من فئات عدة هي فئات الرطل وأضعافه وأجزائه. وكانت قطعة النقد الفضية من فئة الدراخمة الواحدة تعادل خمس قطع من النقود البرونزية من فئة الرطل الواحد. أما قبل أن تسك روما نقودها الحقيقية بين عامي ٣٠٠ و٢٧٠ ق.م. كان الرومان يستخدمون

النقود الفضية والبرونزية التي كانت مدن قمبانيا تسكها من اجل سداد مشترياتهم الخارجية، ودفع مرتبات الجنود النازلين في جهات يسود فيها استخدام النقود.

والحدث الأهم في تبديل النقد الروماني كان عام ١٨٧ ق.م. عندما لجأت روما الى سك نقود برونزية جديدة تسمى ايضاً الآس as وتزن أوقيتين رومانيتين على أساس أن أوقية من الفضة تعادل في قيمتها ١٢٠ أوقية من البرونز. فقد سكت عملة فضية جديدة وزنها سدس أوقية لكي تكون مساوية في القيمة لعشر قطع من النقود البرونزية الجديدة ذات الأوقيتين. فسميت النقود الفضية الجديدة الدينار Denarrus. وتيسيراً للتعامل سكت نقود فضية يبلغ وزن كل قطعة منها ربع وزن الدينار، وقيمتها قيمة قطعتين ونصف القطعة من العملة البرونزية (الآس). وسميت هذه النقود الفضية الصغيرة سسترتيي Sestertii جمع سسترتيوس Sestertius. وقد شاعت بسرعة بين كل حلفاء روما في ايطاليا، وصارت هي العملة القياسية في كل انحاء شبه الجزيرة الإيطالية.

٣ ـ الأدب والقانون والفن.

أ ـ الأدب الروماني الباكر

تعلم الرومان الكتابة من الاتروسقيين منذ القرن السادس قبل الميلاد. فدونوا القوانين والمعاهدات وقرارات مجلس الشيوخ أو السناتو والجمعيات الشعبية والقوائم السنوية للحكام، وحوليات كبار الكهنة، والنقوش الجنائزية التي كانت توضع تحت صور أو أقنعة الموتى، وعلى التوابيت منذ القرن الثالث قبل الميلاد. ومن هذه النقوش، نقوش تابوتي لوقيوس قورنييوس سقيبيو «بارباتوس» Barbatus وابنه المسمى باسمه، وهما اللذان تولى اولهما القنصلية في عام ٢٩٨ ق.م. وتوفي اوائل القرن الثالث قبل الميلاد، وتولى ثانيهما القنصلية في عام ٢٥٩ والقنسرية في عام ٢٥٨ ق.م وتوفي في منتصف القرن

الثالث قبل الميلاد. وتابوتا هذين الرجلين اقدم ما عثر عليه حتى الآن من توابيت عليها نقوش رومانية[1].

وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن القول بأنه قد نما عند الرومان أدب حين وحدوا شبه جزيرة ايطاليا تحت زعامة روما. وشأنهم هذا شأن جيرانهم الأتروسقيين والإيطاليين. لكن هذا لا يمنع اعتبار الأغاني التي كانت تنشد في مآدب الأثرياء وقوائم الحكام، وحوليات كبار الكهنة والنقوش الجنائزية والبذور الأولى للآداب الروماني. فهذه الأغاني وتلك المدونات كانت البداية الشعرية الحماسية والتاريخ الروماني.

كما ظهرت البذور الأولى للمسرح الروماني من خلال الأشعار الشعبية المبتذلة[2] التي كانت تنظم على شكل حوار، وتنشد في حفلات الزواج وأعياد الحصاد ومواكب النصر التي كان يقيمها القواد العسكريون. وسميت هذه الأشعار «الأشعار الفسقنية» Versus fescennini الدالة على انهم اخذوها عن الحوار الشعري الذي كان ينشد في مدينة فسقنيوم Fescennium الأتروسقية. كما عرضت لأول مرة مشاهد من الرقص والموسيقى قدمها ممثلون أتروسقيون في روما، فدأب بعض الهواة على ان يضيفوا الى حوار الأشعار الفسقنية تقليد الراقصين وإداء حركات وإشارات تعبيرية.

وعرف الرومان قبل أواخر القرن الرابع قبل الميلاد شيئاً من القصص المسرحي الساخر والذي اشتهرت به مدينة اتلاً Atella في قمبانيا. فأطلق الرومان على هذا اللون المسرحي اسم «مسرحيات اتلا» Fabulaen Atallanae. وتدل كلمة fabulla على المسرحية فضلاً على القصة او الأسطورة. وهذا النوع من المسرحيات كان لا يخلو من اربع شخصيات وهي: ماقوس Maccus

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٢٢٧.

H. Dessau, Inscriptions Latinae Selectae 1892 -1916, nos. 1-3

(٢) Cf. A. Momoglano, j.R,S. 1957 pp104-1 ff.

«المهرج» وبابوس Pappus «الرجل» العجوز. و«بوقو Bucco «البدين الصغير». و«دسنوس Dossanus «الأحدب الذكي». وفي اثناء التمثيل كان يرتدي المثلون اقنعة مناسبة لها حيث يزيدون بعض الكلمات او العبارات.

وأول كتاب روماني له صبغة أدبية كان كتاب الأمثال Sententia وهو المؤلف الذي وضعه القنسور ابيوس قلاوديوس الذي استمد مادته من الإغريقية. هذا وكان لعمل الجمعيات الشعبية الرومانية اثراً كبيراً في نمو الخطابة عند الرومان. ومن أبرز الخطباء كان أبيوس في الخطاب الذي ألقاه في مجلس الشيوخ (السناتو) عام ٢٧٩ ق.م

ب ـ القانون

بقيت قوانين اللوحات الاثنتي عشرة القوانين الأساسية للدولة مع تعديلات طفيفة طرأت عليها من جراء التفسيرات التي صاحبت تطبيق هذه القوانين. وكذلك على التشريعات التي صدرت في اثناء تلك الفترة. وهذه اللوحات الاثنتي عشرة التي جاءت بدائية في نواح كثيرة منها. فإنها تدل على تطور الرومان في مجال القانون تطوراً ملموساً، إذ فصلت هذه اللوحات بين الدولة والدين في القانون. واستبدلت بحق الثأر التعويضات المعمول بها آنذاك والتي يجب على الجاني أن يؤديها إذا قبل هو وذووه.

فأعطى التشريع الذي صدر عام ٣٠٠ ق.م حق الاستئناف في جميع الأحكام التي يصدرها عليهم الحكام الرومان، ومنع اي حاكم من انزال عقوبة الجلد او عقوبة الإعدام بحق اي مواطن قدم استئنافاً من الحكم الذي صدر عليه. فأدى ذلك الى تعديل ما قضت به اللوحات الاثنتي عشرة في هذه الأنواع من الأحكام. فلا أدل من التشريع الذي صدر في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد الذي اعترف بشرعية التزاوج بين البطارقة والعامة، والتشريع الذي صدر عام ٣٢٦ أو ٣١٣ ق.م. الذي يمنع رهن شخص المدين واستعباد المواطنين الرومان العاجزين عن وفاء ديونهم.

واللوحات الاثنتي عشرة التي حددت الاجراءات القانونية Logis actiones الواجب اتباعها عند رفع القضايا، كانت على كل حال شديدة التعقيد بحيث

تعذر على غير القانونيين فهمها واتباعها واستخدام الصيغ القانونية الضرورية. ولما كان كبار الكهنة هم الذين يعرفون الأيام الرسمية لنظر القضايا ويلمون بالإجراءات والصيغ القانونية اعتبروا حراس التقاليد القانونية. وظلوا وقتاً طويلاً يحتكرون تفسير القانون وإعطاء الاستشارات القانونية. وبخاصة إن طبقة البطارقة التي منها رجال الدين الرومان ظلت حتى عام ٣٠٠ ق.م تحتكر جماعة الكهنة. لذلك لم تستفد طبقة العامة الفائدة المرجوة من وضع اللوحات الاثنتي عشرة.

وأفضل عمل قام به خبايوس فلاڤيوس Gnneus Flavius هو اصداره كتاب Lus Civile Flavianum شرح فيه بلغة سهلة القانون المدني والإجراءات القانونية الواجب اتباعها عند اقامة الدعوى او الرد عليها. كما أورد الصيغ والعبارات الواجب ايرادها في كل حالة. وعندما تسلم وظيفة الأيديلية القورلية في عام ٣٠٤ ق.م، علق في الفوروم قائمة بالأيام الرسمية التي يمكن نظر القضايا فيها. وقد قام فلاڤيوس بجمع معلوماته التي نشرها من متابعته المحاكم ومناقشته كبار الكهنة المتفقهين في القانون، لذا جاء كتابه ثمرة جهود متصلة في القانون استغرقت عدة سنوات. فكان كتاب فلاڤيوس أساساً لما قام بعده فئة جديدة من المتفقهين في القانون بنشر أعمالهم وتفاسيرهم القانونية.

جـ - الفن

تحدثنا عن فن بناء المساكن، في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية، وعن عناصر بناء المساكن وأقسام الوحدات السكنية عند الحديث على الحياة اليومية والتربية والتعليم من هذا الفصل. لذلك سنتابع الكلام الآن على فن بناء المعابد. ونشير الى أنه في بداية عهد الجمهورية استكمل بناء المعبد الكبير «الجوبيتر» و«جونو» و«منيرفا»، وهو المعبد الذي بُدىء في إنشائه أواخر عهد الملكية. وفي القرن الأول من عهد الجمهورية تمَّ بناء اربعة معابد: الأول للإله مرقوريوس Marcurius في عام ٤٩٥ ق.م، والثاني معبد للثالوث المكون من «قرس» و«ليبر» و«ليبرا» Ceres, Liber, Libera في عام ٤٩٣ ق.م. والمعبد الثالث للإلهين التوأمين: «كاستور Castor وبولوكس Pollux في عام ٤٨٤

ق.م. والمعبد الرابع للإله أبولو في عام ٤٣١ ق.م. وليس هناك ما يشير الى إقامة معابد في خلال القرن الرابع قبل الميلاد وإلا ما أقيم عند نهايته مثل معبد الإلهة سالوس Salusفي عام ٣٠٢ ق.م. ثم معبد الإله اسقولابيوس Aesculapius في عام ٢٩١ ق.م الى جانب هذه المعابد الكبيرة تمَّ إنشاء عدد غير قليل من المعابد الصغيرة. وهذه المعابد الكبيرة كانت أم الصغيرة لم يكن يُبنى منها الا قواعدها بالأحجار، وباقي أجزائها كانت من اللبن والخشب.

والرومان الذين اخذوا عن الأتروسقيين بناء المعابد وأشكالها، وإقامة التماثيل للآلهة بداخلها، فإنهم استخدموا معماريين وفنانين أتروسقيين في بناء وزخرفة اقدم معابدهم. ثم اعتمدوا بعد ذلك على الإغريق في بناء المعابد فاتسمت معابدهم حينذاك بالسمة الإغريقية على الرغم من الاختلاف الواضح بين المعابد الرومانية ومثيلاتها الإغريقية في عدة خصائص منها: ارتفاع قاعدة المعابد الرومانية، والنتوء الظاهر في القاعدة عن البهو الذي يتقدم قاعة العبادة Cella وطراز أعمدتها، وافتقارها عادة الى بهو أعمدة يحيط بالمعبد.

أما المنشآت الأخرى العامة التي أُقيمت في تلك الفترة من عصر الجمهورية الرومانية فتتمثل في:

أولاً: بناء سور ضخم من الحجارة يحيط بمدينة روما بعد غزوها من الغال في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد[١].

ثانياً: إنشاء طريقين عامين، طريق لاتيوم Via Latium الذي لا يعرف تاريخ إنشائه بالتحديد. والطريق الآخر هو طريق آبيوس Via Appia الذي أنشأه قلاوديوس عهد قنسوريته في عام ٣١٢ ق.م. وهذا الطريق يصل ما بين روما وقايوا Capua. ثم أكمل بعد ذلك، ليصل حتى بروونديزيوم ماراً بثلاثة مواقع هامة هي بنفنتوم وفنوسيا وتارنتم.

ثالثاً: إنشاء قناتين لتوفير مياه الشرب الى روما. وقد أنشأ أبيوس قلاوديوس «القنسور» واحدة Aqua Appia، والثانية أُنشئت في عام ٢٧٢ ق.م،

---

(١) انظر خريطة روما في العصر الجمهوري والسور المحيط بها.

وتعرف باسم الأنيو القديم Anio Vetus لأنها أخذت من مياه النهر.

رابعاً: أعيد بناء المنصة Rostra في الفوروم.

خامساً: إنشاء مجار في شوارع روما لتصريف مياه الأمطار ورصف هذه الشوارع بالأحجار.

هذا واقتصر فن النحت على إقامة التماثيل في المعابد، وهي مصنوعة من الصلصال على يد فنانين من الاتروسقيين، وإما من الحجر على يد فنانين من الإغريق. أما في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، أخذ انتشار التماثيل يخرج عن إطار المعابد الى القصور والساحات العامة بوضع تماثيل لأبطال روما العسكريين في الفوروم مثل التمثالين اللذين أُقيما لقنصلي عام ٣٣٨ ق.م - لوقيوس فوريوس قاميليوس L. furius Camillus وغايوس مايينوس G. Maenius بعد هزيمتهما للقوات اللاتينية. كما أُقيم على مقربة من هذين التمثالين في عام ٢٩٦ ق.م. تمثال من البرونز لذئبة ترضع توأمين من البشر - أسطورة نشأة روما -.

الواقع ان هذه التماثيل لم تكن من عمل رومانيين، وإنما اتروسقيين ثم اغريق. لكنها في جميع الأحوال كانت تصور تصويراً واقعياً سمات الأشخاص الذين اقيمت لهم، لذلك تسمى صوراً Portraits، لم يكن لفن النحت الروماني وجود قبل القرن الأول من عهد الأمبراطورية الرومانية.

لكن البطارقة الرومان قد أخذوا عن الاتروسقيين عادة عمل اقنعة لموتاهم للاحتفاظ بأشكال اسلافهم، فكانت هذه الأقنعة نموذجاً استمده المثال الروماني باعتباره قادراً على التصوير الواقعي اعتباراً من اوائل القرن الثالث قبل الميلاد.

ويرجع ما عُثر عليه من صور بالألوان، الى أوائل عهد الجمهورية، وهو لا يعدو كونه مناظر حربية تقليدية صورت دون عناية كبيرة على جدران مقبرة نحتت في صخور تل اسكويلينوس في خلال القرن الرابع قبل الميلاد. كما ان جدران معبد سالوس الذي أقيم في عام ٣٠٢ ق.م. زينت بمجموعة من الصور الملونة المنسوبة الى أحد البطارقة المدعو «مَابيوس» فطغى عليه لقب بيقتور Pictor أي المصور. وأصبح ذلك لقباً عائلياً متوارثاً في أسرته.

وهناك ايضاً مجموعتان من الصور الملونة تعودان الى عامي ٢٧٢ و٢٦٣ ق.م تخليداً لذكرى انتصارين احرز الرومان أولهما في خلال الحرب مع بورّوس، وأحرزوا ثانيهما في خلال الحرب البونية الأولى مع قرطاجة.

ومستوى الفن الروماني في النصف الأول من عهد الجمهورية بالقياس إلى الفن الإغريقي أو الفن القرطاجي المعاصر، يدل على ان طراز الصور التي نُقشت على أولى النقود الرومانية ـ سكت في عام ٢٦٨ ق.م ـ هي دون مستوى طراز نماذجها الإغريقية والقرطاجية. أو مستوى طراز النقود الرومانية التي سكت فيما بعد.

الفصل السابع

الحرب البونية او الحرب بين روما وقرطاجة

٢٦٤ ـ ١٤٦ ق.م.

١ ـ قرطاجة

أ ـ الأمبراطورية القرطاجية

فضلَّ الفينيقيون الموقع الذي بُنيت عليه مدينة قرطاجة، لأنه يتمتع بخصائص مهمة، تتفق مع أهدافهم التوسعية، سواء في الداخل أو على الشطآن المجاورة. وهذا الموقع امتد الى جانب شريط صخري يتجه طرفه الذي يؤلف «رأس قرطاجة» نحو الشرق، حيث تقع حالياً قرية «سيدي بوسعيد». يحيط به مساحات رملية ـ من الشمال الغربي والجنوب الغربي ـ خلف سفوح قليلة الإنحدار حتى تصل الى علو ٦٠٠ متر عند القمة، على بعد كيلومتر واحد من البحر، مكان تأسيس قرطاجة[١]، وفي الخليج الذي نزل فيه البحارة الفينيقيون لأول مرة، تمَّ إنشاء مرفأ قرطاجة بعد توسيعه نحو الداخل.

اسم قرطاجة بالفينيقية «قارت هادشت» واسماها الإغريق Den Karkhe، وأطلق عليها الرومان Carthage. والتاريخ التقليدي لحادثة تأسيس المدينة يعود إلى حوالى عام ٨١٤ ق.م. وفق قصة تقول: حدث خلاف بين «اليزا» او «اليسا» Elissa وعند الرومان «ديدو» Dido وشقيقها بجماليون. انتهى بمقتل زوج اليسا المسمى «اخارتاس» Achartas ـ كاهن هيكل عشتروت الأعظم ـ

---

(١) أيوب، ابراهيم رزق الله محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية ص ٢٩ كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة اللبنانية ١٩٩١م.

فهربت من مدينة صور Tyr وبصحبتها عدد من النبلاء وغيرهم من شتى الطبقات قاصدة أولاً قبرص، ومنها الى موقع قرطاجة في شمالي افريقيا ـ تونس اليوم ـ مباشرة حيث أسست هناك مدينة قرطاجة المشهورة حوالى العام ٨١٤ ق.م. على أساس أنه يناسب ما تدل عليه الحفائر، وبخاصة آثار الحرم المقدس المعروف باسم «معبد تاينت» الذي ربما يرجع تاريخه الى بداية تأسيس قرطاجة.

سرعان ما نمت هذه المستعمرة (المحطة) التجارية الفينيقية نمواً فاق الحدود، حتى فاقت «صور» ذاتها قوة وأهمية. وأصبحت زعيمة جميع المدن الفينيقية في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط. وإنفصمت نهائياً علاقة التبعية بين المستعمرة «قرطاجة» ومدينة صور إلا في أوقات الضيق. فيتذكر القرطاجيون الإله «ملكارت» في صور، فيعودون إلى تكريمه وإرسال الأموال والضرائب الى معبده (هيكله).

وابتداء من نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، كان وقوف قرطاجة وجهاً لوجه مع حركة الاستعمار اليوناني (الإغريق) تتحداه مرة، وتساومه مرة أخرى. فأول عمل قامت به قرطاجة، هو تأسيس مستعمرة في ابيزا Ebiza أو Ebwsus وهي جزيرة صغيرة ومحطة مهمة على الطريق الملاحي بين سردينيا واسبانيا مروراً بجزر البليار. ولعل إنشاء المستعمرات الفينيقية، كان في مرحلة السباق او المنافسة الأولى بين الإغريق وقرطاجة. فلم يكن غريباً ان نسمع عن محاولة يائسة قامت بها قرطاجة لمنع الفوكيين (اغريق) من تأسيس مدينة ماساليا (مرسيليا) Massilia حوالى عام ٦٠٠ ق.م. ولم يمضِ نصف قرن حتى اخذت قرطاجة تسيطر تدريجاً على المستعمرات الفينيقية في الغرب. وتحول أهم المراكز التجارية الفينيقية المؤقتة الى مستعمرات دائمة تابعة لها مثل «لبدة» Leplis Magna وصبراته Sabrata وأويا Oea في ليبيا. وبسطت سيطرة على الليبيين المقيمين في المناطق المجاورة شرقاً وغرباً وتوسع نفوذها ليشمل بعض القبائل في جنوب اسبانيا وشرقها. فلم يأتِ النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد حتى كان لها امبراطورية واسعة تمتد من شواطىء افريقيا الشمالية ابتداء من خليج سرت الى ما وراء جبل طارق، وبعض اجزاء من

شاطىء اسبانيا الجنوبي وجزر البليار وقورسيقا وسردينيا وجانباً من جزيرة صقلية.

تألفت امبراطورية قرطاجة وهي في ذروة مجدها من:

أولاً: قرطاجة ذاتها التي قدر سكانها آنذاك بـ ٧٠٠ ألف نسمة.

ثانياً: المستعمرات الفينيقية القديمة والحديثة. وتتمتع بالحكم الذاتي.

ثالثاً: خليط من الليبيين والفينيقيين يتمتعون بمركز خاص وبالتزاوج مع الفينيقيين.

رابعاً: الرعايا الليبيين القاطنين في المناطق المجاورة لقرطاجة والخاضعين لحكمها.

خامساً: القبائل الليبية المقيمة خارج هذه المناطق وارتبطت معها بعلاقات وروابط تجارية عن طريق زعمائها.

كانت قرطاجة، جمهورية، ذات نظام حكم أوليغركي. اجتمعت مقاليد الأمور فيها في قبضة نفر قليل من أثرياء التجار الذين ينتمون الى الأسر العريقة. كان على رأس السلطة حاكمان يسميان Suffetes السافطان ينتخبان سوياً ـ كما هو الحال في نظام القنصلية بروما ـ وكانت السلطة السياسية تتركز في مجلس الشيوخ المؤلف من ثلاثمائة عضو. بيد أن لجنة الثلاثين المؤلفة من أكثر اعضاء هذا المجلس نفوذاً، هي التي كانت في قبضتها السلطة الفعلية. تجتمع بصورة دورية لأنها أداة الحكم الرئيسية. أما باقي اعضاء مجلس الشيوخ فكانوا نادراً ما يجتمعون إلا عند الضرورة في مناسبات خاصة. فضلاً عن مجلس الشيوخ ولجنة الثلاثين. هناك جمعية شعبية تتألف من كل المواطنين الذين تتوافر لديهم مؤهلات السن والثروة. وهي التي تنتخب كل سنة السوفتس والقواد. وتوافق على القرارات والمشاريع التي يعرضها عليها مجلس الشيوخ وعلى أسماء المرشحين للإنتخاب. وهنا تجدر الملاحظة إلى أنه يسمح بإعادة الانتخاب للمنصب نفسه، وحتى تولي اكثر من منصب واحد في وقت واحد بعد شراء ضمائر الناخبين بالرشوة السائدة بين أعضاء الجمعية الشعبية والمتعارف عليها من قبل أصحاب الوظائف.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد أنشئت محكمة عليا تألفت من ١٠٤ أعضاء من القضاة. واقتصر عملها على فض النزاع بين العائلات في قرطاجة، ولا سيما اسرة «ماجو» Mago الأكثر نفوذاً والأكبر تسلطاً آنذاك. ولما كان مجلس الشيوخ هو الذي يختار اعضاء هذه المحكمة من بين أعضائه عن طريق جماعة من الحكام خماسية الهيئة Pentarchies. ولما كان اختصاص القضاة أعضاء المحكمة العليا هو محاسبة الحكام على أعمالهم، كانت الرشوة تأخذ طريقها الواسع الباب. لأن المحاسِب والمحاسَب كلاهما ينتمي الى طبقة الأوليغركية. ولم تتخلص قرطاجة من تلك الطغمة الفاسدة الا في عهد القائد العظيم «هانيبال» الذي طهر الحكم من الفساد.

ولما كانت الزراعة لا تستهوي القرطاجيين بوجه عام، فقد مارسها عدد قليل منهم، في الوقت الذي كان الليبيون يعملون في زراعة وفلاحة مزارع الأغنياء من أهل قرطاجة. كما اشتغل عدد كبير من القرطاجيين في صناعة النسيج والصباغة وصنع الآنية المعدنية والفخارية والحاجات الأخرى. في حين اشتغل عدد اكبر بكثير في التجارة. يدل هذا على أن نسبة كبيرة من القرطاجيين كانت بحكم طبيعة عملها وانشغالها في ممارسته لم تعر الشؤون السياسية في البلاد اهتماماً زائداً. فكانت المصالح الاقتصادية والتجارية المشتركة بين الأقلية الحاكمة والغالبية المحكومة هي العوامل المهمة التي حافظت على استقرار الأوضاع التي كانت قائمة في ظل ثروة كبيرة هي اقوى العوامل فعالية وأمضى سلاحاً في الظروف التي انتشرت في خلالها الرشوة بشكل فاضح.

امتدت تجارة قرطاجة الى تخوم قيرونة شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً. واستولى تجارها على اسبانيا الغنية بالمعادن ولا سيما الفضة. واحتكروا تجارة الصفيح من بريطانيا عن طريق مضيق جبل طارق[1]. وأسسوا لهم مستعمرات في سردينيا وكورسيكا. واستولوا على جزء كبير من صقلية بعد انسحاب

---

(١) ايوب، ابراهيم محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية ص: ٣٣.

«بيروس» ملك «أبيروس» منها[1] فصاروا بحق اسياد التجارة في غربي المتوسط، كما في شرقه، حتى أن بعض سفنهم كانت تهاجم السفن الأجنبية الداخلة الى مياه مضيق جبل طارق وتضربها بالمجانيق فتغرقها الى أعماق اليمّ. كما كانت سفن القرطاجيين قد شقت لجج البحر الأبيض المتوسط، يوم كان الإيطالي لا يزال بدائياً ينتظر قدوم التاجر الفينيقي القرطاجي اليه ومعه الأدوات المعدنية ليبيعها منه يوم كانت روما لا تزال قرية فقيرة.

وعلى الرغم من ذلك كله، لم تكن قرطاجة دولة حربية كروما. لأنها كانت تعتمد في نفقاتها الحربية على أرباحها من تجارتها، ولم يكن لديها فلاحون قائمون على حراثة أراضيهم تستطيع أن تجند منهم جيشاً وطنياً مؤمناً برسالة دولته، كما كانت تفعل روما. بل كانت تعتمد على المرتزقة في حروبها، والذين ادى تزايدهم مع الوقت إلى خلق أزمة داخلية استمرت عدة سنوات إذا ما تعاقبت عليهم الهزائم أو تأخرت رواتبهم، أو لم تكن الأسلاب كافية لسد نهمهم. وإزاء ذلك كله، وتكوين الجيش من عناصر متباينة، تفتقر الى الوازع الوطني، وتميل الى الخروج على النظام. كان الجيش دائماً مصدر خطر كبير على قرطاجة، بيد انه كان يتولى قيادة هذه القوات ضباط قرطاجيون إحترفوا الخدمة العسكرية. وبذلك توافر لهم من الخبرة ما لم يتوافر للقناصل الرومان، وهم الذين كانوا عادة يتغيرون في كل عام. وحين كان يتولى القيادة العامة قائد بارع يستطيع الإمساك بزمام هذ القوات وتنظيمها. كان يجعل منها أداة محاربة ممتازة. ولما لم تكن قيادة مثل هذه القوات امراً يسيراً، فإن القواد كانوا يتمتعون بسلطات واسعة تمكنهم من السيطرة على قواتهم، وإذا كان القواد لا يحاسبون على الخسائر في الأرواح، فإنهم كانوا يحاسبون حساباً عسيراً على الفشل في تطبيق الأهداف المنشودة.

ومهارة قرطاجة البحرية وكفايتها جعلتاها تغتصب سيادة البحار الغربية من إغريق سراقوسة وتارنتم. بيد أنه عندما اخذ الرومان عن القرطاجيين طراز

---

(١) عبد الوهاب، لطفي اليونان ص: ١٥٢ دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩.

سفنهم، وكونوا لأنفسهم اسطولاً، لم يلبثوا ان اكتسبوا تدريجاً سيادة البحار: وإذا كنا نعرف عدد سفن هذا الاسطول الذي وصل الى حوالى ٢٥٠ سفينة حربية في خلال الحرب البونية الأولى. وأن كل سفينة حربية[١] في القرن الثالث قبل الميلاد تحتاج إلى ٣٠٠ مجدف فضلاً عن ١٢٠ مقاتلاً. هذا يعني ان الأسطول القرطاجي كان يتألف من ٧٥,٠٠٠ مجدف وحوالى ٣٦,٠٠٠ مقاتل[٢].

وهكذا أصبحت قرطاجة دولة متكاملة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، لها أرضها الزراعية التي تمد سكانها المتزايد عددهم بالغذاء اللازم، كما جندت الليبيين في جيشها الذي كثرت مسؤولياته الحربية، لا سيما في القرن الرابع قبل الميلاد. بسبب حروبها مع سرقوسة (سيراكيوز) في صقلية التي احتفظت بنهايتها بوجودها في الجزيرة.

ب ـ سياستها الخارجية

اشتهر عن قرطاجة رغبتها في السلام الدائم، واشتراكها في الحرب مكرهة. فبينما اخذت الأوضاع السياسية في الغرب تتبدل بظهور روما على المسرح السياسي والعسكري وتحل تدريجاً محل القوى اليونانية للوقوف في وجه الأطماع القرطاجية في صقلية. عقدت معاهدتي تحالف بين روما وقرطاجة متتاليتين، اتفقتا بموجبهما على رسم حدود في البحر الأبيض المتوسط لا يجوز لسفن الفريقين ان تتعداها، مما مكن قرطاجة من السيطرة على كامل جزيرة صقلية تقريباً[٣]. ثم اتفق الطرفان من جديد في عام ٢٧٩ ق.م على عقد

---

(١) يسمى هذا النوع من السفن الحربية «كوينكريم» quinqueremen. اي الخماسية. ويرجح الآن ان سبب هذه التسمية يرجع الى انه كان يدير كل مجذاف في السفينة خمسة رجال.

(٢) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/٢٥٢.

(٣) ايوب، ابراهيم محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية ص ٣٤.

معاهدة عسكرية ضد عدوهما المشترك «بيروس ملك جزيرة» «أبيروس» و«الإغريق» على ما ذكرناه سابقاً. ومما يجدر ملاحظته:

اولاً: اتفقا في المعاهدات الثلاث الا تكون لقرطاجة قواعد دائمة في ايطاليا.

ثانياً: انشأت روما على الساحل الغربي فيما بين عامي ٣٥٠ و٢٧٠ ق.م سلسلة من المستعمرات العسكرية الرومانية من اتروريا حتى قمبانيا.

ثالثاً: انشأ الرومان في عام ٣١١ ق.م هيئة ثنائية بحرية لحراسة الشواطىء الإيطالية باسطول صغير. ولم يكن تحت امرة كل عضو من عضوي الهيئة الثنائية سوى عشر سفن حربية.

ومع ازدياد قوة روما وامتداد سيطرتها حتى مشارف امبراطورية قرطاجة. لم يكن هناك من مَغَر مَنْ وقوع صدام بين هاتين القوتين:

جـ ـ مشكلة مسينيا تعجل نشوب الحرب أو أسباب الحرب

ساعدت الظروف الرومان في فتح ايطاليا او توحيدها، كما مر معنا، وأصبحت روما جارة قوية وقريبة لقرطاجة على الشواطىء الجنوبية. وعندما حاصر القرطاجيون الإغريق في مدينة مسينيا Massinia= مسانا في عام ٢٦٤ ق.م. طلبت الأخيرة مساعدة روما في رفع الحصار. وإذ ادرك مجلس الشيوخ الروماني ان مسألة احتلال قرطاجة لمسينيا القريبة من الشواطىء الجنوبية لإيطاليا تهديد لسلامة شبه الجزيرة وحرية سفنها وسفن حلفائها في استخدام مضيق مسينيا. ووجد كذلك ان الاستجابة الى طلبها سيؤدي حتماً الى الاشتباك مع قرطاجة في حرب بحرية. وأن الرومان تنقصهم بعد الخبرة في الحروب البحرية فضلاً عن كونهم لا يملكون اسطولاً يقوى حتى على مهاجة اسطول قرطاجة.

إزاء ذلك اختلف اعضاء مجلس الشيوخ أو السناتو في مناقشة الطلب بإبداء الرأي حول تقديم المساعدة او عدمها، وأحالوه الى جمعية المثينات. ولما كان المواطنون الرومان يشعرون أنهم أحوج الى الراحة منهم الى الحرب، بسبب المجهود الكبير الذي بذلوه في السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، وبخاصة في أثناء صراعهم مع بروس. لذلك سيطر على الجمعية الشعبية شعور التردد

والحيرة إلى أن أقنعها القنصلان بالموافقة على التحالف مع أهل مَسينيا لما ينطوي عليه مشروع ارسال قوة عسكرية رومانية الى صقلية من «مكاسب». فوافقت الجمعية على التحالف وإرسال قوة عسكرية فورية إلى مسينيا.

حققت القوة الرومانية في صقلية هدفها دون اي قتال، لأنه بمجرد ظهورها غير المتوقع انسحب الأسطول القرطاجي المحاصر للمدينة. لكن قرطاجة التي كانت تشعر في رغبة كبيرة بالاحتفاظ بمكاسبها في السيطرة على تلك المدينة، واستطراداً على الجزيرة. فإنها فوراً ارسلت حملة لاستعادتها، وحرضت من جهة ثانية، ملك سراقوس «هيرو» على الانضمام الى جانبها لطرد الرومان الدخلاء من صقلية. وحاصر الفريقان ـ القرطاجي والسراقوسي ـ مسينيا، الأمر الذي جعل مجلس الشيوخ الروماني يحشد فرقتين ويرسلهما بقيادة القنصل ابيوس قلاوديوس لتعزيز الحامية الرومانية هناك. وبوصول التعزيزات الى مسينيا، تمكن الرومان من رفع الحصار عنها بهزيمة القوتين المتحالفتين، وإنقاذ مسينيا.

استاءت قرطاجة من تدخل روما في صقلية التي كانت ترى فيها مجالها الحيوي والإقتصادي الذي يقوم عليه كيانها، وتعتبرها بحق نفوذها الطبيعي، لذلك كان لا بد من وقوع ما يُسمى بالحرب البونية بين قرطاجة وروما. انطلاقاً من ارض صقلية. وقد استمرت هذه الحرب مدة طويلة، من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ ق.م. ومرت في ثلاث مراحل:

٢ ـ مراحل الحرب البونية

أ ـ المرحلة الأولى: ٢٦٤ ـ ٢٤١ ق.م

بعدما سيطر الرومان على منطقة مسينيا في عام ٢٦٤ ق.م، أنفذوا جيشاً كبيراً من الرومان وحلفائهم قدر بحوالي ٤٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة القنصل مانيوس فالريوس Manius Valerius لمعاقبة ملك سراقوسة على إنضمامه الى القرطاجيين. فور وصول القوات الرومانية والحليفة الى صقلية. اجتاحت كل شيء في طريقها الى سراقوسة التي واجهت المهاجمين باستحكاماتها القوية، وعلى الرغم من

محاصرة فالريوس لها لم يقوَ الأخير على فتحها، فعرض الصلح عليها مقابل الشروط التالية:

١ ـ عقد معاهدة تحالف على قدم المساواة مع روما لمدة خمسة عشر عاماً.
٢ ـ الاحتفاظ بإقليم من الأراضي الضيقة حول سراقوسة.
٣ ـ دفع غرامة مالية ـ أعباء حرب ـ قدرها مائة تالنت (٢٥,٠٠٠ جينه استرليني)

ولما رأى هيرو ملك سراقوسة استحالة خروجه من هذا الحصار منتصراً على دولة قوية كروما وأن شروط الصلح معقولة، عقد معاهدة التحالف مع روما[١].

بالطبع أغضب، تحالف هيرو مع روما، قرطاجة التي لم تقف مكتوفة الأيدي. فأرسلت جيشاً كبيراً قوامه ٥٠,٠٠٠ مقاتل لدعم مركزها في الجزيرة ورد اعتبارها، وطرد الرومان من سراقوسة وحولها أقله، وتأديب ملكها هيرو. إتخذ الجيش القرطاجي من مدينة اغرغنتوم Agrigentum في الجزيرة مركزاً له، وهي المدينة التي كانت تربطها بقرطاجة علاقات تجارية وثيقة جعلتها تنحاز إليها علماً انها مدينة إغريقية. فما كان من الرومان إلا ان زحفوا الى «اغريغنتوم» في عام ٢٦٢ ق.م وحاصروها حتى سقطت بأيديهم حيث دمروها، وباعوا أهلها في سوق النخاسة.

شجع هذا الانتصار في اغريغنتوم الرومان على مواصلة اطماعهم العسكرية، بالسيطرة العسكرية على كامل صقلية، من اجل حماية شواطىء ايطاليا من إغارات الأسطول القرطاجي المؤلف آنذاك من حوالي ١٢٠ سفينة حربية، في الوقت الذي لم يكن لديه فيه الا العدد القليل من السفن الحربية. لذلك قرروا إنشاء اسطول بحري يزيد عدد سفنه على عدد سفن القرطاجيين بقليل[٢] بهدف تحطيم السيادة البحرية لقرطاجة.

ولما اكتمل بناء الأسطول الروماني في عام ٢٦٠ ق.م بمساعدة اهل

---

(١) جددت هذه المعاهدة هذه إنقضاء مدتها في عام ٢٤٨ ق.م بدون تحديد لفترة الانتهاء من العمل بها. وقد بقيت منذ عقدت في عام ٢٦٣ حتى وفاة هيرو ٢١٥ ق.م.

(٢) لمعرفة عدد سفن الفريقين في هذه الحرب انظر W.W. Tarni, J.H.S. 1907 pp 48 ff.

سراقوسة المشهور عنهم المهارة الفائقة في بناء السفن. متخذين من سفينة حربية قرطاجية قديمة أهملها اصحابها نموذجاً لسفن اسطولهم. اشتبك القنصل غايوس دويليوس Gaius Duilius مع الأسطول القرطاجي في معركة حربية تجاه «ميلاي» Mylae على الشاطىء الشمالي الشرقي لصقلية. فعلى الرغم من مهارة البحارة القرطاجيين، وكفايتهم في سرعة المناورة فإن نتائج المعركة كانت في صالح الرومان بفضل ما صنعوا لكل سفينة من سفن اسطولهم جائزاً من الخشب عند اسفله ينتهي بحلقة من حديد، وبحبل وبكرة من أعلاه. وينتهي الجائز في الأعلى بشعر Carvus. فكانوا إذا إقتربت سفن قرطاجة من سفنهم، ينزلون الجائز فتعلق شصوصها في ظهور تلك السفن، وتكون جسوراً اليها، فيعبر الرومانيون عليها ويقاتلون القرطاجيين عن كثب بالسلاح الأبيض[1]. ففاجأوا القرطاجيين بهذا الاختراع - كان شائعاً سابقاً بين الإغريق - الجديد الذي ساهم في ترجيح كفة المعركة لصالح غايوس دويليوس بعدما خسر القرطاجيون نصف سفنهم الحربية. فشجع هذا الانتصار الرومان على القيام بسلسلة من الهجمات على مستعمرات قرطاجة في سردينيا عام ٢٥٩ ق.م، وفي قورسيقا عام ٢٥٨ ق.م لكنهم لم يحرزوا اي انتصار حاسم في الجزيرتين. في حين تتابعت الهجمات حتى عام ٢٥٦ ق.م على المدن الصقلية في وسط الجزيرة وغربها دون أن تتمكن من طرد القرطاجيين الذين تمكنوا من الاحتفاظ بـ«ثربانا Trepana وليلوبايورم Liparmae[2] وباقورموس Paquormos بالرمو، وسلينوس Selinus وهرقليا مينوا Heraclea Minoa. أدرك الرومان حينذاك ان صراعهم مع القرطاجيين لن يحسم الا اذا هاجموهم بقوة كبيرة وضربة قاضية. وأخذوا يستعدون لمهاجمة قرطاجة نفسها على الساحل الإغريقي انطلاقاً من صقلية حيث

(١) W.W. Tarm. Hellenistie Militay and Naval Developments, p. 146, J.H. thiel, studies on the History of Roman Sea-power, pp 432 ff - 1946.

(٢) كانت هذه المدينة تعرف بـ«هيميرا Hemera الى ان استولى عليها القرطاجيون ودمروها في عام ٤٠٨ ق.م.

ثبتوا أقدامهم فيها. فتمكنوا من اعداد اسطول كبير تألف من ٢٥٠ سفينة حربية، فضلاً عن ٨٠ سفينة نقل. ولما علمت قرطاجة باستعدادات الرومان جهزت أسطولها الذي بقي اقل من الأسطول الروماني عدداً.

وفي عام ٢٥٦ ق.م ابحر الأسطول الروماني في طريقه الى إفريقيا. فالتقى بالأسطول القرطاجي عند رأس أقنوموس Ecnomus على الشاطىء الجنوبي لصقلية حيث اشتبكا في معركة انتهت بانهزام الأسطول القرطاجي، تابع بعدها الأسطول الروماني ابحاره بقيادة القنصل مرقص اتيليوس رجولوس M Atilius Regulus ونزل على الشاطىء الإفريقي حيث أنزل بالقرطاجيين عدة هزائم متتابعة مكنته من التوغل في افريقيا بعيداً عن الساحل لقضاء فصل الشتاء في مكان قريب من قرطاجة مما جعل الأخيرة تطلب الصلح منه. فعرض القنصل الروماني شروطاً قاسية رفضتها قرطاجة، ثم اخذت تستعد للقتال في نهاية الشتاء باستقدام فرقة من المرتزقة المشهود لهم في القتال والتدريب، وعلى رأسهم قائد اسبرطي محترف يدعى Xanthippus زانتيبوس. عمل هذا على الفور هو ورجاله بتدريب الجيش القرطاجي وفقاً لأفضل الأساليب القتالية الإغريقية.

وما إن وافى ربيع عام ٢٥٥ ق.م حتى انهى الجيش القرطاجي تدريبه اشتبك بعدها مع الجيش الروماني الذي حلت به الهزيمة هذه المرة وأسر قائده القنصل رجولوس. لكن الأسطول القرطاجي تصدى للأسطول الروماني الذي كان قادماً بتعزيزات لرجولوس نكب بخسائر فادحة شلت قدرة قرطاجة البحرية على مدى الأعوام الخمسة التالية. في حين ان الأسطول الروماني لم يصل الا بعد انتهاء المعركة البرية فانقذ فلول جيشه تجاه شاطىء صقلية الجنوبي وتحطمت اكثر من ٢٥٠ سفينة - من بينها حوالى ١٠٠ سفينة قرطاجية كان قد غنمها في المعركة السابقة - ولم يتبق من الأسطول الروماني الناجي أكثر من ١٠٠ سفينة فقط.

أعاد الرومان بسرعة كبيرة بناء أسطولهم الذي تحطم اكثر سفنه بالأنواء ووجهته هذه المرة الى مهاجمة القواعد القرطاجية في غربي صقلية. فسقطت مدينة بانورموس Panormus = بالرمو في قبضة الرومان عام ٢٥٤ ق.م. لتتوقف الحرب بين الفريقين حتى عام ٢٥٠ ق.م عندما حاولت قرطاجة استعادة

بانورموس، لكنها منيت بالفشل. الأمر الذي شجع الرومان في العام التالي على مهاجمة مدينة ليلوبايوم Lilybaeum ومحاصرتها براً وبحراً، إلا أن القرطاجيين تمكنوا من هزيمة الرومان براً وبحراً هذه المرة واستعادوا سيادتهم البحرية ولو مؤقتاً. ووصل الى صقلية في العام ٢٤٧ ق.م القائد القرطاجي هاميلقار برقه Hjamilcarr Barea الذي أسندت إليه قيادة القوات القرطاجية في صقلية يعاونه أميرا البحر القرطاجيان اذربعل Atherbal وقرتالو Carthalo يخربان باسطولهما سواحل ايطاليا. كما شن هميلقار برقة حرب عصابات اقضت مضاجع الرومان وأوقعتهم في مأزق مالي بسبب الخسائر وازدياد النفقات، وقد استولى هاميلقار على موقعين منيعين - وهما جبل هرقتي Herecte قرب بانورموس، وجبل اروكس Eryx بجوار دويانا - واتخذ منهما قاعدتين لشن إغارات على القوات الرومانية.

وأخيراً تغلبت روما على مشكلة الخسائر ومواجهة نفقات الحرب وبناء السفن بالإلتجاء الى التبرع من الأغنياء لتعويم الخزانة. فتمكنت من بناء مائتي سفينة حربية أنزلتهما في صيف عام ٢٤٢ ق.م في البحر بقيادة القنصل لوتاتيوس كاتولوس Lutatius Catulus ليضيق خناق الحصار على ليلوبايوم ودريانا من جهة البحر عجزت قرطاجة عن اعداد اسطول يستطيع انقاذ هاتين القلعتين. ولم يكن في وسعها ان تفعل اكثر من ارسال نجدة بحرية قاتلها الأسطول الروماني خارج دريانا وهزمها في ربيع السنة ٢٤١ ق.م. إضطر القرطاجيون الى قبول الصلح من القنصل الروماني الذي سميّ باسمه «صلح قاتولوس» والذي ينص على:

- تتخلى قرطاجة عن صقلية والجزر المجاورة لها.
- تتعهد قرطاجة بدفع غرامة مالية قدرها ٣٢٠ وزنة تسددها سنوياً أقساط لمدة عشرين عاماً[1].
- تسلم قرطاجة، الى روما جميع الأسرى الرومان دون فدية.

---

(١) رستم، عصر أوغسطوس قيصر وخلفائه ١/ ٣٧.

ـ ومن نتائج المرحلة الأولى فضلاً عن المعاهدة بشروطها التي كانت لصالح روما حقق الرومان المكاسب التالية:

ـ آلت السيادة البحرية في غرب المتوسط لروما.

ـ تطلعت روما لبناء امبراطورية لها بالرغم من خسائرها الكبيرة ٥٠٠ سفينة و٢٠٠,٠٠٠ رجل.

ـ لم تقتصر نكبة قرطاجة على خسائرها في الرجال والسفن، ولا على السيادة البحرية بل كانت خسائرها في اعتماد سياسة خرقاء أساسها الربح والخسارة بنتيجة كل معركة قام بها جنودها من المرتزقة الذين ما إن عادوا من صقلية حتى طالبوا حكومة قرطاجة بدفع المرتبات العالية التي وعدهم بها قائدهم هاميلقار برقا. وعندما رفضت الحكومة مطاليبهم أشعلوا لهيب الثورة بين الليبيين. فاسندت القيادة الى هاميلقار فتمكن من القضاء على الثوار عام ٢٣٨ ق.م.

ولما تمكنت قرطاجة من القضاء على الثوار في شمال افريقيا ثارت حامية سردينيا على قرطاجة في عام ٢٣٩ ق.م، وعرضت على الرومان أن تسلمهم الجزيرة، رفضوا العرض في البداية ثم قبله مجلس الشيوخ في عام ٢٣٨ ق.م وأرسل قوة رومانية إحتلت الجزيرة. فاحتجت قرطاجة وشرعت في اعداد حملة ضد مرتزقتها الخارجين على طاعتها. لكن مجلس الشيوخ الروماني اعتبر ذلك عملاً عدائياً من جانب قرطاجة وأعلن الحرب ضدها الا اذا آثرت السلم بشرط أن:

ـ تتنازل عن سردينيا وقورسيقا.

ـ تدفع تعويضاً إضافياً قدره ١٢٠٠ تالنت ـ حوالى ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني ـ فاضطرت قرطاجة الى قبول شروط السلم. وبذلك صار البحر التيراني بحيرة رومانية.

يكمن وراء سياسة روما وتصرفاتها في هذه المسألة أمران:

الأول: السياسة الاستعمارية التي انتهجتها روما منذ استيلائها على اغريغنتوم.

الآخر: بطلان الزعم القائل بأن روما تتوخى العدل والانصاف في معاملاتها مع الدول الأخرى.

وفي عام ٢٢٧ ق.م، وضعت روما الممتلكات التي كسبتها خارج ايطاليا وقسمتها الى ولايتين Provinciae كانت احداهما تشمل صقلية كلها ما عدا ممتلكات الملك هيرو في سراقوسة. والأخرى تشمل جزيرتي سردينيا وقورسيقا معاً. ولهذا السبب زيد عدد البرايتورس الى أربعة ليتولى اثنان منهم حكم هاتين الولايتين.

ب ـ المرحلة الثانية ٢١٨ ـ ٢٠٢ ق.م.

ـ قرطاجة تدعم مركزها في اسبانيا

شعر القرطاجيون بالذل تجاه ضم روما لجزيرتي سردينيا وقورسيقا اليها، فراحت تُعد العدة للثأر. وفي سبيل الاستعداد لهذه الحرب الثأرية، عملت على تعويض خسائرها. باعادة بناء قوتها في اسبانيا. فأسندت مهمتها الى هاميلقار برقة في عام ٢٣٧ ق.م. ولما كانت اسبانيا تفتقر الى الوحدة، لأن قبائلها يؤلفون وحدات متفرقة غير مترابطة. لذلك كان من السهل اثارة أي قبيلة ضد الأخرى، وبسط سيطرة قرطاجة عليها بالدبلوماسية اكثر منها بالقوة. فاستطاع هاميلقار اخضاع المناطق الواقعة في جنوب اسبانيا حتى وفاته في عام ٢٢٨ ق.م. مؤسساً امبراطورية قرطاجية تعهدها بعده صهره هسدر وبال Hesdrobal ٢٢٨ ـ ٢٢١ ق.م. الذي بسط رقعتها لتمتد حتى نهر الأبرو Ebro شمالاً. ثم أضاف اليها ابنه هانيبال hanibal ما بين ٢٢١ و٢١٨ ق.م. أراضٍ جديدة حتى اصبحت تمتد شمالاً الى ماوراء نهر تاجوس Tagus.

تمكن هاميلقار برقة وخليفتاه هسدروبال وهانيبال من تحقيق موارد دخل جديدة تعويضاً للخسائر المالية التي لحقت بقرطاجة بعد قيام القرطاجيين باستغلال مناجمها. وجمع الأعداد اللازمة من الرجال لمضاعفة القوات القرطاجية. وتدريبها لتكون على أهبة الإستعداد لأي عمل حربي. احتجت ماسيليا لدى الرومان، بسبب صلاتها التجارية القديمة الوثيقة بهم، عندما خشيت على مستعمريتها «رودي» Rhode و«امبوريياي Emporiae الواقعتين على شاطىء اسبانيا الشمالي الشرقي. أرسل مجلس الشيوخ بعثة في العام ٢٣٠

ق.م. للوقوف على نوايا هاميلقار. فصدقت تفسيراته للتساؤلات التي وجهتها اليه، بأنه يهدف من وراء ذلك تأمين موارد جديدة لتستطيع بلاده أن تدفع لروما تعويضات الحرب وقبل عودتها الى روما أخذت منه وعداً بعدم الاعتداء على ساجنتوم Saguntm. وفي عام ٢٢٦ ق.م. أوفدت روما بعثة الى هاسدروبال صهرها ميلقار وخليفته ـ عقدت معه معاهدة[١]، حظرت فيها عليه تخطي نهر الأبرو شمالاً. ولكنها أطلقت يده في كل المناطق الواقعة جنوبي النهر، وإن دلت شروط المعاهدة ان روما لم تكن قلقة من جراء قيام قرطاجة بدعم مركزها في اسبانيا، فمرّد ذلك يعود الى أنها اضطرت الى الاكتفاء بذلك بسبب ارتقابها لغزوة الغال من شمالي ايطاليا واخضاعها اليها.

ـ مسألة ساجنتهم

أسندت قرطاجة القيادة العليا في اسبانيا الى هانيبال بن هاميلقار برقة وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ـ وقد اكتسب ثقة جنوده وورث عن أبيه ضرورة تصفية الحساب مع روما دفاعاً عن كيان وطنه. ورأى أن الحكمة تقضي بانتهاز الفرصة المناسبة لاشعال حرب الانتقام قبل أن تنتهي من حل مشاكلها. وواتته الفرصة حين اشتبكت ساجينتوم مع إحدى القبائل الحليفة لقرطاجة بسبب استقبالها لعدد من المنفيين السياسيين من ساجينتوم. ولما استعد هانيبال لمحاصرة هذه المدينة ناشدت الرومان المساعدة. فبعث السناتو بعثة الى هانيبال في عام ٢١٩ ق.م تحذره من الاعتداء على ساجنتوم، لكن هانيبال أنكر على الرومان حقهم في التدخل في هذه المسألة. إنتقلت البعثة من هناك الى قرطاجة حيث أيدت قرطاجة وجهة نظر هانيبال.

فبادر هانيبال عند ذلك الى محاصرة ساجينتوم والاستيلاء عليها بعد مقاومة عنيفة دامت ثمانية أشهر ـ في خريف سنة ٢١٩ ق.م. ـ فأرسل السناتو ـ مجلس الشيوخ ـ بعثة الى قرطاجة ـ مارس (آذار سنة ٢١٨ ق.م. ـ تطالب بتسليم

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

هانيبال وهيئة قيادته. وعندما قررت الحكومة القرطاجية الوقوف الى جانب هانيبال وتأييده هذه المرة أيضاً. أعلنت البعثة الحرب على قرطاجة. فكانت مسألة ساجينتوم السبب المباشر لنشوب الحرب البونية في مرحلتها الثانية، وإن لم تكن السبب الحقيقي لأن هناك ثلاثة اسباب حقيقية هي[١]:

أولاً: حقد هاميلقار على روما التي أرغمته على تسليم صقلية، فكرس بقية حياته للإنتقام منها، وأورث هذا الحقد لمن أتوا بعده.

ثانياً: غضب قرطاجة على روما للانتقام بسبب سطوها على سردينيا وتجديد تهديدها بالحرب.

ثالثاً: النجاح الذي حققته قرطاجة في اسبانيا.

إذا كان تصرف هانيبال في احتلال ساجونتوم عام ٢١٩ ق.م. يُعتبر خرقاً لمعاهدة عام ٢٢٦ ق.م. التي أعطته الحرية في التصرف في كل المناطق الواقعة الى جنوبي نهر الابرو. فإن تعبئة الرؤوس وشحذ النفوس ضد روما كان هدف هانيبال الأول والأخير الذي لقنه اياه والده منذ صغره.

ـ خطة سير حملة هانيبال

وبعد أن استكمل هانيبال جمع الأعداد اللازمة من الرجال، وتمت له السيطرة على ساجينتوم، قرر القيام بمهاجمة روما في ايطاليا لإعلانها الحرب على قرطاجة، ومطالبتها بواسطة بعثتها الى قرطاجة، في مارس (آذار) عام ٢١٨ ق.م. بوجوب تسليم هانيبال ومجلس قيادته ال روما. وقد زحف هانيبال على رأس جيش مؤلف من أربعين ألف مقاتل، وتسعة الآف من الفرسان، فضلاً عن عدد من الفيلة التي كانت عنصراً من عناصر التشكيل العسكري للجيوش القرطاجية. وقد ترك أخاه هسدر وبال في اسبانيا ليشرف عليها، ويرسل اليه الامدادات بانتظام، وان يلحق به فيما بعد عند الحاجة.

وكان تحرك هانيبال في عام ٢١٨ ق.م. من اسبانيا قاصداً ايطاليا عبر جبال

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/٢٧٢.

البيرينيه (البرانس) التي تكون الحدود الشمالية الشرقية لاسبانيا مع فرنسا، فجنوب فرنسا «غاليا» ليهاجم ايطاليا. يبدو أن خطة سير هانيبال هذه جاءت عن دراية وتفكير في أمور الحرب لأسباب عدة أهمها:

أولاً: ان الاسطول القرطاجي لا يستطيع حمايته وجيشه. إذا حاول ان يذهب به رأساً الى جنوب ايطاليا.

ثانياً: صعوبة نقل ستة الآف فارس بحراً. وكانوا من عداد جيشه أنذاك.

ثالثاً: امكان مقاومة سكان ايطاليا الجنوبية له بسبب ولائهم لروما.

رابعاً: بينما كان الغاليون في شمال ايطاليا على عكس سكان جنوبها. كانت لا تزال تغلي في صدورهم مراجل الحقد على الرومان، فضلاً عن أن بعضاً منهم كان قد التحق مراراً بجيش قرطاجة كجنود مرتزقة.

فاجأ هانيبال، الرومان، بهجومه، في الوقت الذي كان مجلس شيوخهم السناتو، يرسم الخطط لغزو اسبانيا وافريقيا، قاطعاً جبال الألب في خريف عام ٢١٨ ق.م. بعدما كابد ما لا يوصف من المشاق والأخطار لوعورة المسالك، وصعوبة اجتياز الفيلة، الممرات العميقة قبل توسيعها، وتراكم الثلوج، وتساقط الأمطار، وتدحرج الصخور والحجارة الكبيرة على جيشه من قبل أعدائه الايطاليين. فلم يصل بجيشه الى وادي البو إلا بعد أن فقد منه حوالى ستة آلاف مقاتل. وليقاتل في بلاد بعيدة عن بلاده، مع استحالة استقدام النجدات لمساعدته. بسبب تسلط الرومان على البحر، بينما سيقاتل الرومان على أرضهم، وبقوات كبيرة قد تصل إلى مئات الالوف من الرجال، وسط امكانية توالي النجدات المساعدة عند الحاجة. وبالرغم من ذلك فقد ساعد هانيبال على الانتصار عوامل عديدة:

أولاً: اطلاعه الواسع على أرقى الخطط الحربية، وعلى الأعمال الباهرة التي قام بها الاسكندر الاكبر وخلفاؤه من بعده.

ثانياً: لم يكن للقواد الرومان ـ المنتخبين لادارة الاحكام ـ خبرة في الأمور الحربية.

ثالثاً: سرعة المباغتة والانتصار الذي ألهب حماس الغاليين، فوقفوا الى جانبه، وتطوعوا في جيشه.

تمكن هانيبال من: التغلب على القائد الروماني سقيبيو الذي تجرأ على مهاجمة هانيبال عند نهر تقينوس Ticinos في مناوشات جانبية لم تمنع الأخير من عبور البو ومتابعة طريقه، وعندما إنضم سمبرومينوس القنصل الروماني الثاني الى سقيبيو. قام القنصلان بمهاجمة هانيبال بقوات تبلغ ضعف قواته. لكنه ألحق بهما هزيمة ساحقة على ضفاف نهر تريبيا Trebia في كانون أول (ديسمبر) عام ٢١٨ ق.م. مما أدى الى انسحاب الرومان من شمال ايطاليا، وكان لانسحابهم التشجيع الكبير على انضمام الغال الى جانب القائد القرطاجي هانيبال فزاد عدد جنوده الى حوالي ٥٠,٠٠٠ مقاتل.

أمضى هانيبال شتاء عام ٢١٨/٢١٧ ق.م. في تدريب الغال الذين انضموا اليه على القتال لغزو شبه الجزيرة الايطالية في ربيع عام ٢١٧ ق.م. اما الرومان الذين منوا بالهزيمة عند نهر تريبيا فقد اكتفوا بالدفاع مقسمين جيشهم بين القنصلين: فرابط أحد القنصلين عند أريمينوم يسد طريق فلامينيو في وجه القرطاجيين ورابط القنصل الثاني، غايرس فلامينيوس عند أرثيوم Arretium ليحمي أتروريا. غير أن هانيبال تقدم خلف خطوط القنصل الثاني غايوس فلامينيوس عبر جبال الأبنين واستدرجه الى القتال عند بحيرة تراسيمني Trasimene بعدما أخفى قواته. في التلال الواقعة على الجانب الآخر من الطريق بجوار البحيرة. وفي اثناء مرور جيش القنصل فلامينيوس. بهذا الطريق انقض عليه القرطاجيون من كمائنهم من جميع الجهات ومزقه كل ممزق. ووقع القنصل Gaius Flaminiius أسيراً بين يدي هانيبال الذي أمر بقتل كل الرومان الأسرى، وباطلاق سراح الايطاليين معلناً أنه آتٍ لتحرير ايطاليا، وذلك في ٢٢ حزيران سنة ٢١٧ ق.م. واحتل هانيبال ساغونتا Sagonta الأمر الذي جعل المناقشة تحتدم في مجلس الشيوخ الروماني حول الموقف الواجب اتخاذه. فطالب كورنيليوس لينتولس باعلان الحرب، بينما كان عميد المجلس فابيوس ماكسيموس Fabis Maximus من انصار السلم[1] لكن انصار الحرب تفوقوا

---

(١) مصروعه، جورج هنيعل ٢٥٨/١ ـ ٢٦٠ بيروت ١٩٥٩م.

اخيراً، وانهزم سقيبون بوبليسو، امام القرطاجيين، مما أدى الى انقلاب شعوب ايطاليا الشمالية ضد روما التي تراجعت جيوشها اثر سقوط تورينو أيضاً. آثر هانيبال الابتعاد عن روما والذهاب نحو الجنوب الى أبوليا ليتخذ منها قاعدة لنشاطه في اثارة جنوب ايطاليا على روما مع أنه كانت الطريق مفتوحة أمامه الى روما بعد الانتصار الذي حققه على القنصلين مسقيبيو وسميرومينوس. لكنه آثر الابتعاد عنها اعتقاداً منه أن اقتحام أسرار روما يحتاج الى معدات يفتقر إليها مثل ما كان يفتقر الى قواعد مجاورة تمده باحتياجاته، لأن مدن وسط ايطاليا أقفلت أبوابها في وجهه. بينما قامت في مجلس الشيوخ الروماني مناقشة حادة انتهت باختيار محارب روماني محنك يدعى كوينتوس فابيوس ماكسيموس Guintus Fabius Maximus وجعلوه دكتاتوراً، فآلت اليه قيادة الجيش الذي تم جمعه على عجل وارسل نحو الجنوب لمجابهة هانيبال وقطع الطريق عليه أكثر من مرة، بين أبوليا وقمبانيا، قبل أن يستقيل في الشتاء ويحل محله في القيادة قنصلان جديدان بَدَأَا بجمع الجيوش حتى أصبح لهما نحواً من ثمانين ألف مقاتل، وزحفا بها الى الجنوب لملاقاة هانيبال بعد انتخابهما في السنة ٢١٦ ق.م.

وفي ربيع هذا العام، التقى الرومان في سهل مكشوف قرب مدينة قاناي Cannae في أبوليا، بجيش هانيبال الذي أظهر براعة كبيرة أكسبته الاعجاب على مر العصور من غالبية القواد الذين جاءوا بعده. وما أن بدأت المعركة حتى بدأ فرسانه بحركة التفاف سريعة اطبقوا فيها على قلب الجيش الروماني، وعلى مشاتهم في المؤخرة. وقد تلتها مجزرة هائلة دامت بقية النهار. ولم يكد الليل يرخي سدوله حتى كان الجيش الروماني قد أبيد على بكرة أبيه. وامست كل أسرة في روما مرتدية ثياب الحداد على من فقدت من أحبائها. وقيل أن هانيبال ارسل الى قرطاجة مدين من خواتم الذهب التي إنتزعها جنوده من أصابع فرسان الرومان واشرافهم[١]. كما قتل في هذه المعركة حوالى الثمانين من أعضاء مجلس

---

(١) رستم، أسد أوغسطس قيصر وخلفائه ٢٩/١.

الشيوخ الرومان، وأحد القنصلين المدعو اميليوس Aemilius في الوقت الذي لم يخسر القرطاجيون أكثر من ستة آلاف رجل.

ثم هبت مدن جنوب ايطاليا، بعدما فقدت ثقتها بروما، والمدن اليونانية، ومن بينها سراقوسة، وقلبت ظهر المجَن لروما، وانحازت الى جانب هانيبال. ولم يبق في الجنوب أحد مناوئاً له إلا بعض المستعمرات اللاتينية، والرومانية، فضلاً عن انحياز مدينة قابوا ذات الشهرة بمركزها الصناعي الأول في ايطاليا الى جانب هانيبال. وارسل هانيبال الى مقدونيا ممثلين له طالباً مساعدة ملكها فيليب الخامس الذي وعدهما بارسال النجدات[١]. فلو أدرك خلفاء الاسكندر في مصر وسوريا وآسيا حقيقة هذا القتال في ايطاليا. وكان في استطاعتهم ان يتحدوا ضد روما، فلربما كانوا سحقوها الى الأبد.

لكن مجلس الشيوخ الروماني عقد بحنكته السياسية تحالفاً مع اليونانيين، وأوقد نار الثورة في بلادهم على المقدونيين، فمانع هؤلاء من ارسال النجدات الى هانيبال. بينما تمكنت روما بثباتها وحكمتها من المحافظة على ولاء الايطاليين في وسط ايطاليا. واضطرتها الحال أخيراً الى تسليح الأرقاء وصغار الصبيان؛ وتقدمت بهذا النوع من الجيوش لمحاصرة المدن الثائرة التي كانت قبلاً موالية لها. واستولت عليها الواحدة بعد الأخرى، حتى سراقوسة نفسها التي كانت قد انضمت الى قرطاجة بعد معركة قاناي، مع كل ما ابتكرته فكرة ارخميدس، من الحيل الى انقاذها من الحصار الشديد، لم تنج من الوقوع في السنة ٢١٢ ق.م. بين أيدي الرومان، وقتل أرخميدس نفسه.

الملاحظ هنا، ان القائد القرطاجي هانيبال لم يتابع سيره نحو مدينة روما لأسباب ما تزال مجهولة. لكنه ظن أنها ستطلب السلم وتعقد معاهدة بينهما. فجاءت ظنونه في غير محلها هذه المرة، ورفضت روما المفاوضة، وحتى لم تتقدم بطلب افتداء اسراها في الوقت الذي قتل أكثر من نصف جيشها، ووقع في الأسر ربعه. وأخذت الدهشة والذهول مجلس شيوخها، فأتاح الفرصة من

---

(١) مصروعه، جورج هنيعل ٢/٤٤٣.

جديد للرومان ليبدأوا في تنظيم الجيش ولملمة شتاته، وتجنيد الأعداد الكبيرة لأخذ مبادرة الهجوم. فتمكنت روما من احتلال قابوا من جديد عام ٢١٠ ق.م. وصقلية التي كانت قد ثارت على الحكم الروماني بعد موت هيارون Miaroum سنة ٢١٥ ق.م. زعيم سراقوسة الموالي لروما، وكذلك منطقة، قاناي نفسها سنة ٢٠٩ ق.م. ومنع الرومان هسدروبال ـ شقيق هانيبال ـ من اللحاق بأخيه على رأس نجدة كبرى، وكسروه في ايطاليا الوسطى بقيادة كلودوس نيرون، فارتد هسدروبال سالكاً وادي المتورس Metaurus ليعود الى الشمال أو ليتصل بأخيه عن طريق آخر.

واصلت روما استردادها لعدد من المدن الصغرى في سامينيوم وأبوليا. فاستردت في عام ٢٠٩ ق.م. أيضا المدينة الكبيرة تارنتم. وقطعت اتصال هانيبال بالغال. كما حاصرت شراذم جيش هانيبال في أبوليا وحلفاءه اللوقانيين والبورتيي، حتى لا يدعوا له أي أمل في النصر إلا إذا جاءته امدادات من خارج ايطاليا. لذلك اتخذت روما جميع الاجراءات الكفيلة بعدم التقاء الأخوين هانيبال وهسدوربال. وتشاء الصدف أن يأسر القنصل غايوس كلاودوس مبعوثي هاسدوربال الى أخيه ويعرف منهم خط سير النجدة القادمة من الشمال. فيقسم جيشه الى قسمين قسم صغير العدد يتركه في مواجهة هانيبال ويسحب القسم الأكر لينضم الى جيش زميله القنصل ماركوس ليفيوس ليمنع زحف هسدروبال.. وعند ضفاف نهر متاورس Metaurus قضى القنصلان على جيش النجدة في معركة دامية وقع فيها هسدر وبال قتيلاً. وتنفست روما الصعداء في احتفال عظيم بهذا النصر. ثم أبلغت روما نتائج المعركة الى هانيبال بطريقة مفجعة بالقاء رأس هسدروبال داخل معسكر أخيه في ربيع ٢٠٧ ق.م. ليعلن له نبأ الكارثة التي حلت به. وقضت على آماله بعدما كان قد زحف الى روما في السنة ٢١١ ق.م. يحيط به رجال حرسه الخاص الى أن بلغوا أحد أبواب المدينة العظيمة التي كانت لا تزال في أوج مجدها وعظمتها. ووقف خلف اسوارها يتفرس به بطارقتها من فوق اسوارها. لكنهم على ما يبدو لم يبلغوا درجة من الرعب تدفعهم الى التماس الصلح، ولم يرسلوا في طلب شيء على الاطلاق.

ولما لم يكن جيش هانيبال كافياً لمحاصرة أعظم مدن ايطاليا كما ذكرنا، ولا كان في طاقته أن يستقدم الآت الحصار[1]. اضطر والحالة هذه الى الابتعاد عن أسوار المدينة دون أن يقوم بأي عمل حربي، محاولاً السيطرة على جنوبي ايطاليا، وقد ظل في اقليم البروتيي في أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة الى أن صدرت الأوامر اليه بالعودة الى قرطاجة في خريف عام ٢٠٣ ق.م.

وامعاناً في إضعاف شوكة هانيبال، أرسلت روما المدعوبوبليوس كورنيليوس سقيبيو ـ الذي فشل في المعركة على نهر تيكينوس Ticunus، عام ٢١٨ ق.م. أمام هانيبال ـ على رأس قوة رومانية الى اسبانيا للقضاء على استعدادات هاسدروبال فيها، وان كان قد تمكن أخيراً في العام ٢١١ ق.م. من هزيمة الأخوين كورنيليوس وغنايوس سقيبيو اللذين خرا صريعين في ميدان القتال بعدما نجحا في بث الفتنة بين رعايا القرطاجيين، وفي شل يد قرطاجة عن ارسال الامدادات الى هانيبال إذ أنها لو وصلته الامدادات بعد معركة قاناي Cannae لكان لها تأثير كبير في سير الحرب إبان توالي النكبات على روما.

ومع هذا عادت روما واسندت قيادة جيش جديد ارسلته الى اسبانيا الى ابن القنصل القتيل المدعو مثل أبيه بوبليوس قورنليوس سقيبيو حينما ضرب السناتو الروماني بالتقاليد عرض الحائط وأوصى جمعية المثينات باستصدار قانون خاص يضفي على سقيبيو الشاب مرتبة برو قنصل أي نائب قنصل، واسناد القيادة العليا في اسبانيا اليه، فاستأنف أعمال ابيه وعمه في اسبانيا عام ٢٠٩ ق.م. حيث تمكن من السيطرة على قرطاجة الجديدة في الجنوب الشرقي من اسبانيا. ثم تمكن بعد قيام هاسدروبال بحملته الى ايطاليا لتقديم المساعدة الى اخيه هانيبال، أن تابع سقيبيو بنجاح كبير فتح اسبانيا. ولم يأت العام ٢٠٦ ق.م. حتى كانت جميع الممتلكات القرطاجية في اسبانيا قد سيطر عليها الرومان.

وبعد أن انتخب سقيبيو قنصلاً طلب من مجلس الشيوخ، الذي رفض أول الأمر، السماح له بغزو افريقيا، ثم لم يلبث ان وافق على أن يأخذ معه فرقتين من

---

(١) مصروعه، جورج هنيبعل ١/ ٣٥٥ ـ ٣٦٣.

الجيش الروماني المنهزم في معركة قاناي كانتا في صقلية، وأي متطوعين يستطيع جمعهم. وفي عام ٢٠٤ ق.م. نزل سقيبيو على الشاطىء الافريقي قرب أوتيقا Utica حيث قهر جنود قرطاجة مرتين، الأمر الذي جعلها تستدعي على عجل قائدها هانيبال من ايطاليا. وطلبت الصلح الذي وافق عليه الرومان. وعلى الرغم من أن قرطاجة قبلت شروط الصلح التي فرضها الرومان، فإن عودة هانيبال ومعه ١٥٠٠٠ من جنوده المجربين أعاد إليها الثقة وشجعها على خرق الهدنة قبل العمل بشروط الصلح[1]:

وفي صيف عام ٢٠٢ ق.م. التقى عند زاما Zama الجيشان في معركة فاصلة، قابل فيها هانيبال خصمه بجيشه الذي يفتقر الى الاعداد الكافية من الفرسان. فلما تقدم جنوده في حركة التفاف على العدو وجدوا أمامهم سوراً رومانياً من الفولاذ الى أن عاد الرومان من مطاردة القرطاجيين، وهجموا على جناحي هانيبال. فأخذت صفوف جيشه تتساقط أو تنهزم امام الجيش الروماني فما كان منه إلا أن لاذ بالفرار ناجياً بنفسه على أمل العودة تاركاً قرطاجة ترضخ للشروط التالية:

أولاً: تتنازل قرطاجة عن جميع ممتلكاتها ما عدا مدينة قرطاجة ذاتها واقليمها وطرابلس.

ثانياً: تدفع قرطاجة عشرة الآف تالنت ـ مليونين ونصف مليون جنيه استرليني مقسطة على ٥٠ عام

ثالثاً: ان تسلم قرطاجة لروما جميع سفنها الحربية ما خلا عشر سفن.

رابعاً: ان لا تحارب قرطاجة أحداً دون موافقة روما، وان ترد ممتلكات ماسينيا.

جـ ـ المرحلة الثالثة

ذكرنا أنه من شروط معاهدة الصلح التي أبرمت بين روما وقرطاجة في عام ٢٠١ ق.م. شرطان:

---

(١) ول ديوارانت قصة الحضارة ٩/ ٢٢٠ ـ ٢٢٨.

الأول: قضى بألا تخوض قرطاجة حرباً دون موافقة روما مسبقاً.

الثاني: وقضى بأن تعيد قرطاجة الى ماسينياسا ملك نوميديا: كل الممتلكات التي كانت في حوزته وحوزة اسلافه.

كانت روما تعمل على خلق فرصة لتتهم فيها قرطاجة بخرق التزاماتها سواء في الشرط الأول أو الثاني وتشتبك معها في حرب طاحنة. لكن الجماعة التي تسلمت الحكم في قرطاجة بعد الحرب البونية في مرحلتها الثانية كان همها الحفاظ على الوئام والسلام مع روما، والاهتمام بانعاش تجارة قرطاجة وزراعتها. ولم يمض كثير وقت حتى غدت قرطاجة ثانية اكبر مركز تجاري في غرب البحر المتوسط، كما أصبحت أرضها تغل حاصلات وفيرة. مما جعلها في عام ١٩١ ق.م. تعرض على روما أن تدفع لها الأقساط الباقية جميعها دفعة واحدة، وأن تتبرع لروما في العام نفسه وفي عدة مناسبات تالية بكميات كبيرة من القمح دون مقابل.

نظرت روما إلى نجاح قرطاجة والنهوض من عثرتها بعدم الرضى والقلق الشديد الذي مرجعه الحسد والغيرة من ناحية، والخوف من أن تعيد قرطاجة بناء قوتها. مما حدا بالسناتو الروماني الى انتظار الفرصة المناسبة لتدمير قرطاجة نهائياً.

أتاح الفرصة لروما ملك نوميديا ماسينياسا، الذي أخذ يعمل منذ عام ٢٠١ ق.م. على تنشيط تجارة مملكته وتقدم زراعتها ونشر الحضارة الفينيقية في أرجائها على أمل إنشاء امبراطورية له تشمل الأقاليم المعروفة اليوم بالجزائر وتونس وطرابلس، وتكون قرطاجة عاصمة هذه الامبراطورية. ومن أجل ذلك كان دائماً يعمل على زراعة الشكوك والمخاوف عند الرومان إزاء قرطاجة، وكذلك على غزو الاقاليم التي تركتها معاهدة الصلح في حوزة قرطاجة. وكلما شكت ماسينياسا قرطاجة الى روما عن كل اعتداء جديد، كان مجلس السناتو إما يغض الطرف، واما يصدر قراراً في صالح ماسينياسا Massiniasa.

وحدث أن طلب ماسينياسا من قرطاجة السماح له بدخول طرابلس بحجة مطاردة ثائر فرَّ الى برقة. وعندما رفضت هذا الطلب هاجم اقليم طرابلس، واحتل سهل الجفارة، لكنه عجز عن الاستيلاء على مدن طرابلس الثلاث. وبناء

عل شكوى من قرطاجة الى روما، ارسل السناتو حوالى عام ١٥٥ ق.م. بعثة للتحقيق برئاسة كاتو الكبير[١]. عادت البعثة من قرطاجة بتصور عكس ما إدعته قرطاجة، فطالب كاتو بضرورة اعلان الحرب فوراً عليها لتكديسها الأخشاب في الميناء لغرض إعادة بناء الأسطول، وان القوات التي حاربت بها ماسينياسا كانت نواة جيش تعده قرطاجة لحرب الانتقام. الا أن روما عادت وارسلت بعثة جديدة لمراقبة أحوال قرطاجة من جديد. فلم يكن من هذه البعثة إلا أن أوصت قرطاجة بتسليم المدن الثلاث لماسينياسا ودفع تعويض له. مما أثار غضب قرطاجة والقرطاجيين لدرجة ان أعضاء البعثة غادروها هرباً خوفاً على حياتهم.

من جهته كاتو دأب منذ عودته على اختتام كل خطاب ألقاه في السناتو، مطالباً بأن «قرطجنة يجب أن تمحى من عالم الوجود delendor est carthago. وتعاطف روما على ماسينياسا جعله يتدخل في شؤون قرطاجة الداخلية عندما نشب الخلاف بين القرطاجيين عام ١٥١ ـ ١٥٠ ق.م. أدى الى طرد زعماء الحزب الذي يرغب في الاتفاق مع ماسينياسا. فطالب هذا بإعادة المبعدين. الأمر الذي رفضته قرطاجة، وأعلنت الحرب عليه، لكنها منيت بالفشل لأن جيشها غير معد إعداداً كاملاً.

وعلى الرغم من مبادرة قرطاجة على اعدام قوادها العسكريين وارسال بعثة سياسية الى روما، تشكو فيها من تصرفات ماسينياسا، وتلقي تبعات الحرب على قوادها الذين أعدمتهم. لم تحصل البعثة من السناتو الروماني على جواب شاف، وفي اثناء قيام قرطاجة بمراجعة حساباتها والتداول فيما يجب عمله، كان الرومان يكملون استعداداتهم. وبعد أن استلموا أوتيقا في أوائل عام ١٤٩ ق.م. دون قيد أو شرط، أعلنوا الحرب على قرطاجة وأرسلوا جيشاً وأسطولاً الى أوتيقا. في هذا الوقت بالذات وصلت الى روما بعثة سياسية قرطاجية أخرى تعلن الاستسلام دون قيد أو شرط. فأبلغها السناتو بأنه سيسمح للقرطاجيين

---

(١) ول ديوارانت قصة الحضارة ٩/ ٢٢٠ ـ ٢٢٨

وقال كاتو: «يجب ان تمحى قرطاجة من الوجود».

بالاحتفاظ بحريتهم وقوانينهم واقليمهم وممتلكاتهم العامة والخاصة بشرط أن يسلموا ثلاثمائة من أبرز رجالهم رهينة وأن «يطيعوا الأوامر التي يصدرها لهم القنصلان» اللذان عبرا البحر الى أوتيقا على رأس الجيش والأسطول، حيث طلبا تسليم الاسلحة ومعدات الحرب جميعها. ورغبة في تفادي القتال وارضاء للرومان بادرت قرطاجة الى تنفيذ هذا الطلب.

لم يلبث القنصلان إلا أن كشفا عن هدف السناتو، بأن طلبا الى القرطاجيين إخلاء مدينتهم والاستقرار حيثما شاءوا بشرط الابتعاد ستة عشر كيلومتراً عن البحر. رفضت قرطاجة هذا الطلب المجحف وصممت على أن تتحدى الرومان. وأعطتهم فرصة ثانية لمحاربتها بحجة عدم احترامها للوعد الذي قطعته على نفسها بالتسليم دون قيد أوشرط، بعد أن أعطتهم أولاً حجة عدم احترامها معاهدة الصلح. بدأ العمل في قرطاجة بجد ونشاط زائدين في دعم اسوار المدينة واستحضار الاسلحة واعداد الجيش اللازم الذي اعتمدت على الليبيين المجاورين في تكوينه.

اعطت جهود القرطاجيين في العمل المتواصل ليلاً نهاراً، وتحويل جميع المحال والمصانع وكل معبد الى مصنع لانتاج الأسلحة ولوازم الحرب[1]، مما أثار اعجاب الرومان أنفسهم بفضل الجهد الكبير الذي بذلته قرطاجة في آخر لحظة، وآثروا أن يموتوا محاربين على أن يستسلموا. لذلك لم تكن المرحلة الثالثة من الحرب البونية سهلة، بل كانت سلسلة من الحملات العنيفة استغرقت أربعة أعوام. لم يتمكن الرومان طيلة العامين الأولين ١٤٩ و١٤٨ ق.م. من أن يحاصروا المدينة دون ان يخرقوا حصونها المنيعة. ولم يكن حصارها فعالاً قبل عام ١٤٧ ق.م. عندما انتخب الضابط الشاب بوبليوس قورنليوس سقيبو أيميليانوس Puapilius Cornelios Emilianos.Seipio قنصلاً وأعطي القيادة العامة بمقتضى قانون خاص، لكونه غير مؤهل لتولي منصب القنصلية، فلم يدخر جهداً في اعادة تنظيم القوات الرومانية ورفع معنوياتها بحيث استطاع ان يهزم

(١) ايوب، ابراهيم رزق الله محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية ص: ٣٨.

القرطاجيين في الميدان، ويضيّق الخناق على المدينة المحاصرة الى ان تمكن أخيراً من اقتحامها في ربيع عام ١٤٦ ق.م. والاستيلاء عليها بعد قتال مرير في الشوارع والمنازل على الرغم مما حل بالمواطنين من تعب شديد بسبب شراسة القتال والجوع وتناقص قواتهم يوماً بعد يوم، وسط النيران المشتعلة في الأبنية. وبعد ان هلك كل المدافعين عن المدنية، هدمها الرومان وجعلوا أرضها سهلاً زرعوه بالملح. ووزعت أراضيها على الفلاحين الرومان لقاء ضريبة، أو بيعت للملاكين الكبار، أو ضمت لقاء رسم معين. ثم بيع من تبقى من سكان قرطاجة الذين بقوا على قيد الحياة، وكانوا حوالى ٥٠,٠٠٠ نسمة. وحُول اقليمها الى ولاية جديدة دعيت «ولاية افريقيا Provineia Africa وجعلت أوتيقا مقر حاكم هذه الولاية.

٤ ـ نتائج الحرب البونية

أ ـ لم تكن نتيجة الحروب البونية القضاء على قوة قرطاجة واقامة ولاية افريقيا فحسب. بل أدت بطريق مباشر أو غير مباشر الى السيطرة على القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط. إذ استطاع الرومان بعد المرحلة الأولى من الحرب السيطرة على أولى الولايات الرومانية في صقلية. ومدوا النفوذ الروماني الى مناطق أخرى في صقلية إثر المرحلة الثانية من حروبهم. إذ استطاع القائد الروماني سقيبيو Scipio ان يكسب تأييد ملك نوميديا ـ الجزائر ـ التي أصبحت بعد ذلك ولاية رومانية على يد ماريوس Marius سنة ١٠٧ ق.م. الذي جرد لحربها حملة كان من نتائجها ضم مملكة مجاورة لنوميديا هي مملكة موريتانيا ـ مملكة مراكش وجمهورية موريتانيا حالياً ـ والتي أصبحت في عام ١٠٦ ق.م. هي الأخرى احدى الممالك التي تدين بالتبعية لروما.

ب ـ وكان من نتائج المرحلة الثانية من تلك الحرب أن استولت روما على الممتلكات القرطاجية في اسبانيا حتى تستطيع بذلك أن تحمي نفسها من أي هجوم آخر محتمل على ايطاليا من القواعد القرطاجية في اسبانيا كما حدث في بداية المرحلة الثانية التي انتهت بمعركة زاما.

جـ ـ لم يكتف الرومان بالاستيلاء على القواعد القرطاجية في اسبانيا بل أرادوا تأمينها من الجانبين البحريين: الشرقي والغربي لاسبانيا. فخاضوا حربين طويلتين امتدت احداهما من سنة ١٩٧ ق.م. الى سنة ١٧٩ ق.م.، والثانية من سنة ١٥٤ ق.م. الى سنة ١٣٣ ق.م. عانوا فيها من شراسة العدو في تلك المناطق، إلا أنهم انتصروا في النهاية على هؤلاء الذين افتقروا الى العمل الموحد، الى جانب شدة المراس في القتال، فسيطر الرومان بذلك على كل شبه جزيرة ليبيريا.

د ـ واستطاع الرومان في هذه الحرب ان يضعوا اقدامهم في غالة عن طريق التحالف الذي تم بينهم وبين مدينة ماسيليا ـ مارسيليا ـ وهي مستعمرة يونانية، عندما طلبت من روما سنة ١٢٥ ق.م. المساعدة ضد هجمات القبائل الغالية الواقعة الى شمالها. وقد لبت روما طلب المساعدة وأحرزت انتصارات رومانية سريعة على القسم الشرقي للمنطقة التي تعرف الآن بفرنسا وأصبحت هذه المنطقة «ولاية» من الولايات الرومانية. وهكذا لم يأت عام ١٢٠ ق.م. حتى كان القسم الغربي للبحر المتوسط قد أصبح يدين بالتبعية والولاء لروما.



الفصل الثامن

روما تبسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط في النصف الثاني من عهد الجمهورية

أتمت روما، في النصف الثاني من عهد الجمهورية، احتلالها وتوحيدها لكامل شبه جزيرة ايطاليا، وتحقيق فتوحاتها الخارجية، ما بين عامي ٢٦٤ و١٣٣ ق.م. فبسطت سيادتها على البحر الأبيض المتوسط في حوضه الغربي وأجزاء واسعة من حوضه الشرقي.

ولما كنا قد مررنا في الفصل السابع على أحداث الحرب البونية بمراحلها الثلاث والنتائج التي أدت اليها هذه الحرب في فصل كامل، ننتقل الآن الى الحديث عن الحرب مع الغال في شمال ايطاليا والحرب مع مقدونيا.

١ ـ الحرب مع الغال في شمال ايطاليا: ٢٢٥ ـ ٢٢٢ ق.م.

اوقفت القبائل الغالية في شمال ايطاليا إغاراتها على شبه الجزيرة الايطالية بعد الاشتباكات التي وقعت، في اوائل القرن الثالث قبل الميلاد بينها وبين الرومان. واخذت تعمل على مدى نصف قرن تقريباً في الزراعة والرعي. ولم تستغل الفرصة لإشغال روما بحروبها مع بوروس أو مع قرطاجة. لكن على أثر انتهاء الحرب البونية في مرحلتها الأولى عاودت قبائل البويي Boii في عام ٢٣٦ ق.م. مهاجمتها الفاشلة أريمينوم. وألحقتها بتحالف ضم أربع قبائل غالية تحالفت معاً بزعامة قبيلتين من هذه القبائل وهما: قبيلتا الأنسوبرس والبويي، فضلاً عن عدد كبير من المغامرين النازلين «غالين ترانس البينا Gallia Transalpina.

زحف هذا التحالف الغالي، في عام ٢٢٥ ق.م.، على شمال ايطاليا بجيش يقدر بحوالى ٧٠,٠٠٠ مقاتل. إزاء هذا الزحف الغالي تحركت روما

لمواجهة هذا الخطر بحشد من مواطنيها ومن حلفائها قدر بحوالى ١٣٠,٠٠٠ مقاتل. وما ان وصل الغاليون في زحفهم الى اتروريا عبر ممر جبلي لم تكن عليه حراسة اخذوا يسلبون وينهبون. لكن الرومان فاجاؤهم بالاطباق عليهم وأرغموهم على الانسحاب نحو الشاطىء حيث كانت لهم بالمرصاد قوة بحرية رومانية قادمة من سردينيا رابطت شمال تلامون Telamon لتقطع عليهم طريق العودة. حيث اشتبكوا مع الرومان في معركة فقدوا فيها معظم قواتهم بين قتلى وأسرى.

بعد ذلك قرر الرومان فتح شمال ايطاليا للتخلص نهائياً من خطر الغال ولتكون جبال الألب حدود المناطق الايطالية التي يسيطرون عليها.

يكسب الايطاليون منطقة تعادل بمساحتها شبه الجزيرة الايطالية. وكان بذلك حافز الرومان على هذا الهجوم أمران.

الأول: نجاح الرومان في القضاء على هجوم الغال على شمال ايطاليا في عام ٢٢٥ ق.م.

الثاني: تطور الأحداث الجارية في اسبانيا لصالح الرومان فضلاً عن قوتهم العسكرية.

تمكن الرومان من انتصارهم في العام ٢٢٤ ق.م. على احدى القبيلتين الغاليتين المتزعمتين للتحالف الغالي، وهي قبيلة البويي حيث أرغموها في الاقليم الواقع جنوبي نهر البو ـ المعروف باسم «غاليا قيس بادانا» Gallia Gispadana أي بلاد الغال ـ على الاستسلام. باستثناء ليجوريا التي لم تشترك مع الغال في حربهم ضد روما، فتركت وشأنها وفي عام ٢٢٣ ق.م. تمكن الرومان من تحقيق نصر آخر على الزعيمة الثانية لتحالف القبائل الغالية، وهي قبيلة الأنسوبرس بقيادة غايوس فلامينيوس G. Flaminuis ليستسلموا في العام التالي على أثر مقتل زعيمهم في مبارزة مع قلاوديوس مارقلوس Marcellus وارداه قتيلاً.

وفيما بين عامي ٢٢١ و٢١٩ ق.م. بسط الرومان سلطتهم على كل المنطقة الواقعة شمالي البو باستثناء اعالي البو. وتأميناً لمركزهم في شمال البلاد أنشأوا

في عام ٢٢٠ ق.م. طريقاً معبداً ضخماً يمتد من روما الى أريمينوم هو طريق فلامينيوس Via Falminie. كما أنشأوا في اقليم انتزعوه من الأنسوبرس مستعمرتين لاتينيتين هما بلاقنتيا Placentia وقرمونا Cremona جنوبي البو وشماليه على التعاقب.

ثم أنشأ الرومان طريقاً معبداً آخر هو طريق أورليا Via Aurelia يمتد من روما بمحاذاة شاطىء اتروريا حتى بيزاي Pisae، وأقاموا قاعدتين بحريتين احداهما عند لونا Luna والأخرى عند جنوى. وهكذا أصبح شمالي ايطاليا باستثناء أغلب ليجوريا وأعالي وادي البو تحت السيطرة الرومانية.

٢ ـ الأوضاع في شرق البحر المتوسط

في خلال ربع القرن الذي اعقب معركة زاما اكتسبت روما في شرق البحر المتوسط مكانة تعادل المكانة التي اكتسبتها في غرب هذا البحر بانتصارها في المرحلتين الأولى والثانية من الحرب البونية. ويعود تدخل روما في شرق البحر المتوسط وسيطرتها عليه سريعاً الى الاوضاع التي كانت قائمة في العالم الهلينستي عند نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. لذلك سنستعرض في ايجاز أحوال أهم الدول الهيلينستية وهي دولة البطالمة ودولة السلوقيين ومقدونيا.

أ ـ دولة البطالمة

كان الهدف الاساسي للبطالمة الثلاثة الاوائل هو بناء دولة غنية قوية، لذلك وضعوا نصب أعينهم أمرين[1]:

الأمر الأول: هو حكم مصر حكماً مطلقاً تسانده حراب جنودهم الاغريق، واستغلال موارد البلاد الى أقصى حد لصالح حكامهم، وفرض سلسلة من الضرائب.

---

(١) دولي، دونالد حضارة روما ص: ٣٤ ـ ٦٠ ترجمة جميل يواقيم الذهبي وفاروق فريد دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦١ م
عبد الوهاب، لطفي اليونان ص: ٨٩ ـ ١٠٦

الأمر الآخر: هو بناء امبراطورية بحرية تكفل لهم تأمين سلامة دولتهم، وسد حاجات مصر من الاخشاب والمعادن، وزيادة ثروتهم تبعاً لرواج التجارة والاستيلاء على منافذ طريقين رئيسيين من طرق التجارة القادمة من الشرق الأقصى. والاتصال الوثيق بالعالم الاغريقي وبخاصة إيجه.

وقد بلغت امبراطورية البطالمة أقصى اتساعها في عهد بطلميوس الثالث ٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م. فكانت تشمل الى جانب مصر قورينايه وقبرص وفينيقيا وجنوب سوريا وعدد من الاقاليم المطلة على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وشاطىء تراقيا حتى مارونيا فضلاً عن جزر بحر إيجه.

ثم أهمل بطلميوس الثالث جيشه واسطوله، الى درجة انه عندما توفي في عام ٢٢١ ق.م ضعفت مصر كثيراً. وطمع الملك انطيوخوس الثالث في الاستيلاء على جنوبي سوريا في عهد بطلميوس الرابع الذي كان جيشه يتألف من المرتزقة الذين استؤجروا من الخارج، وأولئك الذين حشدوا من الإغريق المقيمين في مصر، ومن المصريين الذين دخلوا في الجيش البطلمي بأعداد قاربت الـ ٢٠,٠٠٠ مقاتل مصري شكلوا قلب هذا الجيش الذي هزم الجيش السلوقي في معركة رفح عام ٢١٧ ق.م.

تُعَد معركة رفح الحد الفاصل بين دولة البطالمة في اقصى اتساعها وأوج مجدها، والعهد الذي اضمحلت فيه هذه الدولة فتزعزع سلطانها في الداخل وفقدت املاكها في الخارج، وزوال استقلالها، ويعود ذلك إلى امرين أو سببين:

السبب الأول: وهو داخلي يكمن في ضعف السلطة المركزية واضطراب شؤون الحكم وبدوره يرتكز على ثلاثة عوامل:

أ ـ قيام الثورات الداخلية بعد عام ٢١٦ ق.م في وجه الحكم الجائر

ب ـ وصول ملوك ضعاف مستهترين واما صبية صغاراً تلاعب بهم الأوصياء أو الوزراء، فكان ذلك مشجعاً لذوي المطامع للاستقلال والانقضاض.

جـ ـ ظهور روح التنافس واستحكام النزاع بين افراد اسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس السادس ١٨٠ ـ ١٤٥ ق.م

السبب الآخر: في الوقت الذي ضعفت فيه دولة البطالمة ظهرت على مسرح السياسة الدولية ثلاث قوى طموحة هي: الامبراطورية السلوقية والدولة المقدونية والجمهورية الرومانية.

ب ـ دولة السلوقيين

كانت الدولة السلوقية (او السورية) اضخم الممالك الهلينستية من حيث الاتساع وعدد السكان، وبعد البطالمة من حيث الثراء، وكانت بابل نواة هذه الدولة التي تأسست بفضل جهود سلوقس الأول لتمتد حدودها شرقاً الى البنجاب، وغرباً الى البحر حيث شملت اغلب آسيا الصغرى وشمال سوريا لتكون على صلة وثيقة بالعالم الإغريقي. لذلك جعل السلوقيون انطاكية على نهر العاصي عاصمة لهم. وقد تقاتلوا مع البطالمة من اجل الاحتفاظ بجنوب سوريا وشواطىء آسيا الصغرى واحتفاظاً بموارد ضخمة وإنشاء اسطول كبير يحمي تلك الأقاليم.

لكن اتساع الامبراطورية السلوقية كان سبب ضعفها والسيطرة على الولايات البعيدة من مقر السلطة المركزية في انطاكية، فضلاً عن اعتماد السلوقيين في جيشهم على المرتزقة والنزلاء الإغريق في نواحيها والمدن الإغريقية التي كان قد انشأها الاسكندر الأكبر. ومع هذا لم تنجح هذه المدن الإغريقية في نشر الثقافة الإغريقية وربط اجزاء الامبراطورية بعضها ببعض. ولم تُضعف الامبراطورية السلوقية الثورات التي قامت في الأطراف الشرقية فقط، بل النزاع الأسري الذي عرفه السلوقيون منذ وقت مبكر.

فأصاب الامبراطورية السلوقية تفكك شديد حوالى العام ٢٢٠ ق.م، الا ان الامبراطور انطيوخوس الثالث تمكن بكفايته ونشاطه من انقاذ الامبراطورية. بتحالفه مع اتالوس ملك برجام ومحاربته ابن عمه أخايوس ٢١٦ـ٢١٥ ق.م، حتى ٢١٣ ق.م واسترداد معظم الممتلكات السورية في آسيا الصغرى. وفي عام ٢١٢ ق.م قام انطيوخوس بحملة كبرى قضت على الثورات في فارس وميديا وأعاد وحدة الامبراطورية. ولُقب فور عودته من حملته تلك بـ «الملك الأكبر».

جـ ـ مقدونيا

كانت مقدونيا أصغر الممالك الهلينيسية الثلاث من حيث المساحة والثروة وعدد السكان، لكنها تمتاز عن الدولتين الأخريين بالترابط والتقاليد العسكرية والروح المعنوية وولاء المواطنين لحكامهم القوميين الذين حافظوا على التقاليد والنظم العسكرية التي وضعها فيليب الثاني وعمل الاسكندر الأكبر على تنظيمها وتنميتها.

كافحت مقدونيا من اجل الحفاظ على بحر ايجه. لكن هذه الدولة لم تستطع الاحتفاظ الا بتساليا والجزء الشرقي من بلاد الإغريق حتى برزخ قورنثه. ووقف ضد سيطرة مقدونيا على بلاد الإغريق الوسطى والجنوبية عصبتي: ايتوليا وآخايا وأسبرطه. لكن المنافسة القوية بين الدول الإغريقية أدت الى انحياز عصبة آخايا الى جانب مقدونيا. فتمكنت هذه الأخيرة من انزال الهزيمة الفاصلة بأسبرطه في عام ٢٢٢ ق.م وتكوين عصبة كبرى من أغلب بلاد الإغريق الوسطى والبلوبونيز بزعامة مقدونيا. وقد ورث فيليب الخامس هذه الأوضاع وحافظ عليها بانتصاره في الحرب على مقدونيا ٢١٢ـ٢٠٦ برغم تحالف برجام وروما ضدهم.

ومع هذا فقد أدرك فيليب الخامس انه يتعذر عليه الوقوف في وجه الرومان دون أسطول وموارد كافية، وان بلاد الإغريق أفقر من أن تمده بما يحتاج، وأنها لن تهب لنصرته بعدما سلبها حريتها. فيمم شطر الشرق بعد بنائه اسطولاً كبيراً مكنه من السيطرة الجزئية على بحر ايجه عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

وفي سبيل تحقيق طموحه بالسيطرة على بحر ايجه، عقد فيليب الخامس الصلح مع الرومان في عام ٢٠٥ ق.م، ثم لجأ الى القرصنة للقضاء على قوة اعدائه وبخاصة رودوس وممتلكاتها في بحر ايجه. فنجح في السطو على عدد من الجزر والمدن الآسيوية عن طريق القرصنة في تخريب موارد رودس البحرية. وفي عام ٢٠٥/٢٠٤ ق.م أثار حرباً بين كريت وروودس. استطاع اسطوله الذي انزله في بحر ايجه ان يقف في وجه اسطول رودس وبرجام.

يتبين من عرضنا الموجز للأوضاع في شرق البحر المتوسط ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تسرب الضعف الى احدى الدول الثلاث قبيل القرن الثاني قبل الميلاد، وان الدولتين الأخريين كانت لهما اطماع متضاربة، ولهما اعداء في الداخل والخارج.

الأمر الثاني: انه يوجد في العالم الهلينسي إلى جانب هاتين الدولتين القوتين كانت هناك قوى أخرى هي مملكة برجام في آسيا الصغرى وجزيرة رودس، وعصبة ايتوليا شمالي خليج قورنثا، وعصبة آخايا جنوبي هذا الخليج.

الأمر الثالث: كانت لهذه القوى في منطقة شرق البحر المتوسط، وبخاصة برجام ورودس اهداف تتعارض وأطماع انطيوخوس الثالث وفيليب الخامس. مثل ما كانت أطماع انطيوخوس تتعارض واطماع فيليب، إذ كان كل من هذين الملكين يطمح بالاستيلاء على أكبر جزء ممكن من امبراطورية البطالمة.

٣ ـ الحروب المقدونية

بدأت روما توجه انظارها نحو السيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط في البدايات الأولى للمرحلة الثانية من الحروب القرطاجية. إذ قد ظلت روما قبل هذه الحرب لسبب او لآخر بعيدة عن الاهتمام بما يجري في الدول المتأغرقة المتأثرة بالحضارة الهلينسية، التي قامت بعد انهيار امبراطورية الاسكندر الكبير على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

أ ـ الحرب ضد فيليب الخامس

بدأت الحرب بين روما ومقدونيا عندما أقام فيليب الخامس ملك مقدونيا بمناورة تهدف الى التدخل، الى جانب القرطاجيين، مؤملاً ان يشارك في نتائج النصر الذي كان يقدر أن هانيبال بن هاميلقار برقة سيحرزه على الرومان. لكن الرومان استطاعوا ـ كما رأينا قبلاً ـ عن طريق اسطولهم ان يحولوا دون وصول اية مساعدات فعالة من جانب فيليب الخامس الى هانيبال.

كما لم ينسَ الرومان، محاولة ملك مقدونيا فيليب الخامس السيطرة على بلاد

اليونان، وتطلعه الى فرضها على جميع السواحل في الشرق والغرب أيضاً، في الوقت الذي اصبحت روما سيدة إيطاليا. فاضطرت ازاء هذه المطامع، لتأمين الملاحة في بحر الادرياتيك، الى الوقوف في وجه قرصان أليريا واكرهتهم على الرضوخ لمشيئتها. ثم منعتهم عن الإبحار الى جنوب ايسوس Essus وفرضت حمايتها على المدن اليونانية في دلماتيا. وفي السنة ٢١٩ ق.م ضمت جزيرة فاروس Farrus الى ممتلكاتها بعد ان فرَّ صاحبها ديمتريوس إلى مقدونيا طالباً حماية فيليب الخامس. ولولا خطر قرطاجة، واندلاع الحرب بينهما - المرحلة الثانية في ٢١٩ ق.م - لما تأخرت روما من الاقتصاص من ديمتريوس ومن فيليب ايضاً[1]. وفي السنة ٢١٦ ق.م أصبح فيليب حليف هانيبال عدو روما اللدود فزاد اهتمام روما بمطامع فيليب وعقدت معه معاهدة عدم اعتداء في السنة ٢٠٥ ق.م عُرفت باسم «معاهدة فونيكي».

وبالرغم من ذلك لم يأمن الرومان جانبه، وانتهزوا فرصة العداء الذي بدأ يزداد بين مدينة رودس وملك برجام Pergam - في آسيا الصغرى - من جهة، وبين فيليب الخامس ملك مقدونيا من جهة أخرى. فأصغى شيوخ روما الى نداءات الاستغاثة التي اجمع الرودسيون على توجيهها الى روما بموافقة اتلوس ملك برجام، عندما بعثوا برسلهم وكتبهم يستنصرون شيوخ روما في صيف السنة ٢٠١ ق.م، ويصفون اليهم ما اصابهم على يده من المحن، وما تمَّ بين فيليب ملك مقدونيا وانطيوخوس الملك السلوقي في آسيا الصغرى من تحالف للسيطرة على شرقي المتوسط. لكن الرومان لم يَبتوا في الأمر بحضور الرسل مباشرة.

وتنفيذاً للاتفاق بين فيليب الخامس وانطيوخوس الثالث بدأ كل منهما في احتلال جزء من ممتلكات الدولة البطلمية. ففي حين غزا انطيوخوس الجزء الجنوبي من الدولة. قام فيليب الخامس بالانقضاض على مدن تقع على ضفاف

---

(١) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليب المقدوني الى الفتح الروماني ص ٩٤ منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت ١٩٦٩.

الدردنيل والبوسفور، فأخضع لوسيماخيا Lysimachia وخلقدونيا Chalcedom وقيوس Ceos حليفات عصبة أيتوليا، واستولى ايضاً على جزيرة تاسوس Thasus في طريق عودته الى مقدونيا.

أثار فيليب الخامس باعتدائه على تلك المدن الآمنة غضب انطيوخوس وبخاصة لاستيلائه على لوسيماخيا التي يدعي لنفسه حقوقاً عليها، وكذلك غضب ايتوليا لاستيلائه على حليفاتها، كما أهاج غضب جزيرة رودس التي رأت في استيلائه على مضائق البوسفور والدردنيل خطراً يهدد تجارتها، فعدته عدواً لها وأخذت تستعد لمحاربته.

ثم استأنف فيليب نشاطه العسكري في ربيع العام التالي ٢٠١ ق.م في بحر ايجه وعلى شواطىء آسيا الصغرى، فاستولى على عدد من الجزر التي كان أهمها جزيرة ساموس، وفرض سيادته على تيوس Teos وحاصر خيوس Chios فأفزع رودس وبرجام واتحدتا ضده برغم انهما كانتا عدوتين. التقت اساطيل الفريقين في موقعة كبيرة، ولكنها لم تكن حاسمة حيث هزم اسطول فيليب الخامس بالقرب من خيوس. لكنه بعد قليل عاد والتقى بأسطول رودس عند لادي Lade وألحق به هزيمة اضطرته الى الانسحاب جنوباً. واستولى فيليب على مليتوس Melitus ثم ترك اسطوله يهاجم الجزر الصغيرة التابعة لرودس، بينما ذهب هو الى برجام عله يستولي عليها. فخيبت امله، وإنصرف عنها الى قاريا Caria واستولى على عدة مدن هناك منها ملاطية وميوس Myus في البر.

وعندما أراد ان يعود الى مقدونيا في شتاء ٢٠١/٢٠٠ ق.م. حاصرت برجام ورودس قواته البحرية والبرية. ومع ذلك تمكن من فك الحصار ومتابعة طريقه الى مقدونيا لمواجهة الأخطار التي احاطت به إزاء استنجاد برجام ورودس بروما على الرغم من العداوة بينهما. وروما التي كانت منهمكة في محاربة قرطاجة حتى عام ٢٠٢ ق.م لم تحفل قبل ذلك بالأحداث الجارية في شرق البحر المتوسط الى أن اجتذبت اهتمامها نداءات دولة البطالمة وبرجام ورودس.

فانتهز السناتو الروماني الفرصة عقب النصر الروماني في موقعة زاما. ليشتبك مع فيليب قبل أن يقوي نفسه، وقبل أن يفرغ انطيوخوس من مشاغله

ويتحالفا معاً ضد روما. وقرر إعلان الحرب على فيليب بحجة اعتدائه دون مبرر على برجام حليفة روما. ولما عُرض رأي السناتو على جمعية المثينات قررت رفضه في أول الأمر، ولم توافق عليه في اجتماع ثانٍ الا بعد اقناعها بأن على الرومان ان يتوقعوا قيام فيليب بغزو إيطاليا اذا هم لم يسبقوه بغزو مقدونيا.

وفي ربيع عام ٢٠٠ ق.م أوفد الرومان بعض السفراء الى بلاد الإغريق عقب عودة فيليب بقليل، وأثاروا عدداً من المدن الإغريقية ضده، وأبلغوا احد قواد فيليب إنذار روما الذي يتضمن عدم محاربة اية مدينة اغريقية ودفع تعويضات كافية لبرجام. لكن فيليب لم يأبه بالرد على الانذار وإنما سارع الى اتخاذ الخطوات لمواجهة الحرب مع روما. ومضى هو نفسه الى شاطىء تراقيا وشبه جزيرة غاليبولي وعبر الدردنيل وحاصر أبيدوس. وقبيل سقوط هذه المدينة قدم اليها احد السفراء الرومان لينهي إلى فيليب إنذاراً جديداً بعد موافقة جمعية المثينات في روما صيف عام ٢٠٠ ق.م على إعلان الحرب على فيليب بشكل انذار يتضمن الى جانب المطلبين الواردين في الانذار الأول مطلبين آخرين. وهما: دفع التعويضات لرودس، وعدم المساس بالممتلكات المصرية. وكلفت البعثة، الرومانية الموجودة في رودس وجوب ابلاغ الإنذار الى فيليب شخصياً، فاسندت هذه المهمة الى احد اعضائها. مرقوس إيميليوس لبيدوس Marcus Aemilius Lepidus. رفض فيليب استلام الإنذار ورد على لبيدوس بأنه إذا كانت روما مصممة على عدم احترام المعاهدة بينهما، فإنه سيدافع عن نفسه بحماية الآلهة[1].

وفي خريف عام ٢٠٠ ق.م نزل جيش روماني، استجابة الى نداءات الاستغاثة من اصدقائهم في بحر ايجه، براً في ابلونيا Apallonia في أليريا. وقوة بحرية رومانية في مياه اثينا، بقيادة القنصل سولبيقيوس Sulpicius مدعياً انه يدافع عن حرية الدويلات اليونانية. فهب الاتيوليون ثم الآخيون الى مساعدة الرومان في السنة ١٩٩ ق.م. ومع هذا لم يتمكن الرومان من تحقيق اي نصر في

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٣٠٧.

هذا العام على فيليب الخامس. وبوصول تيتوس فلامينيوس احد قنصلي عام ١٩٨ ق.م، أرغم فيليب على الانسحاب من أبيروس الى تساليا، بسبب عدم قدرته على تجييش عدد كاف للصمود في وجه الرومان وحلفائهم بعد الحروب الكثيرة التي خاضتها مقدونية. واضطر الى أن يفاجيء أحياناً فيضرب خصمه ضربة قوية، ثم يراوغ ليتملص من الوقوع في قبضته[١]. وعندما استؤنف القتال في صيف عام ١٩٧ ق.م في تساليا وحصروا فيليب الخامس بين شدقي كماشة كبيرة عند تلال كونوس كيفالاي Cynocephalae او رؤوس الكلاب. إنهزم فيها جيش فيليب الخامس انهزاماً كبيراً وفرَّ فيليب الى مقدونيا طالباً الصلح. وبالرغم من أن الايتوليين وباقي خصوم فيليب من الإغريق طالبوا بغزو مقدونيا والقضاء عليها قضاء تاماً، فإن الرومان رفضوا هذا الطلب لعدة اعتبارات، كان أهمها: إذا كان من صالح الرومان اضعاف مقدونيا الى الحد الذي لا تكون فيه خطراً عليهم، فإنه لم يكن من صالحهم في ذلك الوقت القضاء عليها. لأن وجودها كان يكفل وجود حاجز منيع يقي بلاد الإغريق ليس فقط من القبائل المتبربرة التراقية والألورية وكذلك القبائل الغالية النازلة في وادي الدانوب الأدنى، بل أيضاً انطيوخوس امبراطور الدولة السلوقية الذي كان يخشى بأسه.

وتبعاً لذلك عقدت معاهدة صلح بين الطرفين من شروطها[٢]:

أولاً: إعطاء الحرية والاستقلال لجميع اليونانيين في أوروبا وآسيا.

ثانياً: إخلاء جميع المدن اليونانية التي له فيها جنود قبل موعد الألعاب الكورنثية.

ثالثاً: تسليم جميع سفنه الحربية الكبيرة والصغيرة ما عدا خمساً فقط.

رابعاً: تسليم روما تعويضاً مالياً عن الحرب مقداره الف تالنت - حوالى ربع مليون جنيه استرليني - في مدة لا تتجاوز العشر سنوات.

---

(١) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ٩٧ - ٩٨.

(٢) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني: ٩٨.

خامساً: تسليح جيش لا يزيد تعداده على خمسة آلاف جندي، شريطة ألا يسمح باقتناء الفيلة، وألا يدخل في حرب خارج مقدونيا الا بإذن روما.

سادساً: يرسل فيليب الخامس ابنه الأصغر ديمتريوس الى روما ليبقى فيها رهينة. لم يكن في وسع فيليب الخامس إلا ان قبل هذه الشروط في عام ١٩٦ ق.م. ثم أصبح حليفاً لروما. لكن هذه المعاهدة لم تكن مجرد معاهدة صلح بقدر ما كانت إعلاناً بأن روما هي حامية حمى الإغريق وانذاراً موجهاً الى انطيوخوس.

وعندما أعلن فلامينيوس ـ عندما أقيم في عام ١٩٦ ق.م حفل الألعاب في كورنثة او ألعاب البرزخ Isthmia حيث يؤمه المتبارون من كل انحاء العالم ـ عن حق الإغريق في أن يتمتعوا بحريتهم وأن يحكموا وفقاً لقوانينهم المتوارثة دون أن تلزمهم روما بدفع الجزية لها أو بإيواء اية حاميات من قبلها. هللت لهذا الإعلان اغلب الدول الإغريقية. لكن هذه الفرحة لم تطل إذ أعقب التهليل رد فعل مضاد للرومان لأنهم جعلوا من أنفسهم أوصياء على بلاد الإغريق.

وفي عام ١٩٥ ق.م دعا فلامينيوس مندوبين عن الدول الإغريقية للتباحث في أمر تحرير أرجوس من قبضة نابيس Nabis ملك اسبرطة. وقد عقد المؤتمر في قورنثه حيث وافق الجميع على القيام بحملة لتحرير أرخوس. وفعلاً تمّ تحرير أرجوسد وهزيمة نابيس. لكن فلامينيوس رفض أيضاً فكرة مطالب الحلفاء الإغريق بالقضاء على أسبرطة. فراعهم حل المشاكل من وجهة نظر الرومان، وكذلك اسناد الحكم في الدول الإغريقية الى ارستقراطية محلية اختيرت بعناية تامة. ولكي يخفف من اثر ذلك اقنع فلامينيوس السناتو الروماني في عام ١٩٤ ق.م بضرورة سحب القوات الرومانية من بلاد الإغريق، والتي تم سحبها مكتفين بعقد المعاهدات والتنظيمات التي وضعت. وتبعاً لذلك اعتبر الرومان بلاد الإغريق منطقة نفوذ رومانية تولوا تسوية مشاكلها وتنظيم شؤونها بحسب وجهة نظرهم وتمتع الإغريق بحريتهم. على أن يثبت الإغريق انهم حلفاء أوفياء يقفون في وجه اي

إعتداء بحريتهم. على أن يثبت الإغريق انهم حلفاء أوفياء يقفون في وجه أي اعتداء على روما يحاول القيام به فيليب الخامس او انطيوخوس أو الإثنان معاً.

ب ـ الحروب ضد انطيوخوس الثالث

اضطر الرومان إلى محاربة انطيوخوس الثالث الذي حاول استرجاع ما فقدته اسرته من السلطة في آسيا الصغرى وتراقيا. فأوفد في شتاء السنة ١٩٨ ـ ١٩٧ق.م وفداً يطمئن روما ويؤكد لها اخلاصه وولاءه. وفي الوقت نفسه، كان يعد العدة للعمل الحربي في الشمال. وفي ربيع عام ١٩٧ ق.م أرسل ابنه انطيوخوس وسلوقوس على رأس قوة برية إلى قليقية. بينما أبحر هو بمئة بارجة ومائتي سفينة أخرى الى مياه هذه المنطقة نفسها وأخذ يحاصر إحدى مدن بامفوليا Pamphylia. أوفدت رودس إليه وفداً، بإيعاز من روما، يذكره بوجوب احترام حرية المدن اليونانية واستقلالها، ويهدده باللجوء إلى العنف إن هو حاول إجتياز المياه الخليقدونية[1].

رأى انطيوخوس أن يفاوض روما مرة ثانية. فأرسل وفداً في السنة ١٩٥ ق.م الى فلامينيوس يقترح اعادة النظر في جميع النقاط موضع الاختلاف. فرفض القائد الروماني، ولم يستمع الى الوفد. وصادف ذلك فرار هانيبال من قرطاجة الى صور ـ البلد الأم ـ ثم انتقل الى انطاكية في صيف السنة ١٩٥ ق.م، ومنها تابع سيره الى اخوس ليلتقي بإنطيوخوس ويتفقا على محاربة روما. فخشيت روما سوء العاقبة وسحبت جنودها على نحو ما ذكرنا من اليونان لتحتفظ بصداقة اليونانيين وتأييدهم في حال صحة توقعاتهم في تعاون انطيوخوس الثالث وهانيبال ضدها. فكان لهذا الجلاء أثر طيب في نفس انطيوخوس الثالث، إذ بدا له ان روما لن تنفذ مطالبها بالقوة. فعاد في السنة ١٩٤ ق.م الى المفاوضة مؤكداً انه لن يسمح لعدو روما ان يجره الى قتالها. وكان مجلس السناتو قد أوكل امر المفاوضة الى فلامينيوس. فوجده الوفد السلوقي أقل

---

(١) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ص ٩٨.

عناداً بكثير مما كان عليه قبلاً، وانه مستعد لاطلاق يد انطيوخوس في جميع أنحاء آسيا شرط ألا يتدخل في شؤون أوروبا. لكن الوفد أصر على الاحتفاظ بحقوق انطيوخوس الموروثة في تراقيا فلم يتوصل المفاوضون الى حدٍ مرض.

ومع هذا ظلت روما على خشيتها من امكانية قيام هانيبال بحرب، يخوضها الى جانب انطيوخوس، ستكون أعظم بكثير من امكانياته السابقة، وذلك لتوفر الرجال والمال في آسيا. فأرسلت روما وفداً ليكون على بينة من أمرها. فانتقل الوفد من برجام الى أباميا فوجد انطيوخوس غائباً عنها يقود حملة على الاسبرطيين فانتقل منها الى أفسس. وفي صيف السنة ١٩٣ ق.م دار البحث مجدداً في هذه المدينة للوصول الى تفاهم نهائي. فأخفق مؤتمر افسس في الوصول الى حل بسبب اشراك روما لممثلين عن أزمير وليساكوس وغيرها من مدن آسيا الصغرى الذين عرقلوا سير المفاوضات بنظر انطيوخوس الثالث لاعتباره إياهم من رعاياه. وبالتالي لا يحق لهم المفاوضة والوقوف الى جانبه، وسافر الوفد الروماني عائداً الى بلاده دون أن يوجه اي إنذار الى انطيوخوس.

وإن كان انطيوخوس لم يبغ الحرب، ولم يرغب في السعي اليها، إلا أنه أُجبر مكرهاً على اختيار الحرب، بعدما تسلم في العام ١٩٣ ق.م دعوة من الإيتوليين يرجونه فيها أن يتزعم حركة التحرر من ظل روما وحلفائها. ورأت حاشيته الرأي نفسه، وحضّوا سيدهم على الحرب. كما ان هانيبال لا يزال قريباً من انطيوخوس يسأل تزويده بعشرة آلاف مقاتل من المشاة وألف فارس ومئة بارجة، مؤكداً له انه اذا ما تيسر له الوصول بهذه القوات الى قرطاجة، فإنه سيتمكن من اشعال الثورة في افريقيا ومن غزو ايطاليا نفسها بعد حين. ولكن انطيوخوس استصعب هذه الخطة، ورأها بعيدة المرام، صعبة التحقيق، مكلفة كثيراً. ولم يتحمس لها كثيراً لأنه لم يكن يكره روما كره هانيبال لها. وجل ما كان يتوخاه اشغالها في حروب جانبية في أوروبا. كما أزعجته في حروب هامشية بآسيا[1]. وفي مطلع السنة ١٩٢ ق.م صمم انطيوخوس على التدخل في شؤون اليونان بأوروبا. وأعلن عن عزمه هذا الى تواس Thoas الأيتولي

(١) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ١٠٠.

المفاوض، وطلب اليه ان يعود الى بلاده، ويطلع الحلف الأيتولي على ذلك. ولم يكتف بهذا التشجيع بل أمر مينيبوس Menippos سفيره بروما. أن يرافق تواس وأن يشجع الايتوليين على الحرب. فوقف مينيبوس خطيباً في اجتماع الحلف الايتولي آخر آذار من سنة ١٩٢ ق.م وأكد استعداد سيده بالتعاون مع الحلف في سبيل الحرية والاستقلال. فهلل المجتمعون واغتبطوا واتخذوا قراراً دعواً فيه انطيوخوس الى انقاذ اليونان من الشقاق والتخاذل، والى تسوية الخلاف بينهم وبين روما[1].

وبعد هذا بقليل فاجأ الايتوليون ديمترياس Demetrias وخلقيس واسبرطة بهجوم خاطف، تمكنوا فيه من احتلال ديمترياس. فضمنوا بذلك رقبة جسر لانطيوخوس في حال وصوله الى اليونان. ثم وجهوا اليه دعوة رسمية، رجوه فيها ان يهب لتحرير اليونان. فحشد عندئذٍ انطيوخوس عشرة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة فارس وستة أفيال ومائة بارجة ومائتي نقالة، واقلع بهذه القوات والقطع البحرية من مياه الدردنيل يرافقه هانيبال. فنزل بجيشه في ديمترياس، ثم سار منها الى لاميا Lamia المركز الايتولي، فوصلها في أواخر تشرين الأول اكتوبر من السنة ١٩٢ ق.م. فتمكن انطيوخوس من السيطرة على بلاد اليونان الوسطى، قبل ظهور جيوش روما. الا انه لم يلاقِ ترحيباً لا في العودة ولا في بلاد اليونان الشمالية.

ولما علمت روما بعبور انطيوخوس الى بلاد اليونان، ارسلت في تشرين الثاني/ نوفمبر قوة صغيرة الى اليبرية لتراقب بها تحركات فيليبوس. وبعد ذلك بأربعة اشهر جاء اكيليوس غلابريو Acillus Glabrio بعشرين الف مقاتل من المشاة وألفي فارس وخمسة عشر فيلاً. فوصل اكيليوس بجيشه هذا في أواخر نيسان/ ابريل عام ١٩١ ق.م محاولاً اختراق الخطوط السلوقية عند ممر تيرموبيلي Oeta-Thermopylae، لكنه اعيد على أعقابه فاشلاً. فرأى ان يلتف حول ميسرة انطيوخوس ليتحاشى بذلك هزيمته. وبعث بكاتو Cato مع الفي مقاتل، الى

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ٣١٣/١.

التلال في غربي تيرمبولي، وأمره بالسير ليلاً. فتمكن كاتو من اختراق صفوف السلوقيين. فذعروا ودبت الفوضى في صفوفهم، وولوا هاربين. ونجا انطيوخوس بخمسمائة مقاتل، وركب البحر عائداً الى آسيا في أواخر العام ١٩١ ق.م، تاركاً حلفاءه الغادرين ليلقوا جزاءهم من الرومان(١).

وقد بقي الايتوليون وحدهم في المعركة بين الجيش الروماني من جهة وجيش فيليب من جهة ثانية فطلبوا الصلح. لكنه عندما طلب منهم الرومان التسليم بدون قيد أو شرط، رفضوا وقرروا متابعة القتال منفردين الا ان الرومان لم يقوموا بأي عمل حاسم ضد الايتوليين بسبب انشغالهم في ملاحقة ومحاربة انطيوخوس الى آسيا الصغرى.

حاول انطيوخوس فور عودته الى أفسس حشد جيش يصمد به عند المضائق بعدما تأخر عن ملاحقته اكيليوس الذي ألهاه الايتوليون بحروب جانبية. بينما هبَّ القائد السلوقي بوليكيسينيداس Polyxenidas الى قتال الاسطول الروماني الذي وجهته روما في صيف السنة ١٩١ ق.م الى مياه ايجه لتساند اسطولي برجام ورودس، وذلك قبل انضمام الوحدات الروديسية اليه، فانتصر عليه وتمكن من اضافة بوارج جديدة بحيث اصبح عدد البوارج السلوقية تسعين بارجة. ثم التقى بولكيسنييداس بوحدة بحرية روديسية عند ساموس Sames فحطمها شرط تحطيم.

ودارت المعركة بين الاسطول السلوقي والاسطول الروماني بالقرب من تيوس Theos، يساعد الأخير اسطول رودوس بقيادة اقداموس ecdamos حيث شغله عند مسيرته بمناوشات جانبية مكنت الأسطول الروماني من الانقضاض على قلب الأسطول السلوقي في المعركة التي دعيت مينيوس Myonnnesus أصبحت روما بنهايتها سيدة البحر فسيطرت عليه سيطرة تامة. وذلك في شهر ايلول من السنة ١٩٠ ق.م(٢).

---

(١) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ١٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٣.

في حين كانت روما سيرت ثلاثين الفاً عبروا مقدونية ثم تراقيا بقيادة لوقيوس قورنيليوس سكيبيو Lucius Cornellus Scipio وبإشراف سكيبيو افريقانوس قاهر هانيبال. وكان انطيوخوس قد انسحب من تراقيا، بعد موقعة مينيوس البحرية، وحشد خمسة وسبعين الفاً، انما ينقصهم التدريب الكافي. ولم يمض وقت طويل حتى وصل الرومان الى الدردنيل، وعبروه في تشرين الثاني من السنة ١٩٠ ق.م، ثم توقفوا عن المسير شهراً كاملاً. وفي اثنائها كتب انطيوخوس الى سكيبيو افريقانوس يسأله التفاوض مظهراً استعداده للتخلي عن تراقيا وعن جميع المدن اليونانية في آسيا التي كانت قد دخلت في حماية روما، مضيفاً انه مستعد مشاطرة روما كل ما كانت قد أنفقته على الحرب. لكن سكيبيو فضَّلَ الحرب، فكانت موقعة مفنيسية Magnesia-ad-Sipylum الشهيرة في كانون الثاني سنة ١٨٩ ق.م التي كادت تدور الدائرة على الجيش الروماني ويخسر الحرب سقيبيو لولا قيام أخمينيس الثاني ملك برجام بهجوم معاكس على ميسرة انطيوخوس فنجح في ذلك واخترق قلب وميسرة جيش الأخير. فأرغم على رمي السلاح، والقبول بمعاهدة صلح بينه وبين روما. ووقع صلح «أباميا» التي في فريجيا، وقبل شروطها التي تنص على ما يلي[1]:

أولاً: يتخلى انطيوخوس عن جميع المدن في أوروبا وآسيا الصغرى حتى جبال طوروس الشمالية.

ثانياً: يدفع لروما خمسة عشر ألف تالنت - حوالى ثلاثة ملايين وثلاثة أرباع مليون جنيه استرليني - يدفع خمسها عاجلاً والأربعة أخماس بمدى اثنتي عشرة سنة.

ثالثاً: يسلم الى الرومانيين افياله وسفنه الحربية ما خلا عشراً.

رابعاً: يرسل الى روما عشرين رهينة من جملتهم ابنه انطيوخوس، كما يسلمهم هانيبال.

وبمقتضى هذه المعاهدة التي أبرمت من الطرفين في عام ١٨٨ ق.م سمح

(١) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ١٠٣.

لسفن انطيوخوس المتبقية ان تُبحر شرقي رأس ساربدونيوم Sarpedonium في قيليقيا فقط، وأن يخوض اية حرب لصد عدوان عليه إذا هوجم شرط ألا يبسط سيادته على من يقهرهم او يعقد معهم معاهدات صداقة، وأن تقوم روما بالفصل في هذه المنازعات. كما سمحت روما لانطيوخوس بالاحتفاظ بولايتي قيليقيا الغربية وجنوب سوريا، وهما اللتان انتزعهما من بطلميوس الخامس، بينما لم تسمح لبطلميوس باسترداد شيء من ممتلكاته المسلوبة.

جـ ـ الحرب ضد بروسيوس بن فيليب الخامس ملك مقدونيا

أجلت روما جنودها عن آسيا الصغرى، واقتسمت رودس وبرجام ممتلكات انطيوخوس في آسيا الصغرى. فجعلتا نهر Macander المنيدر حداً فاصلاً بينهما. ولجأ هانيبال الى بروسيوس الأول في آسيا الصغرى ملك بثينية، فجعله قائداً على جيشه، وحارب برجام بمواهبه في العام ١٨٦ ق.م. لكن إلحاح روما في العام ١٨٣ ق.م على بروسيوس بوجوب تسليم هانيبال اليها. آثر البطل القرطاجي السُم على إذلاله في شوارع روما وانديتها[١].

ولم يكد ربع قرن يمر على انتصار الرومان على فيليب حتى عادت مخاوفهم من جانب مقدونية تتجسد مرة أخرى. فشن الرومان هجوماً على برسيوس Persius ابن فيليب الخامس وخليفته. انتهى في ٢٢ حزيران سنة ١٦٨ ق.م بتغلب القنصل الروماني باولوس اميليوس Palus Aemilus على المقدونيين في معركة حاسمة في بيدنا ـ مقدونيا ـ عقد على أثرها الصلح في امفيبوليس Amphypulus الذي نص على:

أولاً: تقسيم مقدونيا الى اربع جمهوريات مستقلة عن بعضها وعدم تحالفها او التعامل معاً.

ثانياً: تحكم هذه الجمهوريات مجالس تتمثل فيها كل المدن.

ثالثاً: تدفع كل جمهورية جزية سنوية، مقدارها مئة تالنت.

ثم أصبحت اخيراً مقدونيا ولاية رومانية في العام ١٤٦ ق.م بعدما نشبت

---

(١) رستم، اسد تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ١٠٤.

الحرب بين الآخيين والاسبرطيين، والتي انتصرت فيها روما على اسبرطة فاصلة بين الطرفين، فاحتلتها ونهبتها، وضم الرومان أرضها الى الأراضي الرومانية العامة.

د ـ اخضاع المدن اليونانية

ذكرنا قبلاً ان الرومان تركوا الحرية للمدن اليونانية، فلم يتدخلوا في شؤونها، وتركوها تدبر أمرها بنفسها. فكانت هذه فرصة لكي تنضم هذه المدن الى بعضها بعض وتكوّن اتحاداً يونانياً. ولكن هذا الاتحاد لم يعمر طويلاً، لأن المدن اليونانية لم تلبث بعد اندحار مقدونيا، ان عادت مرة أخرى الى ما عرف عنها من النزعة الانفصالية. وأخذت كل من هذه المدن، تعادي الأخرى وتستنجد بروما في نزاعها.

فحاولت روما مراراً ان تفض هذه النزاعات عن طريق تسوية دبلوماسية بين هذه المدن. ولكن مجهودها في هذا السبيل ذهب هباء. ولم يُؤدِ الى نتيجة، حتى اصبحت هذه النزاعات بطريق غير مباشرة مصدر خطر لروما نفسها. فوجه الرومان في السنة ١٤٦ ق.م بقيادة القنصل موميوس Mummius حملة ضد مدن الجامعة الآخية، التي تحدتْ سلطة الرومان تحدياً مباشراً، باجتياح بلاد الإغريق الوسطى، فقضت على هذه الجامعة التي جمعت بين بعض المدن اليونانية بانهزام جيشها هزيمة كبيرة، بعد استبسالهم في القتال ضد قوات تفوقهم عدة وعدداً.

عندئذٍ قرر السناتو ان يعاقب قورنثه على اعتدائها السابق على السفراء الرومان، وأن يجعل منها عِظَةً وعبرة لبلاد الإغريق جميعاً. فأمر القنصل موميوس بنقل كنوزها الى روما، وهَدم مبانيها وإشعال النار فيها وبيع من بقي على قيد الحياة من مواطنيها عبيداً في سوق النخاسة.

ووضع الرومان بلاد الإغريق تحت اشراف حاكم ولاية مقدونيا، واعطوه صلاحيات للفصل في المنازعات والحفاظ على النظام والأمن ومعاقبة المناهضين للرومان عقاباً شديداً. وحلوا جميع الأحلاف اليونانية مثل: الجامعة الآخية، او البويوتيين، او الفوقايين. وفرضوا الجزية على المدن التي اسهمت في مناصبتهم العداء. واسندوا الحكم الى الطبقات الثرية في اغلب المدن. وحظروا التعامل

بين اغلب المدن. فأصبح العالم اليوناني، كما كان في بداية تاريخه مجموعة من المدن المنفصلة والمنعزلة. وفقدوا دورهم في السياسة الدولية.

وبانتصار الرومان على المدن اليونانية (الاغريقية) اخيراً نستطيع القول: ان الدور السياسي التاريخي الذي قامت به هذه المنطقة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط قد انتهى، وحصلت المدن اليونانية، حقيقة على السلام الذي لم تعرفه في تاريخها، ولكنها فقدت استقلالها بصفة نهائية. وعلى الرغم من ان الرومان سيطروا سيطرة سياسية قوية على المدن اليونانية، وأدخلوها في دائرة التبعية الرومانية إلا ان الثقافة والحضارة اليونانية هي التي سيطرت في جميع أرجاء الأمبراطورية الرومانية.

الفصل التاسع

أوضاع النظم السياسية في النصف الثاني من عهد الجمهورية

اتسع نطاق الأمبراطورية الرومانية اتساعاً كبيراً في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وإن هذا الاتساع كان وليد مقتضيات الظروف التي فرضته، ولم يكن ابداً نتيجة لسياسة مرسومة مسبقاً. وهم عندما اندفعوا أمام تيار الأحداث لم يدركوا تمام الإدراك حجم المسؤوليات التي يمكن ان تنجم عن الممتلكات الجديدة. لذلك أبطأوا في تقدير ردود الفعل وما قد يحصل من آثار على أحوال الرومان الداخلية.

فقد كان طبيعياً ان يلازم الفتوحات وتأمين الحماية المباشرة، وإستغلالها وجمع ضرائب الجزية او الخراج من غياب العدد الكبير من المواطنين عن بلادهم، وبالتالي عن الجمعيات التشريعيات باختلاف مستوياتها ومسؤولياتها. كما كان طبيعياً ان يواكب تلك الفتوحات زيادة الثروة، وزيادة عدد العبيد الأسرى - اسرى الحروب - كما كان متوقعاً ان ترتد على الرومان نتائج فساد حكمهم في الأقاليم الجديدة وفساد إدراكه في الولايات، والشطط في استغلالها على نحو ما حصل في المدن اليونانية. وإزاء عجز الرومان عن مواجهة التبعات الملقاة على عاتقهم، وتكيفهم مع الأوضاع الجديدة للفتح، كان تاريخ القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية - كما سنرى لاحقاً - عبارة عن سلسلة من الأزمات المتتابعة. وعلى الرغم من التعديلات التي أدخلوها في خلال تلك الفترة على نظام حكمهم، فإنها جاءت دون المستوى المطلوب مما أدى الى فشلهم فشلاً ذريعاً في مواجهة الظروف الجديدة والآثار المنعكسة على المجتمع الروماني فنتج الأزمات التي هددت الجمهورية الرومانية وأدت الى سقوطها.

١ ـ التعديلات في النظم السياسية والإدارية والقضائية والمالية.

أ ـ النظم السياسية والإدارية

لم تطرأ تعديلات كثيرة وذات شأن يُذكر على النظم السياسية في الدولة الرومانية، لأن السناتو قد قرر قبل المرحلة الثانية من الحرب البونية العزوف عن الالتجاء الى إقامة دكتاتور في وقت الأزمات، حتى يكون ذلك حاجزاً يمنع وصول اي حاكم الى منصب مطلق الصلاحية فترة أطول من الشهور الستة التي كان الدستور الروماني حددها لمدة حكم الدكتاتور. ومع هذا لم يتخذ السناتو الخطوات الكفيلة بإلغاء منصب الدكتاتورية ذاته.

ففي منصب البرايتورية، تقرر في حوالى عام ٢٤٢ ق.م ان ينتخب سنوياً برايتور ثانٍ، الى جانب البرايتور الوحيد آنذاك، ليشرف على الفصل في القضايا التي يكون أحد طرفيها أو كلاهما من الأجانب. لذلك سُمي برايتور الأجانب Praetor peregrinus. بينما في عام ٢٢٧ ق.م تقرر أن ينتخب سنوياً برايتوران آخران ليتوليا حكم ولايتي صقلية وسردينيا. وفي عام ١٩٧ ق.م تقرر ان ينتخب سنوياً ستة برايتورس، يتولى البرايتوران الآخران حكم ولايتي اسبانيا الدانية والقاصية ـ القريبة والبعيدة او الداخلية ـ وبقي معمولاً بهذا العدد من البرايتورس حتى أوائل القرن الأول قبل الميلاد في حين تقرر اطالة مدة القناصل والبرايتورس السابقين في حكم الولايات، بينما ازداد عدد الكوايستورس تبعاً لزيادة عدد الولايات.

وإذا كان الرومان قد لجأوا الى فكرة إطالة مدة ممارسة الحكام للسلطة التنفيذية العليا من أجل أن يتولوا الحكم في الولايات، فإنهم لم يلجأوا الى إتباع الأسلوب ذاته، بإطالة مدة حكمهم في روما نفسها. حتى انهم عمدوا بعد المرحلة الثانية من الحرب البونية الى إحياء قانون قديم يعود الى القرن الرابع قبل الميلاد، كان يشترط انقضاء مدة عشر سنوات حتى يجوز اعادة انتخابه قنصلاً للمرة الثانية. أما في عام ١٨٠ ق.م فقد عملت روما بتراتبية جديدة للوظائف العامة. عندما أصدرت قانوناً Lex Villia اصبح تولي الوظائف بحسب الأهمية على الشكل التالي: الكوايستورية فالبرايتورية فالقنصلية.

وإذا كان القانون الروماني لم يلحظ وظيفة الأيديلية ووظيفة التريبونية في سلك الوظائف العامة. فإن الراغبين في دخول هذا السلك كانوا يحرصون على تولي هذه الوظيفة. فشاغلي وظيفة الأيديلية كانوا يشرفون على الحفلات العامة التي تعد فرصتهم الذهبية للاتصال بالشعب واكتساب رضاء الجماهير بالإكثار من الحفلات العامة دون الاكتفاء بجمع المبالغ المخصصة لهذا الغرض من الدولة. أما بالنسبة الى وظيفة التريبونية العامة، فإن متوليها كان يطمح من وراء شغلها اكتساب رضاء جماهير الشعب عن طريق استخدام السلطات الواسعة التي يتمتع بها، وعن طريقها يخدم مصالح هذا الشعب.

في حين كانت وظيفة القنسورية ـ وفقاً للعادة المتبعة ـ كان لا يجوز ان يشغلها إلا مَن تولى القنصلية.

وحدد قانون تنظيم شغل الوظائف العامة ألا تقل سن من يتولى الكوايستورية عن الثامنة والعشرين من عمره، وأن تمضي عليه سنتان من شغل اية وظيفة حتى يحق له تولي وظيفة اخرى عامة. وتبعاً لذلك فإنه كان لا يحق لأي شخص تولي منصب القنصلية قبل بلوغه الرابعة والثلاثين من عمره. وفي حوالى عام ١٥٠ ق.م صدر قانون جديد حدد السن المفروضة لتولي وظيفة القنصلية بإثنين وأربعين عاماً على ألا يُعاد انتخاب شخص لتولي القنصلية. ولما كانت القوانين المرعية الإجراء قبل عام ١٥٣ ق.م لا تسمح للقنصلين الجديدين بتولي منصبيهما الا في ١٥ آذار (مارس) من كل عام، تقرر، إزاء الظروف العسكرية المستجدة في اسبانيا، تقديم العمل بصلاحيات القنصل الى الأول من كانون الثاني (يناير) من كل عام حتى يستطيع القنصل الوصول الى ميدان القتال في وقت يسمح له بالإستعداد لهذه الحملة في الربيع.

هذا من الناحية التنظيمية السياسية، أما من الناحية الإدارية لم يعد مسموحاً، في خلال القرن الثاني قبل الميلاد، الاستغناء عن جهاز حكومي من الإداريين المحترفين. فزودت مكاتب الحكام بموظفين دائمين من الكتاب والمحاسبين الذين جرى اختيارهم من المعتقين الذين الفوا جهازاً حكومياً اختلف اختلافاً بيناً عن فئة الحكام.

وابتداء من عام ٢٤١ ق.م زيد عدد القبائل الريفية ـ خارج روما ـ من ٢١ قبيلة الى ٣١ قبيلة. وبقي عدد القبائل داخل مدينة روما أربعاً. وتبعاً لذلك عندما كانت تنشأ مستعمرات جديدة أو تمنح حقوق المواطنة الرومانية لمجتمعات جديدة. كان مواطنو هذه المستعمرات والمجتمعات يندمجون في عداد أي قبيلة من القبائل الريفية بحسب تعداد تلك القبيلة. وتصبح عضوية القبيلة وراثية بصرف النظر الى تغيير مكان إقامة المنتسب إليها.

وزيادة عدد القبائل الى خمس وثلاثين قبيلة بعدما سيطرت روما على اراضٍ واسعة خارج ايطاليا، وتدفقت عليها الأموال والثروات ترتبت عليه نتيجتان:

- **النتيجة الأولى**: زيادة عدد الوحدات الانتخابية في جمعية القبائل لأن كل قبيلة كانت تعتبر وحدة انتخابية.
- **النتيجة الأخرى**: تعديل تكوين جمعية المئينات.

فقد تغيرت مقاييس الثروة وتوزعت الطبقات على أسس ومعطيات جديدة. كما توزعت المئويات توزيعاً جديداً وبالتساوي باستثناء الطبقة الأولى التي بقيت لها مئويات الفرسان. وكانت لكل طبقة مئويتان: مئوية للشيوخ (فوق ٤٥ سنة) ومئوية للشبان (فوق ١٧ سنة). وقد كان عدد الشبان ضعف عدد الشيوخ في المئوية. وتغير مقياس الثروة في توزيع الشعب على الطبقات بعد الاصلاحات التي أجراها القنسور غايوس فلامينيوس في عام ٢٢٠ ق.م استتبع تقسيماً للطبقات كما يلي[١]:

- الطبقة الأولى: وهي التي تزيد ثروتها على مليون آسوس As
- الطبقة الثانية: وهي التي تزيد ثروتها ثلاثمائة الف آسوس As
- الطبقة الثالثة: وهي التي تزيد ثروتها على مائة ألف آسوس As
- الطبقة الرابعة: وهي التي تزيد ثروتها على خمسين الف آسوس As
- الطبقة الخامسة: وهي التي تزيد ثروتها على اربعة آلاف آسوس As

---

(١) انظر توزيع الشعب على الطبقات بحسب الثروة في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية من خلال تطور نظم الجمهورية الرومانية ـ الفصل الخامس من هذا الكتاب.

ويمكن ان نضيف الى تعداد هذه الطبقات طبقة سادسة. تتألف من المعدودين برؤوسهم Capite Censi أي الذين لا يملكون إلا ذواتهم، ويدعون أيضاً بروليتاريا Proletarii اي الذين يقدمون للدولة أولادهم فقط. وهذه الطبقة مؤلفة من أصحاب المهن المحتقرة، بنظر البطارقة، والتي تشمل: الزبالين والسيافين والممثلين والسماسرة والمرتزقة. وليس لهذه الطبقة سوى مئوية واحدة. والجدير بالملاحظة في هذا التقسيم انه يمكن ان تتمثل الطبقات بأجمعها في كل قبيلة. وأن لكل طبقة من طبقات المجتمع الخمس المذكورة أعلاه مئويتان.

وبذلك أصبح عدد المئينات ٣٧٣ مئينة موزعة كما يلي:

- في كل طبقة مئويتان.
- والطبقات خمس = ٥×٢ = ١٠ مئويات أو مئينات.
- والطبقات متمثلة في كل قبيلة فيصبح عدد المئينات:

٣٥ × ١٠ = ٣٥٠ مئوية

- والفرسان ١٨ مئوية
- والموسيقيين والعمال والبروليتاريين ١ مئوية × ٥ طبقات = ٥ مئوية

فالمجموع ٣٧٣ مئوية

ويموجب اصلاحات القنسور غايوس فلامينيوس ايضاً أدخل نظام القرعة لاختيار المئوية الأولى التي تبدأ الاقتراع. على أن تؤخذ في الاعتبار دائماً من مئويات الشبان. ومن الطبقة الأولى خارجاً عن الفرسان، فأصبح لكل طبقة عدد واحد من الأصوات الا الطبقة الأولى التي بقيت لها أكثرية ١٨ صوتاً، فيكون مجموع الأصوات للطبقة الأولى ٩٨ صوتاً من أصل ٣٧٣ صوتاً بينما كان قبل العام ٢٢٠ ق.م ٩٨ صوتاً من أصل ١٩٣ صوتاً. وفي هذا فرق كبير.

ويتم الاقتراع على درجتين:

الأولى: تقترع كل مئوية منفردة ثم تعلن نتيجتها. وتمثل هذه النتيجة بصوت واحد.

الأخرى: يبدأ الاقتراع على أساس المئويات بدءاً بالطبقة الأولى بعد سحب

القرعة على مئوية الشباب التي تباشر بالتصويت ثم تليها بقية مئويات الشباب، فمئويات الشيوخ ضمن الطبقة الأولى. ثم مئويات الشباب فالشيوخ في الطبقة الثانية. وهكذا حتى النهاية.

لكن إذا نال القانون أم المشروع في عملية التصويت الغالبية كانت توقف العملية التي قد تحرم في أغلب الأحيان الطبقة الخامسة، وحتى الرابعة من حقها في الإدلاء بأصواتها. وكان الاقتراع في البدء شفهياً، ثم اصبح في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد كتابياً وسرياً. وطيلة عملية الاقتراع كان العلم يرفرف فوق المبنى حتى إذا ما إختفى يترك الشعب الإقتراع ويهب للدفاع عن المدينة، لأن ذلك معناه الخطر.

ب ـ النظم القضائية

ذكرنا سابقاً انه تقرر، في حوالى العام ٢٤٢ ق.م، أن ينتخب سنوياً بريتور جديد ليشرف في القضايا المدنية التي يكون أحد طرفيها او كلاهما من الأجانب. وعرف شاغل هذا المنصب الجديد بـ «برايتور الأجانب» Praetor Peregrinus. بينما عرف البريتور القديم بـ «برايتور أوربانوس» Praetor Urbanus أي برايتور المدينة الذي اقتصر عمله على المواطنين دون غيرهم. فكان كل من برايتور المدينة أو برايتور الأجانب يرأس هيئة المحلفين ويشرح لها احكام القانون بعد سماع موضوع القضية.

بيد أنه لما كانت أغلب القضايا التي تعرض على محكمة برايتور الأجانب تنطوي على جوانب لم تأخذها في الاعتبار نصوص القانون المدني الروماني ـ Lus Civile سواء في اللوحات الاثنتي عشرة ام في القوانين التالية ـ لذلك كان برايتور الأجانب مضطراً الى الاعتماد على مصادر اخرى. وانطلاقاً من هذا المبدأ صار يعتمد برايتور الأجانب في محكمته على مجموعة قوانين مستمدة من الأعراف السائدة في المجتمعات الإيطالية المجاورة أو ما يمكن تسميته خطأ بالقانون الدولي Lus gentium، وعلى الأحكام التي أصدرها البرايتورس السابقون. وفي حال تطبيق القانون غير الروماني لم يكن برايتور الأجانب مقيداً باتباع الإجراءات التي يشترط القانون الروماني اتباعها. وهو على كل

حال حر في اتباع الطريقة التي يريد في نظر القضية، وفي كيفية تفسير القانون لهيئة المحلفين. وعندما توضحت صورة هذه الإجراءات وتبلورت المحاكمات على أساسها، تمّ اصدار قانون في حوالى عام ١٥٠ ق.م أباح اتباع هذه الطريقة في برايتور المدينة. فأصبحت بالتالي محكمتا البرايتورس اداة تطوير القانون الروماني الخاص.

ولما كان حق الاستئناف محصوراً في الأحكام التي تصدر في روما نفسها تقرر بموجب قانون استصدره التريبون بوبليوس بورقيوس لايقا Papilius Porcius Locea، في عام ١٩٩ ق.م، أن يشمل هذا الحق الأحكام التي تصدر في إيطاليا بأجمعها وفي الولايات. كما إستصدر القنصل ماركوس بورقيوس قاتو Marcus Porcius Cato عام ١٩٥ ق.م قانوناً يحظر جلد المواطنين. وفي عام ١٨٤ ق.م إستصدر قنصل آخر من قبيلة بورقيوس ويُسمى لوقيوس بورقيوس قاتو قانوناً يمنع الضباط العسكريين من اعدام المواطنين دون محاكمة[١].

ولم يبدأ عام ١٩٠ ق.م حتى كان الرومان لا ينفذون عقوبة الإعدام في حق أي مواطن روماني. فإذا ثبت في القضايا التي يتبين ان المتهم قد إرتكب جريمة عقوبتها الإعدام، كان الحكم يؤجل حتى يعطى المواطن فرصة الهرب من روما. وعندما يكون المتهم قد ابتعد مسافة كافية عن المدينة، كانت المحكمة تقضي «بحرمانه استخدام الماء والنار» aquae et Ignis interdictio، وهي الصيغة التقليدية للنفي. وبهذه الحيلة القانونية استبدل النفي بالإعدام في القانون الجنائي الروماني.

وفقد دور جمعية المئينات، بوصفها محكمة استئناف، اهميته، عندما اصبح الحكام الرومان يعزفون عن إصدار عقوبات شديدة على المواطنين الرومان. في حين أن جمعية القبائل استمرت تمارس نشاطها بوصف كونها محكمة عليا للقضايا

---

(١) عن القوانين التي استصدرها افراد من قبيلة بورقيوس راجع -Leges Porcias Biech carcopino, La republique, vol.II, 2 p.144

السياسية. وشهدت في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد عدد غير قليل من المحاكمات التي قام فيها ترابنة العامة باتهام بعض الشخصيات البارزة.

وإقدام الرومان على إنشاء محكمة استرداد الأموال المبتزة Repetendus quaestio de Rebus في عام ١٤٩ ق.م يعتبر خطوة هامة نحو إلغاء القضاء الشعبي. وكانت هذه المحكمة تتألف من رئيس بريتوري الرتبة ومن محلفين، شأنها شأن محكمتي برايتور المدينة وبرايتور الأجانب، إلا أن محلفي المحكمة الجديدة كانوا جميعاً من أعضاء السناتو. وقد أخذت هذه المحكمة تدريجاً تتبع اجراءات تلائم طبيعة القضايا الجنائية التي تفصل فيها. فأصبحت هذه الإجراءات النمط الذي احتذت به المحاكم الجنائية المنشأة فيما بعد، ولما تفشت اعمال الرشوة في الانتخابات فقد أُنشئت محكمة جديدة في خلال القرن الثاني قبل الميلاد، للفصل في مثل هذه القضايا quaestio de ambitus.

والإصلاحات التي أدخلت في مجال القضاء كانت مقصورة على المواطنين الرومان فقط. وأما العبيد والأجانب فإنهم كانوا يحاكمون جنائياً محاكمات عاجلة يفصل فيها اما الترابنة او الأيديلس وإما هيئة ثلاثية من رجال الشرطة Tresviri Capitales. وحين كان الرومان شديدي الحذر والتمهل في معالجة أمر المذنبين من مواطنيهم، كانوا لا يترددون في إصدار الحكم بالإعدام على متهم من غير المواطنين بعد محاكمة عاجلة.

جـ - النظم المالية

أدت الفتوحات الرومانية الخارجية الى ازدياد دخل الدولة الرومانية ازدياداً كبيراً. فمنذ عام ٢٦٤ ق.م. أفادت الدولة الرومانية من هزيمة خصومها الذين كانت لديهم موارد ضخمة من الذهب والفضة. لذلك فإن التعويضات التي فرضتها عليهم تعويضاً عن خسائرها في الحرب. لم يسبق لها مثيل الا غنائم الإسكندر الكبير من الفرس. فضلاً عمّا كانت تجنيه الدولة بانتظام من الولايات على الجزية، وعلى دخل تأجير حق استغلال المناجم والمحاجر والغابات، وكذلك على إيجار الأرض العامة التي وضعت يدها عليها في الولايات.

وبفضل هذه الموارد جميعاً امكن الدولة الرومانية اتخاذ خطوتين رئيسيتين:

الخطوة الأولى: هي اصدار عملة فضية، وفيرة أصبحت العملة الرئيسية في غرب البحر المتوسط

الخطوة الأخرى: هي انها منذ عام ١٦٧ ق.م، لم تعد تجبي من المواطنين الرومان ضريبة الملكية Tributum التي كانت تجبى لمواجهة نفقات الحرب، وكانت بمثابة قرض.

وإذا كانت عائدات الدولة الرومانية قد ازدادت من جراء فتوحاتها الخارجية، فهي كذلك إزدادت نفقاتها بشكل محسوس، لأن تكاليف هذه الحروب استنفدت جانباً كبيراً من موارد الدولة. وفي الحرب البونية بمرحلتها الثانية وقعت الخزانة العامة الرومانية تحت عجز كبير فأثقلتها الديون التي لجأت إليها من المواطنين، لكنها عادت الحكومة، ودفعت الى المواطنين هذه الديون وردت اليهم جانباً من ضريبة الملكية من عائداتها بعد انتهاء تلك المرحلة وبخاصة بعد جعل اسبانيا ولاية رومانية. ولما كانت الدولة، اعتباراً من النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، اكثر من ١٠٠ الف مقاتل في مختلف ميادين القتال، عملت حساباتها لأجل دفع ثمن المؤونة لهؤلاء الجنود جميعاً فضلاً عن التزامها بدفع مرتبات الجنود من المواطنين الرومان، الذين لم يقل عددهم في مطلق الأحوال عن نصف عدد الجنود الإجمالي، وبالإضافة الى ذلك هناك الاعتمادات التي كانت تُخصص للتسليح وإنشاء الطرقات العسكرية، وتشييد المباني العامة، وإقامة الحفلات الترفيهية في روما. هذا عدا عن الهبات المالية التي كانت توزع على المواطنين من وقت لآخر. لهذا لم يكن يتبقى بعد كل هذه النفقات التي ذكرتها إلا مبالغ قليلة فائضة عن حاجات الدولة تبقى كاحتياطي في الخزانة العامة الرومانية. ومن ذلك ما وجد في عام ١٥٧ ق.م حوالى ٢٥ مليون ديناريوس ـ حوالى مليون جنيه استرليني ـ احتياطي الخزانة العامة الرومانية. وهذا المبلغ لا يساوي نصف احتياطي الخزانة العامة في أثينا على عهد برقليس.

وعلى العموم، افتقر الرومان الى رجال مدربين في مجال الإدارة والمحاسبة المالية في الشطر الثاني من عهد الجمهورية. وعلى الرغم من استمرار السناتو

الروماني متمتعاً بإشراف عام على دخل الدولة وخراجها، فإنه كان لا يعد ميزانية مفصلة، ولا يراجع حسابات الحكام مراجعة دقيقة. ولم يولِ القنسورس الشؤون المالية الا قدراً طفيفاً من العناية. كما لم يكن الكوايستورس افضل حالاً، ذلك انهم بسبب قصر مدة حكمهم وقلة خبرتهم وعدم إلمامهم بالشؤون المالية كانوا أعجز من أن يسيطروا على الجهاز الدائم من موظفي الخزانة العامة.

٢ ـ الطبقة العامة في روما وجمعيتا المثينات والقبائل

إن ما طرأ من تعديل على تكوين جمعيتي المثينات والقبائل لهو اقل اهمية من نوع المواطنين الذين اصبحوا يحضرون اجتماعات هاتين الجمعيتين. فقد أخذ يقل تدريجاً عدد المواطنين الرومان الذين يحضرون اجتماعات جمعيتي المثينات والقبائل للأسباب التالية:

اولاً: إتساع نطاق الإقليم الروماني والزيادة المطردة في عدد المستعمرات الرومانية التي أُنشئت في نواحي هذا الإقليم.

ثانياً: اتساع الفتوحات، ومشاركة المواطنين الرومان في القيام بها.

ثالثاً: ازدياد عدد الولايات وعدد المواطنين الرومان المقيمين فيها إما قسراً لأنهم كانوا ضمن افراد الحاميات، وإما طواعية لممارسة نشاطهم المالي المحموم.

وفي خلال القرن الثاني قبل الميلاد أصبح لا يحضر اجتماعات هاتين الجمعيتين الا أقلية ضئيلة من المواطنين الرومان للأسباب والأوضاع التي ذكرتها أعلاه.

ولو كانت هذه الأقلية الضئيلة التي واظبت على حضور اجتماعات الجمعيتين المذكورتين اعلاه من النوعية الجيدة لكان ذلك من السهولة والأهمية بمكان. لكن هذه الأقلية وإن كانت تُعد من سكان روما الذين كانوا يعملون في الزراعة خارج المدينة. وهجروا مزارعهم لأسباب كثيرة، ووفدوا الى العاصمة ليتكسبوا قوتهم بأيسر الطرق وليفيدوا من الهبات التي كانت توزع على سكان روما، وليستمتعوا بالحفلات العامة والحملات الإنتخابية، وما كان يقدم فيها من أنواع الأطعمة وألوان الترفيه.

وقد كان لتكاثر مثل هذه العناصر في روما آثاره السيئة على الحياة العامة. ولا سيما عندما أصبحت الأكثرية في الجمعيتين الشعبيتين الرئيسيتين، وبخاصة جمعية القبائل من هؤلاء الغوغائيين المهاجرين المعوزين. وهم لا يزالون مسجلين في القبائل الريفية، لأن عضوية القبيلة أصبحت وراثية. ونتيجة لانتقالهم في أعداد كبيرة للإقامة في روما، ونتيجة لبطالتهم أو عدم انهماكهم في ممارسة أعمال مستديمة بانتظام فأصبح أيسر عليهم من بقية مواطنيهم ان يحضروا باستمرار اجتماعات جمعية القبائل، ولا سيما ان ذلك أصبح محبباً اليهم لقضاء وقت فراغهم: فأصبحت بالتالي قرارات هذه الجمعية متوقفة على أهواء ورغبات هذه العناصر وعواطفها.

ولما كان سكان المدينة، مواطنين كانوا أم غير مواطنين، يجدون لذة كبيرة في حضور اي اجتماع عام لقضاء بعض الوقت في الاستماع الى الخطب السياسية. فقد اتخذ رجال السياسة، من هذه الاجتماعات وسيلة لتحريك شعور الجماهير والتلاعب بعواطفهم وإثارة النزعات فيها، وفي الوقت نفسه تحريك العناصر، المتزنة تأميناً لفوزهم بموافقة جمعية المئينات أو جمعية القبائل على وجهات نظرهم. وبحسب الظروف التي كان يعيشها اولئك المتعطلون، كانوا على أتم الاستعداد للموافقة على اي مشروع يرون فيه اية فائدة مادية لهم، وعلى انتخاب المرشحين الذين يدفعون اكثر من غيرهم.

وإزاء انصياع العامة لتحكم الطبقة الحاكمة في أمورهم، فقدمت هذه الطبقة مصالحها على حساب المصلحة العامة مما أدى الى فساد الحكم بعدما تعامت عن الفساد، ولم تعمل على إبتكار وسيلة مناسبة للوصول نحو الأفضل في تحقيق الصالح العام او ان يمارس المواطنون بأنفسهم حقوقهم الدستورية. كما كان متبعاً في الدول ـ المدن ـ الإغريقية. وهكذا يمكن القول ان الشعب الروماني قد تنازل طوعاً عن سيادته العليا في الدولة عِبرَ الجمعيات الشعبية ـ جمعية المئينات او جمعية القبائل ـ لتحتكر طبقة النبلاء إدارة دفة الحكم في غياب اصحاب الحقوق حتى آن الآوان وهبَّ المصلحون في القرن الأخير من عهد الجمهورية متحدين

النبلاء مما أدى الى قيام حلقات من النزاع بين هؤلاء المصلحين يؤازرهم الشعب وطبقة الحكام من النبلاء.

٣ ـ الطبقة الحاكمة، نبلاء السناتو

على الرغم من أن الشعب الروماني هو صاحب السيادة في الدولة، فإن تحريك عجلة الحكم ظلت في قبضة طبقة ارستقراطية وإن اختلفت هذه الارستقراطية اختلافاً بيناً عن طبقة البطارقة القديمة، بعد العام ٢٨٧ ق.م وبينما كانت قبائل البطارقة قد كونت عنصراً هاماً من عناصر الارستقراطية الجديدة الحاكمة التي ظلت فترة طويلة يخرج من بين صفوفها قادة روما السياسيين، وتتمتع بمكانة اجتماعية ممتازة. فإننا نرى الى جانب البطارقة كانت الارستقراطية الجديدة تضم الى صفوفها مجموعة كبيرة من العامة الذين سبق لهم تولي إحدى الوظائف الرومانية العامة التي كان يستتبع توليها الفوز بعضوية السناتو سواء أكانوا مواطنين رومان أو من اللاتين او من الإيطاليين الذين كانوا ينتمون الى ارستقراطيات محلية في مدن منحت حقوق المواطنة الرومانية، ووفدوا الى روما للاستقرار فيها.

إذن تكونت طبقة الارستقراطيين عندما أخذ اثرياء العامة، في النصف الأول من عهد الجمهورية، يحذون حذو البطارقة في تنظيم حياتهم الإجتماعية، بتكوين قبائل من اسرهم الأكثر ثراء. وان هذه القبائل اصبحت تؤلف ارستقراطية العامة. وبعد دخول ابرز عناصر العامة إلى طبقة البطارقة في السناتو، ان تم تجاوز الفواصل بين الطبقتين بتقوية الأواصر بين الفريقين بالتزاوج والتبني انسجاماً مع المصالح المشتركة، وفي سبيل هدف واحد هو جمع كل عناصر الارستقراطية. لكن الملاحظة انه بقدر ما أخذت قبائل البطارقة في الانحلال وبالتالي الانقراض، اخذت قبائل العامة تنمو وتقوى بشكل ازداد معه عدد العامة في الطبقة الارستقراطية.

ولما كان الانتماء الى الارستقراطية الرومانية يأتي نتيجة الى كون احد اجداد الأسرة الرومانية عضواً في مجلس السناتو الروماني. فإن هذه الارستقراطية قد

إنقسمت الى فئات متفاوتة في المرتبة على اساس مرتبة الوظائف التي شغلها هؤلاء الأجداد. فكانت أعلى الارستقراطية مرتبة فئة صغيرة كان الرومان يدعونها فئة النبلاء Nobiles, Nobilitas علماً ان صفة او سمة النبالة لم تطلق إلا على سلالة الذين سبق لهم تولي القنصلية او الدكتاتورية او التريبونية العسكرية ذات السلطة القنصلية، لكنه غلب عند العامة خلع سمة النبالة على الارستقراطية بأسرها ودعوة أفرادها جميعاً «النبلاء». هذا وكان يطلق على أول رجل في الأسرة يصل الى المناصب الكبرى لقب «رجل حديث النعمة» Homus Novus، أو الرجل الجديد لأنه أساس شرف الأسرة، ويدعى أحياناً «صدر الشرف». ونادراً ما كان يصل الفقراء الى المناصب العامة. ولكن إذا وصل احدهم الى الوظيفة العليا كان عليه، بطريقة، مباشرة ان يجمع ثروة ضخمة تمكنه من استقبال مؤيديه واطعام مرشحيه من اجل المحافظة على وظيفته، حتى صارت الثروة والوظيفة لا تفترقان.

وخير دليل على تفاوت مراتب الفئات، التي كانت تنقسم الارستقراطية اليها، التقاليد التي كانت تنظم الاجراءات المتبعة في مجلس الشيوخ، وتراعى بكل دقة. فوفق هذه التقاليد، كان يتولى رئاسة جلسة الحاكم الذي دعا الى انعقادها، وهو عادة احد القنصلين، وبعض الأحيان البرايتور او أحد ترابنة العامة. ورئيس الجلسة في مجلس الشيوخ هو الذي يعطي الكلام لأصحاب الحق، وفقاً لمرتبة الوظيفة العامة التي كان العضو يشغلها من قبل. فيفتتح المناقشة عادة اصحاب المرتبة القنسورية Censorrii على أساس انهم كانوا قد تولوا القنصلية قبل توليهم القنسورية. ثم يأتي بعدهم اصحاب المرتبة القنصلية Consulares. فأصحاب المرتبة البرايتورية Praetorii.

والشيء الجدير بالملاحظة هنا، هو ان العادة جرت على أن يقترع المجلس على المشاريع اوالقرارات المعروضة أمامه فور إنتهاء هذه الفئات الثلاث من الكلام. لذلك، نادراً ما كان يدعى للكلام اعضاء مجلس الشيوخ الأصغر سناً وهم الذين كانوا اصحاب المراتب الدنيا: مثل التريبونية Tribunicii والأيديلية aedilicii والكوايستورية Quaestoricii. وتبعاً لهذه التقاليد التي كانت تعطي

افضلية مطلقة في إبداء الرأي لأرفع أعضاء المجلس مرتبة بدءاً بأكبرهم سناً. فقد إتسمت تصرفات هؤلاء الشيوخ عادة بالتمهل المعوق والحذر الشديد. لكن مجلس الشيوخ الروماني كان يخرق هذه التقاليد في أوقات الأزمات على نحو ما سنرى من الأمثلة الكثيرة في معرض الحديث عن إدارة روما للولايات في الخارج.

طبعت الارستقراطية الجديدة بطابع مزدوج لأنها صارت:

- ارستقراطية ثراء
- وارستقراطية وظائف.

وفي خلال القرن الثالث قبل الميلاد كانت هذه الارستقراطية الجديدة المؤلفة من اسر اعضاء مجلس الشيوخ المتحدرين من البطارقة. ومن العامة، قد احتكرت لنفسها حق تولي الوظائف العامة، وبالتالي مجلس الشيوخ. وهكذا أصبحت الأرستقراطية الجديدة دائرة مغلقة دون غيرها. وقد ساعد في ذلك الاحتكار والانغلاق انه كان لا يستطيع الفوز بوظيفة عامة إلا من توافرت لديه ثلاثة مؤهلات رئيسية وهي:

- التمتع بثروة كبيرة.
- الانتماء الى اسرة ذات نفوذ كبير.
- الحصول على رضاء أكثرية أعضاء مجلس الشيوخ.

هذا مع العلم ان الوظائف العامة كانت غير مأجورة ـ بدون مرتبات ـ وأن يترتب على من يتولاها الانفاق بغير شح، وبخاصة في الحملات الانتخابية المكلفة والتي كانت ترتفع أكلافها باضطراد. وعلى ألا يغيب عن بالنا ما تتطلبه مهام الحكام وعضوية مجلس الشيوخ من أوقات مما لا يترك فرصة لأصحابها للقيام بعمل آخر.

ومع هذا وذاك، فعندما ازدادت الثروة بين أيدي الناس، ووجد كثيرون ممَّن توافرت لديهم موارد كافية لمواجهة الأعباء المالية، لم يتمكن هؤلاء الأثرياء الجدد الفوز بالوظائف العامة لافتقارهم الى المؤهلين الآخرين مما وَلَّدَ لدى هؤلاء المحرومين الحقد والكراهية على الأوضاع القائمة آنذاك، والتي صارت عاملاً هاماً في الصراعات المقبلة.

ولم يدع فرصة للنجاح في الانتخابات، الا لأبناء الأسر الموسرة المنتمية الى قبائل كبيرة ذات نفوذ، المحالفات السياسية الواسعة النطاق التي قامت بين القبائل الكبيرة، ونشاط الشخصيات البارزة ذات المكانة الكبيرة في تأييد مرشحيها. فضلاً عن ذلك كله، فإنه كان من حق الحاكم الذي يرأس الجمعية يوم الانتخاب ان يرفض عرض اسم اي مرشح لا يوافق هو عليه. ومن ذلك كان من الصعب على أي شخص لا ترضى عنه غالبية اعضاء مجلس الشيوخ تولي منصب الكوايستورية تمهيداً لتولي البرايتورية وعن طريقها الوصول الى عضوية مجلس الشيوخ. كما كانت الارستقراطية اكثر تشدداً في مَنْ يتولى وظيفة القنصلية لأنها تؤهل صاحبها اعتباراً منذ آخر القرن الثالث قبل الميلاد لاكتساب سمة النبالة هو وسلالته. وليس أدل على ذلك التشدد من أنه من بين المائة والثمانية الذين انتخبوا للقنصلية فيما بين عامي ٢٠٠ و١٤٦ ق.م لم يكن إلا ثمانية فقط ممن كانوا ينتمون إلى أسر لم يتولَّ أحد من أفرادها هذا المنصب من قبل.

والواقع أنه حتى أواخر عهد الجمهورية الرومانية لم يتمكن من اختراق الحواجز المصطنعة، وتولي منصب القنصلية من خارج صفوف الارستقراطية إلا الاشخاص الذين امتازوا بصفات غير عادية وساعدته على النجاح ظروف غير عادية أيضاً، كانت إما داخلية وإما خارجية، مثل مرقوس بورقيوس قاتو الكبير، وفيما بعد ماريوس وشيشرون. أما منذ القرن الثاني قبل الميلاد. كان من تولى القنصلية دون أن يكون قد سبقه اليها أحد من قبيلته أو أسرته يسمى «رجلاً جديداً» كما بيّنا سابقاً.

ومنذ مدة بعيدة كان مجلس الشيوخ ينقسم الى جماعات عدة. تتنافس للفوز بالوظائف العامة وبخاصة وظيفتي القنصلية والقنسورية. فتلتف كل جماعة من هذه الجماعات حول زعيم قبيلة من القبائل البارزة. وقد يحدث تحالف بين قبيلتين لمنع وصول مرشح القبيلة القوية ذي النفوذ القوي والمكانة الممتازة من اقامة نفسه حاكماً مطلقاً، أو منع القبيلة الواحدة من الاستئثار بأرفع الوظائف منفردة.

فمنذ بداية المرحلة الثانية من الحرب البونية، كانت أكبر القبائل الرومانية ستاً

هي: قبائل فابيوس Fabii وفولفيوس Fulvii وقلاوديوسس Clawdii وقورنليوس سقيبو Cornelii Scipiones وأيميليوس Aemilii وفالريوس Valerii. وحتى معركة قاناي في عام ٢١٦ ق.م. كان من نتيجة تحالف القبيلتين الأخيرتين فوزهما بنصيب الأسد. ثم انتقل ذلك المنصب الى قبيلة فابيوس. لكن ما ان أطل عام ٢١٢ ق.م. حتى كانت الصدارة لقبيلة قلاوديوس بفضل تحالفها مع قبيلة فولقيوس. ثم أخذ نجم قبيلة قورنيليوس يرتفع بفضل ما أصابه بوبليوس قورنليوس سقيبيو من نجاح في اسبانيا ثم في افريقيا. ومع ذلك، رفض منصب الدكتاتورية لمدى الحياة بعد انتصاره في معركة زاما عام ٢٠٢ ق.م. واكتفى بلقب افريقانوس ثم انتخب في عام ١٩٩ ق.م. قنسوراً، وصار أرفع أعضاء مجلس الشيوخ مقاماً Princeps Senatus، وفي عام ١٩٤ ق.م. أيد انتخابه قنصلاً.

ثم تولى زعامة المعارضة لنفوذ أفريقانوس «رجل جديد» يدعى مارقوس بورقيوس قاتو اتصف بالجد والكفاية والنزاهة والقدرة الخطابية فلفت الانظار اليه، ولاسيما قبيلة فالريوس فساندته وكفلته برعايتها. ومهدت له السبيل الى تولي الوظائف العامة. فاصبح الكوايستور في عام ٢٠٤ ق.م.، والأيدياليس الشعبية في عام ١٩٩ ق.م. والبرايتور في عام ١٩٨ ق.م.، والقنصل في عام ١٩٥ ق.م. والقنسور في عام ١٨٤ ق.م. فكان يدعو الى اعلاء شأن روما، وعدم تقليد أهل الأغريق، ويهاجم ابتزاز أموال أهالي الولايات. وأوعز في عام ١٨٧ ق.م. الى اثنين من ترابنة العامة بمطالبة لوقيوس سقيبيو بتقديم حساب لمجلس الشيوخ عن ٥٠٠ تالنت ـ حوالى ١٢٥ ألف جنيه استرليني [١]ـ ثم حرّض قاتو التربونين على اثارة هذه المسألة في جمعية القبائل حيث انتهت بتدخل أفريقانوس والقائه خطاباً بليغاً دافع فيه عن أخيه. ولما لم تنفع هذه المحاولات من قبل قاتو فانه حرّض تريبوناً للعامة، في عام ١٨٤ ق.م. يدعى غايرس مينوقيوس Gaeus Minucius على اتهام لوقيوس أمام جمعية القبائل باختلاس

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/ ٣٨٣.

الأموال العامة، فانتهت أيضاً كسابقتها إذ استخدم التريبون سمبرونيوس براكوس حقه في الاعتراض على تصرفات زميله مينوقيوس الذي أصدر أمراً بالقاء القبض على لوقيوس الأمر الذي أغضب أفريقانوس فأعتزل الحياة العامة وترك روما الى ان توفي في العام الثاني ١٨٣ ق.م.

وقد ساعد على شدة الصراع والتنافس بين أفراد الطبقة الارستقراطية أنهم انغمسوا في حياة الترف الواسعة. وتحقيقاً لذلك، كان التنافس كبيراً بين المرشحين لوظائف القنصلية أو البرايتورية التي توفر فرص تولي الحكم في الولايات وقيادة الجيوش وبالتالي الحصول على ثروة كبيرة تكفل لهم ممارسة الحياة المترفة. في حين أن العرف كان يُحرم على أعضاء مجلس الشيوخ ممارسة الأعمال المصرفية والاشغال العامة، وبعد قانون قلاوديوس الصادر في عام ٢١٨ ق.م. فرص العمل بالتجارة الخارجية.

فليس غريباً أن يلجأ هؤلاء المرشحون الى شراء أصوات الناخبين في خلال القرن الثاني قبل الميلاد. وبالرغم من لجوء بعض الترابنة الى استصدار قانونين جديدين في عامي ١٨١ و١٥٩ ق.م. للقضاء على الرشوة في الانتخابات. فإن الرشوة بقيت فاشية، لأن مجلس الشيوخ، للحفاظ عل سيطرته أشاع الرشوة وأباحها بسن نظام جماعي للرشوة أساسه توزيع بعض هبات القمح على عامة روما، أو يستخدم جانباً من دخل الجزية المفروضة على الولايات في شراء كميات من النبيذ والزيت لتوزيعها على عامة روما.

فمن أجل كسب ود الناخبين المقيمين في روما قرر مجلس الشيوخ الروماني الاهتمام بترفيههم وذلك باقامة سلسلة من الحفلات العامة. فقبل عام ٢٢٠ ق.م. كان لا يقام بانتظام إلا حفل عام واحد للألعاب يسمى «حفل الألعاب الرومانية» Ludi Magni أو Ludi Romani ولا يستمر أكثر من يوم واحد. أما في عام ٢٢٠ ق.م. فقد رأى مجلس الشيوخ اقامة حفل عام ثانٍ عُرف بـ «حفل الألعاب الشعبية» Ludi Plebeii، وفي اثناء الحرب البونية، بعد انتهاء المرحلة الثانية، واجتياز الأزمة التي مرت بها روما، قرر مجلس الشيوخ مساهمة منه في التعويض عل الشعب وما كابد من مآسٍ، وما تحمل من عذاب، إقامة ثلاثة

احتفالات جديدة، بدأها عام ٢١٢ ق.م. بحفل Ludi Megalenses، تلاها في عام ٢٠٤ ق.م. بحفل Ludi Florules وأخيراً في عام ٢٠٢ ق.م. أكلمها بحفل Ludi Ceriales ثم أضاف الى هذه الاحتفالات احتفالاً رابعاً في عام ١٧٣ ق.م. Ludi Apollinares ولم يقف الأمر عند زيادة عدد الحفلات العامة بل تعداه الى زيادة مطردة في عدد أيام كل حفل. فخصص أولاً خمسة أيام ثم جعلت سبعة أيام، وحددت بعد ذلك حتى صارت (أربعة عشر يوماً مع ما يستتبع ذلك من زيادة في الاعتمادات المخصصة من الخزانة العامة. وأحياناً كثيرة كان الحكام الذين يشرفون على هذه الحفلات العامة يتبرعون بمبالغ اضافية من أموالهم الخاصة كسباً لرضاء الجماهير ومقدمة منهم للحصول على تأييدهم بالادلاء باصواتهم في الانتخابات لمصلحتهم دون غيرهم.

ولم تبق الاحتفالات تقليدية مقتصرة على سباقات الخيول والعربات بل أضيفت اليها المسرحيات ومباريات المجالدين، ومباريات صيد الحيوانات المفترسة. وكان الأرستقراطيون يتسابقون في تقديم هذه المباريات على نفقتهم الخاصة كسباً للشهرة ومحبة الجماهير.

وازدادت سيطرة مجلس الشيوخ على الحكم في الدول الرومانية حتى سيطر سيطرة مطلقة في خلال القرن الثاني قبل الميلاد إلى أن تولى تيبريوس سمبرونيوس غراكوس التريبونية الشعبية لعام ١٣٣ ق.م. وهذه المكانة والنفوذ اكتسبهما مجلس الشيوخ بالتدرج من التقاليد الرومانية أصلاً ثم من ارتفاعه الى مستوى المسؤولية إبان الازمات في المرحلة الثانية من الحرب البونية التي هددت كياناً ونظاماً سياسياً مما جعل الرومان يدركون تلقائيا ضرورة ترك توجيه السياسة الخارجية الى هيئة قوية دائمة. ولم يكن أنذاك في وسع الحكام تأليف مثل هذه الهيئة لأن مدة حكمهم كانت عاماً واحداً. ولم يكن أيضاً ميسوراً للجمعيات الشعبية Comitia أن تتحمل مثل هذه الأعباء وتقوم بمثل هذه المهام وهم في الغالب تنقصهم الخبرة الادارية والأهلية السياسية وإن كانوا يتحلون بالحنكة العسكرية والشجاعة والاقدام لأن جلهم كان من الفرسان وأكثرهم تمرساً بالشؤون العامة كانوا من بين صفوف المحاربين. ولان مجلس الشيوخ كان هيئة

دائمة ومن السهل أن يدعوها بانتظام احد القنصلين أو البرايتورس الى الاجتماع لبحث الشؤون العامة الطارئة. فضلاً عن كون أكثرية أعضاء هذه الهيئة يتمتعون بخبرة طويلة، في هذه الشؤون لأنهم كانوا يتألفون من الحكام السابقين اضافة الى القنصلين والبرايتورس الحاليين. فكان طبيعياً ان يهيمن مجلس الشيوخ هيمنة كاملة على السياسة الخارجية للدولة الرومانية مع مراعاة حق جميعة المئينات في الموافقة على اعلان الحرب وعقد الصلح. ثم كان من حقه وضع نظم الحكم لممتلكات روما الخارجية واختيار الحكام لهذه الممتلكات والاشراف على ادارتها.

ولم يكتف مجلس الشيوخ بوضع يده المطلقة على السياسة الخارجية بل امتدت الى كل الشؤون العامة بفضل سيطرته على الحكام والوسائل التي ابتكرها وانتهجها للسيطرة على الجمعيتين الشعبيتين. وقد استمد سيطرته على الحكام من كونه صاحب الحق في الاسناد الى القناصل والبرايتورس قيادة الجيش، وتحديد الولايات التي يحكمونها، ويطيل لهم مدة ممارسة السلطة التنفيذية العليا Prorogatio فهو بذلك يستطيع ان يكافىء الذين يسلمون له القيادة، ويعاقب الذين يتحدون توجهاته. فضلاً عن حق الاعتراض inter Cassio وهو الحق الذي لم يكن مقتصراً على ترابنة العامة فقط، بل أيضاً كل حاكم يتمتع بسلطة أعلى maior Potestas من حاكم آخر، أو بسلطة مساوية له Par Potestas كان مجلس الشيوخ يستطيع إعاقة تصرفات الحكام وترابنة العامة.

والواقع أن سيطرة مجلس الشيوخ تعدت نطاق ادارة دفة الحكم، والتحكم في السياسة الخارجية واختيار حكام الولايات الى حق الاعتراض أو الفيتو. هذا السلاح الذي أنشىء أصلاً للحد من سلطة مجلس الشيوخ نفسه أو الحكام. قد أصبح فعل أداة استخدمها المجلس لكبح جماح ترابنة العامة أنفسهم. وكذلك لوقف تصرف أي حاكم خالف مشيئة هذا المجلس. ذلك أنه بعد عام ٢٨٧ ق.م. عندما أصبح العامة يؤلفون نسبة كبيرة من أعضاء مجلس الشيوخ لم يكن صعباً عليه أن يُغري تريبوناً أو آخر من ترابنة العامة العشرة على استخدام حقه في الفيتو ضد أي مشروع لم يرضى عنه المجلس، سواء أكان صاحب هذا

المشروع حاكماً من الحكام أم أن تريبوناً آخر من ترابنة العامة. فأصبح فيتو الترابنة سلاحاً ذا حدين.

وامتد نشاط وسيطرة نفوذ مجلس الشيوخ الى الجمعيات الشعبية مثل جمعية المئينات وجمعية القبائل اللتين كانتا لا تستطيعان التصويت إلا على المشاريع التي يعرضها عليها الحاكم الذي يرأس جلسة انعقادها، فبفضل نفوذ هذا المجلس على الحكام وصلاته بالترابنة العامة استطاع ان يسيطر على كل وجوه نشاط هاتين الجمعيتين. سواء أكانت هذه الانشطة تشريعية أم انتخابية لأنه أصبحت الغلبة في هاتين الجمعيتين للمتعطلين الذين إكتظت بهم روما. فانتهزت الطبقة الحاكمة هذه الفرصة لشراء رضاء العناصر المحتاجة واثارة أحط النزاعات فيها وارهاب اكثر العناصر رؤية واتزاناً.

وامعاناً في التحكم بادارة دفة الدولة الرومانية، فقد عملت الطبقة الحاكمة على ايجاد وسيلة جديدة تخلف ما كان مجلس الشيوخ قد فقده من حق ابرام قرارات الجمعيتين الشعبتيين الرئيسيتين Patrum auctoritas باستصدار قانونين حوالى عام ١٥٠ ق.م. Les Fufia و Lex Aelia يخولان لأي حاكم قوروولي - أي الأيديلس القوروولي او البرايتور أو القنصل أن يفض اجتماع أية جمعية شعبية بحجة أنه شاهد نذراً سيئة الطالع يعني أنه إذا فشلت الوسائل الأخرى في تهيئة الجو الملائم لاتجاهات الطبقة الحاكمه، أو إذا أخذت هذه الطبقة على غرة قبل تهيئة هذا الجو. لم يكن هناك أيسر من الالتجاء الى الوسيلة الجديدة. وإذا لم يكن منتظم فإن هذا يدل على أمرين:

الأمر الأول: على الرغم من سيطرة الطبقة الحاكمه، على زمام الأمور، فقد وجدت عناصر معارضة لهذه الاوضاع، استطاعت أحياناً كثيرة أن تتحدى الطبقة الحاكمة باقناع احدى الجمعيتين الشعبيتين لاتخاذ قرارات لا ترضى عنها هذه الطبقة فاتخذت الحيطة تجاه هذه التحديات.

الأمر الآخر: أنه عندما أساء مجلس الشيوخ استعمال السلطة التي آلت اليه، وظهر عجز الطبقة الحاكمة عن حسن ادارة شؤون الدولة بحيث أصبحت رائحة الفساد تزكم الأنوف، برز في القرن الأخير من عهد

الجمهورية الرومانية زعماء مصلحون تحدوا الاوضاع القائمة تحدياً خطيراً.

وادعى مجلس الشيوخ لنفسه الحق في معالجة الازمات الطارئة التي تهدد أمن الدولة وسلامتها في الداخل باصدار ما يعرف بقرار مجلس الشيوخ النهائي. Senatus Consultum ultimum. وبمقتضى هذا القرار كان القنصلان يخولان السلطة كاملة في اتخاذ أي إجراء للحفاظ على سلامة الدولة من أي مكروه durent operam consules ne quid republica detormenti caparet Senatus decrevit دون أن يحق لأي حاكم آخر أو أي تريبون من ترابنة العامة استخدام حق الاعتراض Intercessio على ما يقرره القنصلان دون أن يحق لأي مواطن استخدام حق الاستئناف Provocatio إزاء أي حكم يصدره القنصلان أو أحدهما في مثل هذه الظروف. وهذا يعني أن قرار مجلس الشيوخ النهائي كان بمثابة إعلان ما يعرف اليوم باسم «الأحكام العرفية» أو «الاحكام العسكرية».

واخيراً ساعد على اضعاف نفوذ مجلس الشيوخ اخفاقه الذريع في ادارة الولايات، وعجزه عن حل المشاكل التي ترتبت على اتساع فتوحات روما. وتعصبه للطبقة الحاكمة التي قصرت على نفسها الوظائف العامة دون الطبقات الأخرى مهما تكن مقدرة أفراد هذه الطبقات. فكان طبيعياً ان يهبط مستوى الادارة في الولايات وفي روما على حد سواء. فانبرى المصلحون ينشدون الاصلاح، استماتت المجلس في الدفاع عن مكانته ونفوذه فوقع الصراع الدامي في القرن الأخير من عهد الجمهورية، ولم ينته إلا بالقضاء على النظام الجمهوري.

٤ ـ الحلفاء

لقد ظل الحلفاء اللاتين والايطاليين أوفياء لروما في أشد الأزمات وأصعبها عليها وبخاصة إبان الحرب البونية في مرحلتها الثانية فأسهم الحلفاء بعدد اكبر من الجنود مما أسهم به الرومان أنفسهم في بناء الجمهورية وبناء الامبراطورية. إذ كان عدد الجنود من الحلفاء يبلغ دائماً، في خلال القرن الثاني قبل الميلاد،

ضعف عدد الجنود من الرومان. اما في العام ١٩٣ ق.م. أصبح الوضع أفضل مما كان متبعاً في النظام القديم. فصار الزاماً على الحلفاء أن يحشدوا الجنود بحسب المعاهدات المبرمة بينهم وبين روما، بحيث يأخذ بعين الاعتبار عدد مواطني كل مدينة حليفة من الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والاربعين. أما الاسلاب فقد كانت توزع عادة بالتساوي بين الجنود الحلفاء والجنود الرومان.

ومع ذلك لم يكن هؤلاء الحلفاء يشعرون إلا بالاجحاف الشديد مع الرومان، وبأنهم أدنى منهم مرتبة. وبالرغم من اسهامهم على نطاق واسع في بناء الامبراطورية الرومانية. فإنهم كانوا من بين المحرومين المشاركة في حكم الامبراطورية والانتفاع بحماية اشخاصهم من ظلم الحكام في الولايات، وهي الحماية التي كفلتها للمواطنين الرومان التشريعات التي صدرت في مستهل القرن الثاني قبل الميلاد.

وقضت بعدم قصر حق الاستئناف على الأحكام التي تصدر في روما فقط ويحظر جلد المواطنين الرومان، ويحظر اعدامهم دون محاكمة. بينما كان حكام الولايات يمارسون سلطات مطلقة سواء على المقاتلين أو على التجار الايطاليين فضلاً عن الرومان وحدهم دون الحلفاء كانوا يتمتعون بالانتفاع بالجزية والمكوس الجمركية ودخل الأرض العامة والمناجم في الولايات.

وبعد ان غالى الأيدليس في جمع التبرعات لاقامة الحفلات العامة في روما، واشتد سخط الحلفاء، اضطر مجلس الشيوخ الرومان الى اصدار قرار في عام ١٧٩ ق. يحظر مثل هذه الابتزازات. فضلاً عن الحلفاء كانوا يتحملون وحدهم أكلاف ضيافة حكام روما في أثناء تنقلاتهم في جميع أنحاء ايطاليا مع ما يستلزم من اماكن لايوائهم هم وحاشياتهم أو يشترون ما يلزمهم من حاجيات، فتتكفل بكل ذلك المدن التي ينزلون فيها. وكثيراً ما أسيئت معاملة الحكام المحليين لأنهم لم يبادروا فوراً الى اخلاء الحمام العام واعداده ليستخدمه حاكم روماني أو زوجته.

وبمرور الزمن أخذ الحلفاء يشعرون بوجود فوارق قوية بينهم وبين

الرومان، بدل أن يكونوا حلفاء متساويين كان الرومان سادة وهم مسودين. فشعر الحلفاء بالمرارة لوجود هذه الفوارق. وقد كانت النتيجة للاندماج في شبه الجزيرة الايطالية كافة في هيئة مواطنين رومان بسبب الصلات الوثيقة. والتطور الحضاري الأثر الكبير في حصول المجتمعات الايطالية الحليفة لروما على حقوق المواطنة الرومانية كاملة وكان أول ظهور في السياسة الرومانية بعد عام ١٣٩ ق.م. ويؤكد ذلك بقاء هذه المجتمعات حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد حريصة على الاحتفاظ باستقلالها من الاندماج في الشعب الروماني. الا أنه في خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٧ الى عام ١٦٨ ق.م. حذف اكثر من مرة اسماء كثيرين من الحلفاء الايطاليين من قوائم المواطنين الرومان. وأرغموا على العودة الى مواطنهم بناء لطلب هذه المجتمعات الحليفة نفسها. ولم يكن ذلك بدافع حرمان الحلفاء التمتع بحقوق المواطنة الرومانية. وخير دليل على هذا القول أن أهل قابوا الذين حرموا من استقلالهم الذاتي وحقوق المواطنة الرومانية الخاصة في عام ٢١٠ ق.م. جزاء خروجهم عن طاعة روما وانضمامهم الى هانيبال، أعيد اليهم كل ما حرموه في عام ١٨٩ ق.م. وفي العام الثاني منحت حقوق المواطنة الرومانية كاملة الى ثلاثة مجتمعات صغيرة تقع على الحدود بين لاتيوم وقمبانيا، وهي: فوندي Fundi وفورمياي Formiae وأربينوم Arpinum. واستبقت روما للحلفاء واللاتين حقهم في الحصول على حقوق المواطنة إذا انتقلوا الى روما للاستقلال فيها بشرط أن يكونوا قد تولوا قبل ذلك مناصب عامة مدنهم الأصلية. بيد أن الأدلة على عدم منح الحلفاء الايطاليين حقوق المواطنة الكاملة واضحة، لأن مواطني قابوا لم يمنحوا الحقوق الرومانية كاملة.

ويؤكد عدم منح الحلفاء حقوق المواطنة الرومانية كاملة، لأن مواطني قابوا لم يمنحوا الحقوق الرومانية الكاملة، . حرصاً من مجلس الشيوخ في عدم التوسع بمنح الحقوق الرومانية كاملة. والخلاصة انه عندما أصبح الحلفاء الايطاليين شديدي الحرص في الحصول على الحقوق الرومانية، واخذوا يطالبون بالحصول عليها. أصبح الرومان أكثر ميلاً الى عدم التوسع في منح

هذه الحقوق. وأنه كلما اشتدت مطالبة الحلفاء اشتد حرص الرومان على عدم مشاركة الحلفاء لهم في التمتع بمزايا الحقوق الرومانية. مما أدى الى نشوب «حرب الحلفاء» في أوائل القرن الأول قبل الميلاد.

* * *

الفصل العاشر

الحكم الروماني في الولايات

١ ـ علاقة روما بدول البحر الأبيض المتوسط

اتسع نفوذ الرومان وعلاقاتهم وممتلكاتهم خارج ايطاليا اتساعاً كبيراً حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد. ولم يحل منتصف القرن الثاني قبل الميلاد حتى كانت علاقة من نوع جديد تربط روما بدول البحر الأبيض المتوسط باستثناء موريتانيا وبعض امارات البلقان. وكان الدافع وراء هذا التوسع رغبةُ الرومان في تأمين أنفسهم من قرطاجة، ومن مخاطر ازدياد قوة فيليب الخامس ملك مقدونية، وانطيوخوس الثالث امبراطور الدولة السلوقية. وإثر الانتصارات الباهرة التي حققتها روما تعددت الدول التي اسرعت الى عقد تحالفات معها، وحيث ان اتساع نطاق السيطرة الرومانية خارج ايطاليا لم يكن في الأصل وليد سياسة استعمارية واضحة. فلم يكن لدى الرومان خطة مرسومة لطريقة حكم البلاد التي سيطروا عليها او لتنظيم علاقاتهم مع هذه البلاد. ونتيجة لذلك فإنهم جربوا وسائل مختلفة الى ان استقر رأيهم أواخر القرن الثاني قبل الميلاد على قواعد معينة.

بقي الرومان، حتى حوالى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، يفضلون بوجه عام، في تنظيم علاقاتهم مع البلاد المهزومة خارج ايطاليا، على اساس من التحالف، وذلك بعقد معاهدات تحالف وصداقة Societas et amicitia. لكن هذه السياسة من التحالفات لم تطبق على قدم المساواة مع جميع البلاد على حدٍ سواء. فقد كانت بعضها تعامل معاملة الدولة الصديقة، وعلى هذا الأساس تعفى من اداء ضريبة او جزية للرومان، على حين ان بعضها الآخر، كانت تعامل معاملة الرعايا، وتلزم بأداء ضريبة أو جزية للرومان. وكذلك بعدم إنشاء

علاقات خارجية مع أية دولة أخرى. كان الرومان يعقدون كذلك مع الدول التي لم تناصبهم العداء معاهدات تحالف وصداقة يتعهد فيها الطرفان المتعاقدان بتقديم المساعدة العسكرية لأغراض دفاعية عند الحاجة. ولكن نظراً الى فارق القوة بين روما والدول الأخرى، ونظراً الى المبدأ العام الذي ظل الرومان يعملون بموجبه مدة طويلة، وهو مبدأ تجنب الاشتباكات الخارجية قدر الاستطاعة. لم يكن هناك مفر من الناحية العملية من ان تستفيد روما من قوات حلفائها الأصدقاء Socii amicii حين كانت ترى مصلحتها في ذلك. وعلى تجنب استخدام قواتها خارج ايطاليا لمساعدة هؤلاء الحلفاء. وحتى ان الرومان كانوا احياناً يرفضون مساعدة الحلفاء الذين يبادرون الى تقديمها تلقائياً. وبحسب المفهوم الروماني، امتاز نظام التحالف والصداقة بأنه كان يضمن حياد حلفائهم دون ان يلزمهم عملياً بمساعدة هؤلاء الحلفاء. ومن وجهة نظر الحلفاء ان عقد محالفة مع روما كان مكسباً سياسياً كبيراً، وإن لم يستتبع حتماً الحصول على تأييد قوة روما العسكرية.

٢ ـ إنشاء الولايات

عملية إنشاء الولايات قد تمت في منطقة قبل أخرى، ففي حين اتبع الرومان نظام ضم البلاد، التي قهروها، إليهم في غرب البحر الأبيض المتوسط، احتفظوا بنظام معاهدات التحالف والصداقة لمدة طويلة، في شرق البحر المتوسط بوجه عام. وكانت صقلية اولى الممتلكات التي امتلكها الرومان خارج ايطاليا باستيلائهم عليها في عام ٢٤١ ق.م. ثم تلاه استيلاؤهم على قورسيقا وسردينيا في عام ٢٣٨ ق.م. وقبل تحويل هذه الممتلكات الى وحدتين اداريتين منفصلتين في عام ٢٢٧ ق.م تتألف إحداهما من صقلية، والثانية من قورسيقا وسردينيا، فقد استبقى الرومان إدارة هذه الممتلكات دون إنشاء نظام خاص بها.

وكانت كل وحدة ادارية من هذا النوع تُسمى ولاية Provincia ثم لم يلبث ان عُمم هذا الاسم على كل منطقة تقع خارج ايطاليا وتضمها روما اليها وتحولها الى وحدة ادارية تقيم عليها حاكماً رومانياً. وقد حوّل الرومان، في عام ١٩٧

ق.م الأقاليم التي استولوا عليها في اسبانيا الى ولايتي اسبانيا الدانية ـ القريبة ـ واسبانيا القاصية ـ البعيدة ـ وتحويل قرطاجة وإقليمها الى ولاية افريقيا في عام ١٤٦ ق.م، وتحويل مقدونيا الى ولاية مقدونيا. وفي عام ١٢٩ ق.م تحويل مملكة برجام الى ولاية آسيا.

ويعود السبب الرئيسي الى تحويل هذه الممتلكات الى ولايات اربع، الى باعث عسكري يتمثل في رغبة الرومان في ضمان عدم وقوعها ثانية في قبضة قرطاجة. وكذلك بشأن إنشاء ولاية مقدونيا فقد كان الباعث عسكرياً من اجل وضع حد لمتاعبهم العسكرية وتأمينهم من جهة الشرق. أما بالنسبة الى إنشاء ولاية افريقيا ـ اقليم قرطاجة فقد كان الباعث استعمارياً انتقامياً. أما بالنسبة الى قورسيقا وسردينيا وصقلية، وولايتي اسبانيا فقد كان الباعث الإفادة من مواردها وان اعتبرته روما في المرتبة الثانية اولاً ثم بدأ يكتسب اهميته المتزايدة بمرور الزمن منذ ضم مملكة برجام.

٣ ـ قانون الولاية

كان مجلس الشيوخ هو الذي يضع الخطوط الرئيسية لنظم الحكم في الولايات ويستصدر بها قانوناً يعرف بقانون الولاية Lex provinciae. وكان يتم ذلك بعد اخذ رأي اللجنة التي أوفدها الى الولاية والاطلاع على التقرير الذي كانت تضعه، في هذا الخصوص بالاتفاق مع القائد الذي اخضع المنطقة التي تقرر تحويلها الى ولاية. وهذه اللجنة كانت تتألف عادة من عشرة اشخاص هم ابرز اعضاء المجلس وبرئاسة القائد المنتصر.

كان قانون الولاية يحدد حقوق وواجبات مختلف الأجزاء التي تتألف منها الولاية، لأن روما لم تنقض فجأة على الأقاليم التي حولتها الى ولايات. إذ كان سبقها علاقات متباينة بين روما والأجزاء المختلفة المكونة منها هذه الأقاليم خلال فترة ليست بقصيرة. وطبعاً كانت هذه العلاقات قد مرت بأطوار مختلفة، وبما ان غالبية الأقاليم التي حُولت الى ولايات قد سيطرت عليها روما عن طريق الفتح. وأن أهلها كانوا في وضع المقهورين الذين سلموا دون قيد أو

شرط dediticii. فعلى هذا الأساس تتصرف روما على اعتبار ان ليس لهم حقوق وأن روما تمنحهم الحقوق متى شاءت وتحرمهم منها متى شاءت. وإذا وجدت في هذه الأقاليم مدناً كانت تربطها بروما علاقات جيدة سابقاً ولم تقف موقفاً معادياً لها في أثناء الفتح فإن هذه المدن تحتفظ بوضعها السابق وفق المحالفات المعقودة معها سابقاً. ولذلك كانت هذه المدن تتمتَّع بحكم نفسها، ولا تدفع جزية او تدخل ضمن الاختصاص الإداري أو القضائي لحاكم الولاية على أساس انها مستقلة في إدارة شؤونها داخلياً. وكانت تعتبر هذه المدن من الناحية الشكلية دولاً حرة متآلفة مع روما Civitates liberae et foederatae ففي صقلية كانت مدينة مسينا مثلاً على رأس هذه المدن الدول التي كان عددها في الغالب قليلاً. ثم تأتي بعد هذه المدن في المعاملة المميزة تلك المدن التي كانت تربطها بروما محالفات صداقة، ثم خرقتها هذه المدن، ومثالاً عليها مدينة سراقوسة في جزيرة صقلية أيضاً. فكان مجلس الشيوخ الروماني يسمح لهذه المدن بأن تحكم نفسها، ويعفيها من الجزية، ومن وضع حاميات رومانية فيها. لكن هذا الاعفاء كان مشروطاً بسلوك هذه المدن إذ بإمكان المجلس الغاء هذا الاعفاء في أي وقت. وعدد مثل هذه المدن كان أيضاً قليلاً. وكانت تُسمى الدول الحرة المعفاة Civitates Liberae Immunes.

أما الغالبية العظمى من مدن الولاية وأقاليمها، فقد كانت توضع فيها حاميات رومانية، وتفرض عليها اداء الجزية. لذلك كانت تُعرف باسم الدول الخاضعة للجزية Civitates Stipendiariae. على أنه كثيراً ما كان يسمح لمدن الولاية بالاحتفاظ بنظم الحكم التي كانت قائمة فيها ما دام الحاكم الروماني يرى ان هذه النظم المحلية كفيلة باستتباب الأمن والنظام وجمع الضرائب. علماً بأن مدن الفئتين الأخيرتين كانت تدخل في نطاق الاختصاص القضائي للحاكم الروماني.

٤ ـ حكّام الولايات

في البداية لم يكن من قواعد يتم على أساسها تعيين الحكام ليتولوا أمر

ممتلكات روما في الخارج. وقتها كان يترك للقنصلين حق اختيار من ينيباهم عنهما في حكم صقلية وقورسيقا وسردينيا. لكن عندما تقرر تحويل هذه الجزر الثلاث ولايتين في عام ٢٢٧ ق.م كما ذكرنا سابقاً، تقرر اسناد حكم هاتين الولايتين الى برايتورين تنتخبهما جمعية المئينات سنوياً، مثل البرايتورين اللذين يبقيان في روما لتصريف شؤون العدالة فيها. وفي عام ١٩٧ ق.م تقرر انتخاب برايتورين آخرين سنوياً لحكم ولايتي اسبانيا الدانية واسبانيا القاصية. لكن إذا ظهر لروما ان الحالة في إحدى هذه الولايات كانت تنذر بحدوث اضطرابات تقتضي وجود حاميات عسكرية على نطاق واسع. فإنه كان يسند أمر هذه الولاية الى أحد القنصلين بدلاً من إسنادها الى برايتور.

لكن الرومان بعدما صار عدد البرايتورس ستة في أول القرن الثاني قبل الميلاد، عَدَلوا حتى صدر القرن الأول قبل الميلاد عن فكرة زيادة عدد البرايتورس تبعاً لزيادة عدد الولايات، ولجأوا الى فكرة إطالة مدة ممارسة الحكام سلطتهم القنصلية العليا Prora-gatio. فتحولت هذه الفكرة الى نظام دائم بعد ان كان إجراء مؤقتاً لمواجهة ظروف طارئة. فمنذ عام ١٤٦ ق.م، تاريخ انشاء ولايتي افريقيا ومقدونيا، صارت القاعدة اطالة مدة ممارسة القناصل والبرايتورس سلطتهم التنفيذية العليا، بعد انقضاء عام حكمهم ليتولوا حكم الولايات، قائمين مقام القنصل تحت اسم «بروقنصل» أو «بروبرايتور».

ومجلس الشيوخ هو المخول سنوياً تحديد الولايات التي سيتولى حكمها في العام التالي حكام من رتبة البروقنصل، وتلك التي سيتولى حكمها حكام من رتبة البروبرايتور. اما في حالات الطوارىء فقد كان المجلس يسند ولاية بذاتها الى حاكم بذاته. بينما في الظروف العادية فإنه كان يترك لأصحاب كل مرتبة إقرار الولاية التي يرغب في الذهاب اليها كل منهم لحكمها إما بالاتفاق وإما بالاقتراع. وكانت مدة تولي الحكم في الولايات محددة عادة بعام واحد. أما إذا استدعت الدواعي العسكرية استمرار وجود حاكم قدير ـ وكثيراً ما كان يحدث في اسبانيا ـ كانت مدة الحكم تمدد لعامين وأحياناً لثلاثة أعوام.

وكان حاكم الولاية، مثل البرايتور في روما، يصدر بياناً يتضمن القواعد

الأساسية التي سيتبعها في محكمته، وبعض التفاصيل الإدارية الإضافية المختلفة مثل القيود التي كانت تُفرض من وقت لآخر على الحكومات المحلية. وعلى مضي الزمن اصبحت بيانات Edicta الحكام متشابهة وذات محتوى واحد تقريباً، لأن الحكام كانوا ينقلون عما سبقهم الجانب الأكبر من بيانه، وأحياناً كان ينقل عن بيان البرايتور في روما، أو عن بيان حاكم ممتاز في ولاية أخرى.

وتوزعت اختصاصات الحاكم في الولاية على الشؤون العسكرية والإدارية والقضائية. فهو القائد الأعلى للقوات الرومانية في الولاية، تناط به المحافظة على حدودها، وعليه تقع مسئولية حفظ الأمن والسلام في أرجائها من مراقبة العلاقات بين المجتمعات المختلفة في الولاية وتحركاتها. وهو المسؤول عن جمع الجزية أو الضرائب المفروضة على الولاية، وفي الظروف العادية، كان تحقيق العدالة من أولى واجباته، وأثقلها عبئاً عليه، لأنه كان يترأس محكمته عندما يفصل في أخطر قضايا الأهالي الوطنيين، وفي مختلف القضايا التي يكون أحد طرفيها أو كلاهما من الأهالي والآخر من المواطنين الرومان. وفي بداية الأمر كانت المحكمة تعقد جلساتها في مختلف مراكز الأقاليم بحسب القضايا المعروضة عليها والتي تنجم عن المنازعات المختلفة. ولكنه لم يلبث ان تم تقسيم كل ولاية الى عدد محدد من الدوائر Conventus جعل لكل دائرة مركزاً معيناً تنعقد فيه محكمة حاكم الولاية. وفي أماكن تجمع أو استقرار مواطنين رومان، كان الحاكم يختار أبرزهم ليؤلف منهم هيئة محكمتهم، وليسند اليهم مهمة بحث موضوع القضايا المدنية قبل عرضها للبت فيها.

وكان يساعد حاكم الولاية كوايستور واحد يقوم بمهمة جمع الدخل من جباة الضرائب، وصرف النفقات التي يتطلبها الحاكم لأداء واجباته. وإزاء ذلك زيد عدد الكوايستورس ليتوافق وزيادة عدد الولايات. وكان يرافق حاكم الولاية عدد من الوكلاء اختلف باختلاف مرتبته. فإذا كان برتبة بروبرايتور يصحب معه وكيلاً Legatus واحداً، وإذا كان برتبة بروقنصل يصحب معه وكيلين او ثلاثة Legati يعينهم مجلس الشيوخ من بين اعضائه بناء لترشيح الحاكم نفسه لمساعدته في المشورة والإنابة عنه حينما وحيثما تقتضي الظروف ذلك. وكان الحاكم

يصحب فضلاً عن هؤلاء عدداً من المرافقين Comites الشبان يختارهم من أولاد اصدقائه بقصد اكتساب الخبرة والتدرّب على حكم الولايات في المستقبل، والإفادة من خدماتهم في الإضطلاع ببعض المهمات التي يكلفهم القيام بها الحاكم. وفضلاً عن جميع هؤلاء يصحب الحاكم معه حاشية كبيرة من الكتبة والخدم.

٥ ـ الضرائب والالتزامات الأخرى

أعفيت «الدول الحرة المتآلفة» و«الدول الحرة المعفاة» من دفع الضرائب او الجزية، في حين ألزمت جميع المجتمعات والدول الأخرى بدفع الجزية او الضرائب لتغطية نفقات الاحتلال والدفاع. وعُرف نظام الالتزام في البداية بـ«ستيبنديوم Stipendium، وهو الاصطلاح الذي كان يطلق على الضريبة التي تجمع لدفع رواتب الجند فصار يعني أحياناً «أجر الجندي» اما تسمية هذا الالتزام «تريبوتوم» Tributum فهو اصطلاح كان يطلق على الضريبة العقارية التي يؤديها المواطنون الرومان، لأن الرومان يعتبرون ان إنشاء اي ولاية من الولايات يعني انه تحولت قانوناً deiure ملكية ارضها كلها الى الشعب الروماني وبموجب القوانين الرومانية اصبح اصحابها السابقون قانوناً كذلك في وضع المستأجرين، وبالنتيجة أصبح عليهم ان يدفعوا للدولة الرومانية إيجاراً عن الأرض التي يستأجرونها[١].

كان الرومان في مثل هذه الحالة يحتفظون بالنظام الضريبي المعمول به في كل اقليم قبل تحويله الى ولاية، ويخفضون الضرائب عما كانت عليه قبل الحكم الروماني. وتعتبر الضريبة الرئيسية، هي ضريبة الأرض. وفي ولايات اسبانيا وافريقيا ومقدونيا، كانت هذه الضريبة تُدفع نقداً على شكل مبلغ معين تدفعه كل ولاية سنوياً. أما في ولايات صقلية وسردينيا وآسيا فإن هذه الضريبة كانت تدفع عيناً كما كان معمولاً سابقاً بها، وهي عبارة عن عشر محصول الأرض.

---

(١) نصحي، ابراهيم تاريخ الرومان ١/٣٥٥.

وفي ولايتي صقلية وسردينيا كان الجباة يسددون ما يجبونه حبوباً، بينما يسدد الجباة في ولاية آسيا مالاً بدلاً مما يجبونه عيناً.

وفضلاً عن ضريبة الأراضي، كان الأهالي يدفعون مكوساً جمركية عن السلع المستوردة الى الولايات من الخارج والخارجة منها، كما كان أصحاب المهن والحرف يدفعون ضريبة تُسمى «ضريبة أرباح العمل». وتستفيد الدولة الرومانية من بدل ايجار اراضي التجار والمناجم والمحاجر والمراعي العامة والغابات في البلاد المقهورة لأنها كانت تعتبرها منذ البداية جزءاً من الأراضي العامة الرومانية ager publicus فكانت تؤجر هذه الممتلكات إما للأفراد وإما للشركات.

لم يكن هناك من طريقة واحدة في جمع الضرائب. فهي تختلف من ولاية لأخرى، وتبعاً لنوع الضريبة. وفي الضريبة المباشرة، كان المبلغ محدداً عادة، يقسم على الجماعات الى حصص مختلفة يفترض عليها أداء هذه الضريبة. وكانت جماعة من هذه الجماعات تجمع الحصة المفروضة عليها بوسائلها الخاصة وتسلمها الى كوايستور الولاية. وفي حال كانت الضريبة على شكل نسبة معينة من المحصول السنوي، فإن الرومان كانوا يطرحون جباية هذا النوع من الضريبة بالمزاد العلني لمن يتقدم بأفضل عرض - أعلى سعر - من محترفي جمع الضرائب Publicani، فيرسو عليه الالتزام. فكانت الجماعة التي تفوز بالالتزام تدفع للدولة الرومانية المبلغ الذي تقدمت به في العرض، وتحتفظ لنفسها بالمحصول الفائض عند جمعه. وهذه الطريقة - طريقة التلزيم - فتحت المجال أمام الملتزمين لجباية اكبر قدر ممكن دون أي اعتبار لقيمة الضريبة او المعدل الواجب جمعه. مما كان له أسوأ الأثر.

كان جباة جمع الضرائب غالباً في صقلية من المحترفين المحليين. أما في ولاية آسيا فقد اقتصر جمع الضرائب على جماعات أو شركات رومانية. مما جعل هذه الشركات الرومانية تجمع رؤوس أموال كثيرة زاحمت بها الشركات المحلية في ولايات أخرى غير ولاية آسيا، دون ان تجعل جباة الضرائب في هذه الولايات الأخرى وقفاً عليها باستثناء مجال الضرائب غير المباشرة. ولما تضخمت الالتزامات لم تعد الثروات الفردية كافية، فضلاً عن أن الدولة صارت تخشى

سوء الائتمان وتَرَدُدُ الكافلين في كفالة مبالغ كبيرة. أفسح المجال أمام إنشاء شركات المصالح العامة. فتوزع الأرباح نسبياً على الأعضاء بحسب الحصص (الأسهم) من الرأسمال، التي قدمها الشريك بالمساواة[1]. وتعتبر ثروات الشركاء الخاصة ضمانة للدولة عند الالتزام. وبما ان بعض المشاريع الكبرى كانت تطلب إموالاً ضخمة تفوق رأسمال الشركات عَمَدَت هذه الشركات الى زيادة رأسمالها عن طريق مساهمة مساهمين جُدد، تُكتب اسماء هؤلاء على هامش اللائحة الأساسية، لهذا كانوا يدعون Adfines أي شركاء على الهامش. وكانت حصصهم أقل من حصص المساهمين العشرة الأول في الربح. ويرئس هذه الشركات رئيس Magister يقيم في روما. يعاونه مجلس إدارة من الشركاء الذين لهم أكثر من عشرة حصص، وينوب عنه في المقاطعات نائب رئيس يسهر على تنفيذ أعمال الشركة. وكان جميع هؤلاء المساهمين ينتمون الى طبقة واحدة اجتماعية، هي طبقة الفرسان[2] الجديدة Equites وكان موظفو الشركة رومان من طبقة أدنى مرتبة من مرتبة الفرسان أو إيطاليين، او من أهالي الولايات، أو من المعتقين، او من العبيد.

وإلى جانب الضرائب التي كانت تجبى بانتظام من سكان الولاية. كان على أهالي الولايات أن يلتزموا بتوفير المأوى والمؤونة ووسائل النقل لحاشية الحاكم الروماني وجنوده. وبما أن هذا العبء كان مرهقاً للناس فقد اضطر مجلس الشيوخ الى اصدار قرارات متتابعة لتحديد مقدار الالتزامات المفروضة على الأهالي في هذا الصدد، ولتحديد أسعار مجزية للحبوب التي كانت توضع تحت تصرف الحاكم العام. وفي صقلية وسردينيا كانت الحكومة الرومانية تحتفظ لنفسها بحق الحصول على كمية إضافية من الحبوب بحيث لا تزيد على عشر ثانٍ

(١) رستم، اسد عصر اوغوسطس قيصر وخلفائه ٢/١٠٧.

(٢) كان الفارس يتنقل في المراتب العسكرية من قائد فوج من أفواج القوات المساعدة الى قائد فوج من أفواج القوات الرومانية ثم قائداً لالاي من الايات الفرسان فإذا بلغ الثلاثين من العمر عين مديراً للمال أو وكيلاً ادارياً في روما او الولايات .

للمحصول من أجل سد حاجة سكان روما وجيوشها في أثناء الحروب، على أن يتم دفع ثمن ذلك وفقاً للسعر السائد في السوق.

ولكي يضمن الرومان لأنفسهم الحصول على كميات كافية من القمح كانوا يحظرون على صقلية وسردينيا تصدير القمح الى بلاد أخرى غير إيطاليا.

٦ ـ اعتماد الرومان على الحلفاء الإيطاليين في الجندية

لم يعتمد الرومان على أهالي الولايات في التجنيد بقدر ما اعتمدوا على الإيطاليين، على الرغم من ان على أهالي الولايات أداء الجزية أو الضرائب بانتظام، وهو ما كان الرومان معفين منه وإن كانوا يدفعون المكوس الجمركية. فقد كان الرومان لا يفرضون الجندية عادة الا على اكثر القبائل بداوة لأنها لا تستطيع ان تؤدي اي نوع من الضرائب أو لا تؤدي إلا قدراً زهيداً. لكن في حالة الطوارىء لجأ الحكام الى فرض تجنيد قوات محلية. وإن «الدول الحرة المتآلفة» كانت ملزمة بتقديم مساعدة عسكرية احياناً وفقاً لشروط المعاهدات المعقودة معها.

ومع هذا فإن الرومان كانوا يعتمدون أساساً على الفرق الإيطالية التي يرسلونها الى الولايات للدفاع عن حدودها وحفظ الأمن والنظام فيها، نظراً لثقة الرومان في ولاء الإيطاليين لهم أكثر من ولاء الحلفاء غير الإيطاليين، وفي صلاحيتهم للخدمة العسكرية وفقاً للأساليب الرومانية. فلا عجب إذا كان وضعهم أفضل من وضع أهالي الولايات.

٧ ـ عيوب النظام الروماني في الولايات

كان لسياسة الرومان التي فرّقت في المعاملة وتطبيق الأنظمة الرومانية، في مختلف الشؤون العسكرية والإدارية والمالية والاجتماعية والاقتصادية، بين الإيطاليين وغير الإيطاليين، اكبر مثار لسخط الأهالي الشديد على أوسع نطاق في الولايات. فقد أصبح أهالي الولايات في نظر الرومان مصدراً للكسب غير المشروع، على اعتبار انهم فقدوا على مر الزمن عادة حمل السلاح، واستطراداً لم

تكن لديهم وسيلة فعّالة لحماية أنفسهم من المفاسد المترتبة على إساءة الرومان استخدام سلطتهم ونفوذهم. ووسط هذه الظروف غدا أهالي الولايات ضحايا الاستغلال الذي أسهم فيه الموظفون الرسميون والنزلاء الرومان سواء بسواء.

بالرغم من احتفاظ بعض الحكام الرومان بمستوى خلقي رفيع من النزاهة وعفة اليد، فإنهم كانوا قلة بالقياس الى الكثرة التي أساءت استغلال سلطتهم للفوز بثروة مشروعة حتى ضُرب المثل بهذا الاستغلال لأن سلطة الحكام مطلقة. وزاد في الطين بلة ما كان تحت إمرتهم من قوات للمساندة لا تخضع لرقابة مباشرة من مجلس الشيوخ، يغريهم الحكام على إشباع نهمهم في الوقت الذي هبط فيه المستوى الخلقي بوجه عام بين الرومان، ولم يعد للضمير وازع. وقد كان قصر مدة حكم الحكام في الولايات يحول دون استطاعة الحاكم النزيه التعرف على ظروف ولايته وفهمها، وهو ما كان حافظاً قوياً للحكام المنحرفين على الشطط في جمع الثروة.

والحكام لا يحصلون على مرتبات لقاء عملهم في الولايات، إنما يعطون مكافآت شخصية لتغطية نفقاتهم هم وحاشياتهم. وفضلاً عن ذلك كان يحق لهم، في حال قيامهم بحرب ناجحة، الاحتفاظ بجانب كبير من الأسلاب. وإذا كان الرومان يعتبرون الخدمة العامة في روما شرفاً لا ينتظرون الحصول على مكافآت مالية لقاء قيامهم بهذه الخدمة العامة. في حين كانوا يعتبرون تولي حكم إحدى الولايات فرصة ذهبية لجمع الثروة. وكان كلما عاد حكام الولايات وفي متناول أيديهم ثروات طائلة، وكلما ازدادت تكاليف الحملات الانتخابية والأعباء المالية المترتبة على تولي الوظائف العامة حفاظاً على المظهر واستيفاء لتأييد الناخبين. أصبح الرومان ينظرون الى تولي حكم الولايات مصدراً لا غنى عنه لتعويض ما سبق انفاقه على الحملات الانتخابية، والاستعداد لما سوف ينفق. فارتفعت لذلك بورصة التنافس بين المرشحين لتولي الوظائف العامة.

اختلفت اساليب الموظفين الرسميين في فن جمع الأموال دون وجه حق، فكان من أكثر هذه الأساليب شيوعاً ابتزاز الأموال لقاء مجرد الوصول الى الحاكم العام، ولقاء الاعفاء من الأعباء الإضافية التي كانت تفرض على الأهالي في

الولايات. وهي اعباء توفير المأوى والمؤونة والوقود ووسائل النقل للجنود. حتى ان الأحكام التي كان يصدرها الحكام أو من ينيبوهم عنهم للفصل في القضايا المعروضة، مصدراً كبيراً للرشوة والثروة، تتوقف على مقدار الرشوة التي تدفع لهم. وفضلاً عن هذه الأعباء ما كان يجمع قسراً من «هدايا»، الغرض منها في الظاهر الاعراب عن التقدير والاجلال للحاكم أو تزويد الحاكم بالوسائل التي تمكنه من إقامة حفل ترفيهي للشعب الروماني عند عودته الى روما، على حساب أهالي الولايات.

وجباة الضرائب الرومان ساروا على خَطَأ الحكام وفي هدي سياستهم، لذلك لم يكونوا أبداً انبل وأعطف من الحكام في جمع الضرائب لأن من صالحهم ان يجمعوا أكثر مما كان يحق لهم، ولأن كل ما زاد على ما تعاقدوا عليه مع الحكومة الرومانية كان من نصيبهم. لهذا نراهم يختلقون شتى المعاذير، ولا يترددون عن التهديد باستخدام العنف لاعتصار قدر اكبر من الضريبة المقررة. وإذا رفع أحد ابناء الولايات ظلامته الى الحاكم الذي كان من واجبه ان يكبح جماح جشع الجباة، كان لا يقوم بواجبه بل يتقاعس عنه في هذا الصدد لعدم تعاطفه مع ضحايا الجباة، وليترك مجالاً لهؤلاء الجباة حتى يستفيدوا ويفيدوا إن لم يكن بطريق مباشر فعلى الأقل بطريق غير مباشر نتيجة لكسب رضاء الرأسماليين الرومان أصحاب النفوذ لجني الأرباح وتوسيع فروع شركاتهم بالإلتزام في جميع الولايات الرومانية، وترك الحبل لهم على الغارب في جمع الضرائب.

ولجأ الجباة الرومان الى اسلوب ولا ابشع وطريقة ولا أحقر وذلك بالاتفاق مع التجار الرومان Mereatores. فساروا وراء وسيلة وضيعة أخرى في سبيل الربح الأوفر، عارضين على المزارعين الفقراء شراء محاصيلهم من الحبوب باسعار منخفضة عقب المحصول مباشرة، وهم يعرفون كل المعرفة بأن المزارعين الذين استدانوا من الأغنياء في موسم الحراثة، هم في أشد الحاجة الى بيع محاصيلهم لسد ما عليهم من دين حتى لا يستعمل معهم اصحاب الديون أساليب قاسية وقاهرة في آن. فيبيعون المحاصيل بأرخص الأسعار لأنهم بأمس الحاجة،

ليعودوا فيشترونها في موسم الحراثة والزراعة بأغلى الأسعار حين يقل العرض ويكثر الطلب على الحبوب في الأسواق.

وعملية الاستغلال لأهالي الولايات، لم يغب عن ساحتها المصرفيون الرومان negotiatores، إذ وجدوا فيها مجالاً خصباً، وربحاً مرتفعاً حيث انتشروا في جميع أرجاء الولايات والاقاليم المجاورة لها وحيث كان النفوذ الروماني سنداً، وحماية لنشاطهم. وبخاصة كونهم ينتمون الى طبقة الفرسان، شأنهم في ذلك شأن جباة الضرائب. وكانوا يقدمون قروضاً بفوائد مرتفعة، تصل الى ٤٪ في الشهر الواحد، لأنهم كانوا عملاء، أو شركاء سريين لأعضاء مجلس الشيوخ، المحظور عليهم قانوناً، أن يمارسوا بأنفسهم مثل هذا النشاط. لذلك كان المصرفيون يخفون وراءهم، أعضاء من مجلس الشيوخ، وازاء نفوذ هؤلاء المصرفيين وخشية الحكام، مما يترتب من نتائج قد تؤثر في مستقبلهم السياسي اذا هم وقفوا في وَجههم، أو ترددوا في مساعدتهم، على جمع ديونهم. لذلك لم يدخروا وسعاً في الاستجابة الى مطالبهم مطالب الدائنين الجشعين - بوضع قوات الولاية تحت إمرتهم، أو على الأقل بنقل هذه القوات لتنزل ضيوفا ثقلاء على المتلكىء في السداد الى ان يضطر المدينون الى السداد سداداً كاملاً وإن إنطوى ذلك على بيع أراضيهم أو عبوديتهم.

كان مجلس الشيوخ هو المسؤول عن الاشراف على حكم الولايات، وبالتالي عن محاسبة هؤلاء الحكام. ومع هذا فإن المجلس لم يمارس إلا اشرافا عاماً على سلوك الحكام. فيقوم مجلس الشيوخ، عند عودة كل حاكم الى روما، بفحص حساباته والترتيبات التي وضعها في إقامة مهرجان نصر إذا كان له نشاط عسكري ناجح. وهذا بالطبع لم يضع حداً للمفاسد والمظالم التي كان الاهالي في الولايات يتعرضون لها. لذلك كانت تفد الى روما من وقت الى آخر بعثات من أهالي الولايات لترفع شكواها الى السناتو أو مجلس الشيوخ بحق تصرفات بعض الحكام. واحياناً للاطراء عليهم بايحاء من الحكام أنفسهم وتحت ضغطهم. وكذلك كان ينبري من حين لآخر بعض قادة الرأي من الرومان للدفاع عن أهالي

الولايات إما بوازع من ضمائرهم واما بدافع من انتهاز الفرصة للنيل من خصم سياسي.

ولكن مجلس الشيوخ الذي يرى في المظالم التي كانت تقع على أهالي الولايات عملاً مشيناً، وخرقاً للقوانين، وعادة خطيرة يتعوّد عليها الحكام الرومان في الخروج على القانون أو اعتبار أنفسهم فوق القانون. لا يعالج هذه المشاكل الخطيرة بالقضاء، عليها قضاء تاماً، بل كان يلجأ الى اصدار لوائح جديدة لحماية اهالي الولايات. وفي عام ١٧١ ق.م. عندما شكا أهالي ولايتي أسبانيا ـ الدانية والقاصية ـ الى الشيوخ من مظالم حاكميها الجشعين، أمر مجلس الشيوخ بتشكيل محكمة لتقرير الأضرار. لكن الأهالي لم يحصلوا على تعويض مادي لأن المتهمين تهربا من رد ما إبتزاه من أموال بمغادرة روما، وهو كافٍ للحكم على الحاكمين المجرمين بالنفي. وفي عام ١٧٠ ق.م. تضايق المجلس كثيراً من تصرفات برايتور سابق يدعى لوقرتيوس غايوس Lueretius Gallus تجاه حلفاء روما في بلاد الاغريق. فأوعز المجلس الى اثنين من ترابنة العامة لاستجواب جالوس أمام جمعية القبائل، ففرضت عليه الجمعية غرامة كبيرة. لكن هذه الجمعية برأت متهماً أشد إجراماً وهو يولبيقيوس غالبا Sulpicieus Galba. كان قد أوسع الاسبان نهباً وتقتيلاً سنة ١٤٩ ق.م. ولكنه أفلت من العقوبة عندما نجح في استدرار عطف وشفقة أعضاء الجمعية القبلية بظهوره هو وافراد أسرته أمامهم وهم يذرفون الدمع ويرتدون الملابس المهلهلة.

تجاه هذه المهاترات في الجمعية القبلية استصدر تريبون العامة لوقيوس قالبورنيوس بيسو Lueius Calpurnius Piso قانونا تقرر بمقتضاه اسناد الفصل في قضايا الابتزاز الى محكمة دائمة انشئت لهذا الغرض كانت تسمى محكمة استرداد الأموال المبتزة Quostio de Rebus Repetunolism وكان محلفوها الخمسون جميعاً من أعضاء مجلس الشيوخ، ولا يجوز استئناف أحكامها، ولا تعطيل هذه الأحكام باستخدام ترابنة العامة حق الاعتراض عليها وهكذا انتقل الفصل في قضايا سوء الادارة والابتزاز المالي في الولايات من جمعية القبائل الى محكمة خاصة دائمة.

ومع هذا لم ينتظر اهالي الولايات الخير الكثير من وراء انشاء هذه المحكمة، ذلك أن أغلب ضحايا حكام الولايات كانوا ينفرون عن المطالبة بترضية عما وقع عليهم من غبن بسبب النفقات التي كانوا يتكبّدونها لحضور محاكمة طويلة في روما، مع صعوبة الحصول على أدلة دامغة، واقتصار العقوبة، إذا تمكنوا من الفوز بمثلها، على دفع تعويض كان لايمكن ان يقابل الأضرار المادية وحدها، فأين يذهب بالنفقات الاضافية والاضرار المعنوية، فيتحمل خسارة فوق خسارة. وهذا كله لا يعادل خوف المشتكي من انتقام الحكام المقبلين. مع العلم أنه لا يمكن الفوز بحكم عادل من هيئة محلفين من اعضاء مجلس الشيوخ في محاكمة واحد من طبقتهم عن جريمة كان الكثيرون منهم يعتبرونها حقاً مكتسباً، بل يتطلعون الى الفرصة التي تخولهم ارتكاب الجريمة ذاتها أو ما يماثلها.

والحقيقة أنه من العسير القول بأن الحالة العامة في الولايات، كانت في العهد الروماني أسوأ منها في عهد حكامها السابقين استناداً الى:

أولاً: ان الشر يمتاز على الخير لجهة أنه يثير الحديث عنه بإفاضة.

ثانياً: ان اكثر المعلومات التى نوردها مستقاة من الكتاب الذين أفاضوا بالحديث عن أسوأ الحالات الفاضحة في الولايات الرومانية، ومن القضية التي أقامها أهالي صقلية امام محكمة ابتزاز الأموال، صيف عام ٧٠ ق.م.، ضدغايوس فروس Gaius Verres الذي تولى حكم ولاية صقلية ثلاثة أعوام، ابتداء من عام ٧٣ ق.م. واكثر من ابتزاز الأموال من أهالي صقلية، مما جعل هؤلاء يقيمون قضيتهم ضده، واسناد مهمة الدفاع عنهم، واتهام «فروس» الى المحامي الفطين «شيشرون» الذي استخدم كل مواهبه الخطابية والقانونية في ادانة المتهم.

ثالثاً: ان عدد الحكام الفاسدين كان يفوق عدد الحكام النزيهين.

رابعاً: ان القواعد العامة للحكم لم تكن مرهقة، بل أن معدل الضرائب كان معقولاً، وفي بعض الحالات كان أقل منه في الماضي.

خامساً: ان احلال السلام مكان الحروب في الولايات يكفي وحده لترجيح كفة ميزان الحكم الروماني على مساوئه.

تبدو هذه الاسانيد لأول وهلة حججاً قوية ومعقولة. إلا أنها في الواقع وبلغة القانون. كانت مقبولة شكلاً ومرفوضة موضوعاً، لأن العبرة ليست بنصوص القوانين، وانما بالروح التي تطبق بها. وتبعاً لذلك فأنه لم تكن هناك قيمة لاعتدال القواعد العامة للحكم الروماني في الولايات أو لدعم الضرائب المفروضة عليها، ما دام الحكام الرومان يتمتعون بسلطة ظالمة مستبدة لارقيب عليها إلّا ضمائرهم في وقت لم يعد فيه للضمير أي وازع، وما دامت جحافل جباة الضرائب والتجار وقارضي النقود الرومان تنقض على اهالي الولايات انقضاض الجراد وتلقى من الحكام العون والمساعدة.

ولم تنفع كثرة عدد الاتهامات التي وجهت الى الحكام، ولاكثرة عدد اللوائح التي أصدرها مجلس الشيوخ لحماية أهالي الولايات، ولا حتى إنشاء محكمة استرداد الأموال المبتزة، في الاقلال من عدد المفاسد التي زادت، ولا في عدد الحكام الفاسدين الذي لم يكن قليلاً بل بالعكس زاد. وما من شك إذا قلنا: ما الفائدة من نزاهة الحاكم وعفة يده، إذا كان خوفه على مستقبله السياسي يمنعه من التصدي لتلك الفئات الظالمة الجشعة التي كانت لا تدخر فرصة في اعتصار أهالي الولايات إذا اعتبرنا مثل هؤلاء الحكام حقاً كانوا نزيهين وأمينين.

ولا جدال كذلك في هبوط مستوى اخلاق الرومان الذين صاروا يقدمون مصالحهم الشخصية على كل اعتبار آخر.

وكان حكام الولايات الرومانية بالطبع أسوأ من حكامها السابقين لأن مدة حكم أولئك الحكام السابقين لم تكن محددة بفترة زمنية تدفعهم الى الجشع في اعتصار رعاياهم قبل انتهاء مدة حكمهم. وبحكم طبيعة الأشياء كان الحاكم منهم يصل عاجلاً أم أجلاً الى مبتغاه. أي الى درجة الشبع فينتهي عندها جشعه أو على الأقل تخف تدريجاً حدة نَهمِهِ. على حين أن قصر مدة الحكم الروماني كانت تدفعه الى أن يجمع أكبر قدر ممكن من الثروة في أقصر وقت ممكن من الزمن في خلال فترة حكمه القصيرة - سنة واحدة - وتبعاً لذلك كان اهالي الولايات على الدوام ضحايا سلسلة متعاقبة من الحكام الفاسدين سنة فسنة. بينما في العهود السابقة للحكم الروماني لم يكن أهالي الولايات لقمة سائغة لكل

تلك الأعداد الكبيرة من حكام وجباة وتجار ومصرفيين يقرضون نقود الأهالي.

والسلم الروماني Pax Romana المزعوم لم يكن شاملاً وكاملاً في كل زمان وكل مكان. وما هو إلا استسلاماً للقوة العاتية التي قضت على كل مظهر من مظاهر الحرية الشخصية والقومية. الوحيد هو أن أهالي الولايات بوجه عام لم يعودوا يتمتعون إلا بحق التألم، وهم لذلك يتطلعون الى كل بارقة أمل في الخلاص من الحكم الروماني. فلو كان العكس لما تمكن ميثريداتس Mithridates من طرد الرومان من آسيا الصغرى حتى غلب على أمره. وانعكس فساد الحكم الروماني في الولايات على روما نفسها. فترتب على الثروات الطائلة إلتي جمعت من الولايات نتائج اجتماعية واقتصادية خطيرة أثرت بدورها في الحياة السياسية من شدة في تنافس أفراد الطبقة الارستقراطية على تولي الوظائف العامة، مما أدى الى صراع طبقي عنيف في الفترة التالية. ولعل الفساد الأكبر كان في فساد اخلاق حكام الولايات وتخلقهم باخلاق الجشع والكسب غير المشروع. وتعود المرشحين للوظائف العامة على اجزال العطاء للفوز في الانتخابات. وتعود الناخبين على بيع اصواتهم لأكثر المرشحين سخاء. فزاد كل هذا في فساد أخلاق الشعب الروماني حتى كانت الأزمات الطاحنة والمتعاقبة التي شهدتها روما في خلال القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية.

الفصل الحادي عشر

تدهور الجمهورية الرومانية وقيام الدكتاتوريات

١ ـ سوء الأوضاع أواخر القرن الثاني قبل الميلاد

شهد العام ١٣٣ ق.م. حركة اصلاح تحولت بسرعة الى ثورة عارمة ضد الطبقة الحاكمة ، أي مجلس الشيوخ. لم تلبث هذه الثورة أن أدت الى حروب أهلية دامية. ففي حين انتهى الصراع في المرحلة باحتفاظ طبقة النبلاء بامتيازاتها القديمة، فإن المرحلة الثانية، انتهت مع نهاية الجمهورية الرومانية واقامة حكم المواطن الأول Princeps.

وتعود هذه الاضطرابات الى اخفاق نظم الحكم التقليدية التى ارتكزت عليها روما طوال عدة قرون الى أن أصبحت سيدة العالم المتمدن آنذاك وسبب اخفاق هذه النظم يرجع الى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

١ ـ تدهور الاخلاق العامة

٢ ـ عدم صلاحية النظم التى وضعت أصلاً لمدينة روما لتحمل أعباء حكم امبراطورية.

٣ ـ تمسك الهيئة الحاكمة بهذه النظم، وقصرها أرفع الوظائف العامة عليها، وعجزها عن حل المشاكل الخطيرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ترتبت على فتوحها.

فمنذ صدور قانون هورتنسيوس Lex Hortensia في عام ٢٨٧ ق.م. وحتى انتخاب تيبريوس غراكوس Tiberius Graechus تريبوناً للعامة Tribunus Plebis لعام ١٣٣ ق.م. كانت السلطة بيد مجلس الشيوخ القابض على أزمة الحكم، والموجه لسياسة الدولة الرومانية، ونتيجة لانهيار طبقة صغار الملاك، بسبب الحروب والانهيار الاقتصادي، اشتد ساعد مجلس الشيوخ في دعم سيطرته،

واستغلال نفوذه لصالح الارستقراطية، وبخاصة بعدما اكتسب حق تشكيل هيئات المحلفين للمحكمة الدائمة لاسترداد الأموال المبتزة Quaestio Perpetua Repetenda منذ إنشائها في عام ١٤٩ ق.م. صار يحتكر تعريف العدالة فضلاً عن أرفع الوظائف العامة.

فإذا قلنا أن الحكم كان في يد مجلس الشيوخ يجب ألا يغيب عن القاعدة حقائق هي:

- أن أعضاء مجلس الشيوخ لم يكونوا متساوين جميعاً في المرتبة والنفوذ.
- أن ادارة دفة المجلس كانت بيد نفر قليل من أعضائه هم النبلاء.
- أن شرف تولي القنصلية اقتصر على دائرة ضيقة من الأسر النبيلة.
- أنه لم ينجح في اقتحام هذه الدائرة الساحرة إلا عدد قليل تولّوا القنصلية بفضل نجاحهم.
- أن النجاح في تولي القنصلية كان يضفي على الشخص واسرته وسلالته صفة النبالة، ومع هذا لم يكن في وسعهم التمتع بنفوذ كبير في المجلس.

ولما كانت حوالى عشرين أسرة نبيلة هي التي تنفرد بتزويد الدولة بكبار حكامها وقواد جيشها وحكام ولاياتها، فلا مجال للشك بأنها هي التي تنفرد بتوجيه سياسة الشيوخ ومن ثم سياسة الدولة مثلما كانت تنفرد بأداة الحكم في الدولة الرومانية وفي الأمبراطورية بأسرها.

وشهد النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد صراعات عدة في الانتخابات بين الجماعات النبيلة المتنافسة. لكن منذ عام ١٣٣ ق.م. إنقسم النبلاء الى فريقين هما:

- **فريق المحافظين**: أو «الأخيار» Optimates أو النبلاء الذين قبضوا على زمام الحكم، وتمسكوا بالأوضاع القائمة.
- **فريق التقدميين**: أو «الشعبيين populares

ولم يظهر انقسام النبلاء الى فريقين، إلا بعد مقتل الأخوين تيبريوس وغايوس غراكوس، وتبلور حركة الشعبيين المناهضة لهيمنة المجلس ومعارضة كل محاولة للاصلاح، وتغيير الأوضاع القائمة.

وإزاء اخفاق طبقة النبلاء الحاكمة في ادارة الولايات، وعجزها عن حل المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية. التي ترتبت على اتساع الامبراطورية الرومانية، وإزاء احتكار هذه الطبقة ـ النبلاء ـ الوظائف العامة، وبخاصة أرفعها مقاماً وأوسعها نطاقاً، دون الطبقات الأخرى بما فيها طبقة الفرسان الجديدة، التي زادت نقمتها على الطبقة الحاكمة لانفرادها بتكوين هيئات محلفي محكمة استرداد الأموال المبتزة.

لهذه الأسباب جميعاً، أخذ الناس يشككون في مقدرة المجلس على الحكم، واستطراداً إذا كان من حقه ان يحكم. ولا سيما بعد أن حرر قانون هورتنسيوس في عام ٢٨٧ ق.م. جميعة القبائل من موافقة المجلس patrum auetoritas على تشريعاتها، سواء قبل إصدارها أم بعده، دون أن يفرض الدستور الروماني أي قيد على سلطة هذه الجمعية في اقرار أي مشروع قانون. ولم يعد هناك أي سند دستوري لضرورة أخذ موافقة المجلس قبل عرض أي مشروع قانون على هذه الجمعية.

إلا أنه عندما اشتدت نقمة العامة وساءت حالهم، كان طبيعياً ان يظهر ترابنة مصلحون يستخدمون سلطتهم في تحدي مجلس الشيوخ وفي اقتراح تشريعات لاصلاح الاوضاع. كما كان طبيعياً ألا تسلم الطبقة الحاكمة، طواعيةً بالتنازل عن امتيازاتها. وازاء تمسك كل من الطرفين بآرائه، لم يكن هناك مفَرّ مِنْ وقوع صراع طويل ومرير بين الفريقين.

٢ ـ مشكلة الأراضي:

قام أحد ترابنة العامة بمحاولة جريئة، في العام ١٣٣ ق.م.، لمعالجة الأراضي مستهدفاً، إعادة تكوين الطبقة الوسطى ـ صغار المزارعين ـ عن طريق اعادة تعمير الريف؛ ووضع لما يجوز حيازته من الأراضي العامة ager pubueus، واستخدام المساحات الزائدة على هذا الحد في انشاء ملكيات صغيرة، بعد اتساع نطاق الاقليم الروماني، نتيجة لفتوحات روما في ايطاليا. مما ادى الى اتساع نطاق الارض العامة، التي كان الجانب الأكبر منها يؤجر للراغبين في ذلك من

المواطنين الرومان، ومواطني المجتمعات الحليفة. ولما كان الأغنياء أكثر المستفيدين من تأجير الأرض العامة، بسبب نفوذهم وقدرتهم على توفير كل ما يلزم لاستغلال مساحة واسعة، اما بفلاحتها واما بتربية الحيوان عليها. ولما كانت أداة الحكم في قبضة النبلاء، وكان النبلاء في طليعة الارستقراطية الرأسمالية الزراعية، فإن الحكومة أغفلت عادة تأكيد حقوق الدولة على كامل أرض الحيازة باغفال مطالبة أربابها بسداد الايجار المستحق عنها. وتناس أرباب ارض الحيازة Possessoress حقوق الدولة على هذه الأرض، واعتبروها ملكاً خاصاً. لهم ولأسرهم، يتصرفون فيها بالبيع والرهن والهبة كما لو كانت ملكاً حراً. وفي حالات كثيرة كانت مساحة هذه الأرض تزيد على الحد المسموح به قانوناً وهو ٥٥٠ يوجرا Iugera جمع Iugerum وهو الفدان الروماني وكان يعادل ثلثي الفدان.

ثمة ظاهرتان ظهرتا عقب الاعلان عن تأجير الدولة للأرض العامة:

الظاهرة الأولى: انتشار الضياع الكبيرة التي أدت الى نقص عدد صغار الملاك، بسبب منافسة المزارع الكبيرة لهم، فبادروا الى بيع مزارعهم وذهبوا الى روما للعمل في النشاطات غير الزراعية، فأقفر الريف الايطالي بوجه عام من صغار المزارعين الذين اكتظت بهم روما. واحتارت روما في تأمين عمل لهم الأمر الذي أدى الى انتشار البطالة، وخلق أزمة اقتصادية كبرى. كما واجهت أزمة تكوين جيشها من الطبقة الوسطى أي صغار المزارعين الذين كانت تعتمد عليهم في تكوين قواتها طبقاً للقواعد المعمول بها حتى ذلك الوقت، ومن ناحية أخرى عنصراً كان المجلس يقيم لرأيه وزناً في خلال القرن الثالث قبل الميلاد.

الظاهرة الأخرى: وتتمثل الظاهرة الأخرى في استخدام العبيد على نطاق واسع في استغلال هذه الضياع الكبيرة. فما لا شك فيه ان الظروف السيئة التي كان يعيشها العدد الأكبر من العبيد، غرست فيهم فكرة الثورة على الاستعباد.

وبسبب المشكلة الاقتصادية التي أصابت الدولة الرومانية، فإن مشكلة حيازة

الأرض العامة: أثيرت أكثر من مرة منذ القرن الرابع قبل الميلاد ففي عام ٣٦٧ ق.م. قضى قانون ليقينيوس Lex Lieinia بألا تزيد مساحة الأرض العامة التي تجوز حيازتها على ٥٠٠ يوجرا ـ حوالى ٣٠٠ فدان ـ وحوالى عام ١٨٠ ق.م. صدر قانون مماثل لقانون ليفينيوس بوقف انتشار الضياع الكبيرة ومنع تحويل الأرض الزراعية الى مراع. وفي عام ١٧٣ خول المجلس لأحد القنصلين حق تحديد نطاق كل من الأرض العامة والأرض الخاصة في قمبانيا لوقف طغيان أرباب الأرض الخاصة على الأرض العامة وتوزيع الأرض العامة على فقراء المواطنين.

وعندما تجددت مشكلة الفقراء بعد تسريح الجيش في عام ١٤٦ ق.م. لانتهاء الحرب مع قرطاجة وفي بلاد الاغريق أيضاً. قام غايوس لايليوس Gaius Laelius في عام ١٤٥ ق.م. بتقديم مشروع لحل مشكلة الأراضي. لكنه عاد وسحب مشروعه بسبب معارضة مجلس الشيوخ وكبار أرباب الأراضي له.

٣ ـ تيبريوس غراكوس ومشروع توزيع الأراضي[1]

وسط الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي كان يتخبط فيها الشعب الروماني، وابان انشغال روما بالقضاء على نومانتيا في اسبانيا، وبينما كان القلق يساور الجميع من جراء حرب العبيد الثائرين في صقلية.

ظهر مصلح شاب في الثلاثين من عمره يدعى تيبريوس سمبرونيوس غراكوس Tiberius Sempronius Graeehus أحد ترابنة العامة المنتخبين لعام ١٣٣ ق.م. وتقلدوا وظائفهم في العاشر من كانون أول (ديسمبر) عام ١٣٤ ق.م. وهو سليل اسرة نبيلة، اشتهرت بثقافتها العالية ومكانتها الاجتماعية والسياسية العريقة. فقد كان جده لأبيه قنصلاً عام ٢١٥ ق.م. كما تولى جده لأمه القنصلية عام ٢٠٢ ق.م. وهو سقيبير أفريقانوس المنتصر على هانيبال في زاما،

---

(١) ول ديوارانت قصة الحضارة ٩/٢٣٧ ـ ٢٤٥.

وتولى أبوه القنصلية في عامي ١٧٧ و١٦٣ ق.م. والقنسورية في عام ١٦٩ ق.م. ومات في العام ١٥٤ ق.م. تاركاً خلفه تيبريوسس واخاه غايوس في رعاية سيدة فاضلة، رفضت الزواج من ملك مصر بطلميوس الثامن بعد وفاة زوجها لتتفرغ لتربية ولديها.

تعلم تيباريوس الخطابة على يدي أحد اساتذة الهيلينية البارزين المدعو ديوفانوس Diphanes م ميتولينين Mitylene والفلسفة على يد أحد الرواقيين بلوسيوس Blossios من قوماي Cumae. وتأثر تيباريوس بهما كثيراً وبخاصة بلوسيوس الذي تأثر بفلسفته الداعية للاصلاح، فايقظت فيه جذوة الحماس، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره خدم تريبوناً عسكرياً تحت قيادة زوج أخته سقيبيو آيميليو نوس في أثناء حصار قرطاجة عام ١٤٦ ق.م. وكان في مقدمة الذين تسلقوا أسوار قرطاجة المحاصرة. ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره عام ١٣٧ ق.م. تولى أول وظيفة عامة، وهي وظيفة الكوايستورية، حيث خدم في اسبانيا مع القنصل موستيليوس مانقينوس Mostilius Mancuinus حيث فاوض تيبريوس الاسبان، بعدما حاصروا القوات الرومانية قرب نومانتيا حصاراً شديداً، وعقد معهم معاهدة صلح، رفعوا في إثرها الحصار وأخلوا الطريق امام الجيش الروماني عندما تعهد لهم تيبريوس باحترام شروط معاهدة الصلح، لكن موقف مجلس الشيوخ من المعاهدة، ورفضه إبرامها، جعل تيبريوس يتخذ موقفاً مناهضاً من الطبقة الحاكمة لعدة أسباب هي:

- نشأة تيبريوس في أسرة متحررة فكرياً.
- ثقافته الاغريقية - في الأدب والفلسفة -
- النتيجتان المتناقضتان لتصرفه في أزمة الجيش في اسبانيا: من ناحية رضاء الشعب عن هذا التصرف ومن ناحية أخرى تنكر مجلس الشيوخ تنكراً وَصَمَ عمله بالفشل.
- قَلَقَهُ من الحالة الاقتصادية السيئة التي وصلت اليها البلاد.

وخيل الى تيبريوس أن موطن العلة يكمن في انهيار الطبقة الوسطى أو طبقة صغار المزارعين. وهو ما ان انتخب تريبوناً للعامة لعام ١٣٣ ق.م. حتى أخذ

يُعد العدة لتقديم مشروع قانون يكفل إعادة تكوين هذه الطبقة بنظره. وكانت تؤازره جماعة قوية من أعضاء مجلس الشيوخ.

وشمل مشروع قانون الأراضي الذي قدمه تيبريوس عدة نقاط منها:

١ ـ ان يحتفظ أصحاب الحيازة من الأرض العامة بـ ٥٠٠ يوجراً فقط، وأن يسمح لكل ولد من أولاده. الثلاثة بحيازة نصف هذه المساحة. وتعويضاً لأصحاب أرض الحيازة عما تسترده الدولة منهم، واقترح المشروع ألا يطرد الحائز مستقبلاً من أرضه، وألا يدفع عنها إيجاراً للدولة.

٢ ـ ان تسترد الدولة أرض الحيازة التي تزيد عن الحد المذكور أعلاه وتقسمها الى أنصبة ـ حصص ـ صغيرة تقوم بتوزيعها على فقراء المواطنين الرومان دون غيرهم، بشرط ألا يبيعوها، وتاركاً للجنة تقدير المساحة التي ستعطى لكل مواطن.

٣ ـ ان تنتخب لجنة ثلاثية Tresviri agris indicandis adsignandis لتحدد الأراضي الواجب استردادها، وتتولى توزيعها على المستحقين.

وعلى الرغم من أن مشروع تيبريوس لتوزيع الأراضي العامة كان محاولة معتدلة ونزيهة، بعيدة عن الظلم والحزبية، وهو لا يرمي إلا الى الاصلاح ومع ذلك فإن هذا المشروع صادف معارضة شديدة، ولاسيما من أصحاب الأراضي الواسعة، وعلى رأسهم أعضاء مجلس الشيوخ الارستقراطين. إلا أن أغلب أعضاء مجلس الشيوخ كانوا ضد أي مشروع للتغيير في الأوضاع القائمة. وأنهم منذ قام فلامينيوس في عام ٢٣٢ ق.م. بمحاولته الاصلاحية. صار أعضاء المجلس يعتبرون كل محالة لتوزيع الأرض العامة على فقراء المواطنين اتجاهاً ثورياً يستهدف اجراء تغيير في الحياة السياسية للسيطرة على مقاليد الحكم والانتقاص من سلطة مجلس الشيوخ.

ومشروع تيبريوس الذي أثار حفيظة الرأسماليين الزراعيين من رومان وحلفاء وعارضوه، فانه حاز رضى واعجاب فئات عدة من فقراء المواطنين وصغار المزارعين، وبخاصة من كانوا قد فقدوا أراضيهم وقدموا إلى روما للعمل

في المجالات الصناعية أو الخدماتية أو التجارية وحتى في أي عمل آخر، فقد هللوا للمشروع، لأنه كان من بينهم العدد الاكبر يريد العودة الى استئناف حياته السابقة في الزراعة، فضلاً عن كون أغلب هؤلاء كانوا مسجلين في قبائلهم الريفية الأصلية، وكانت لهم فيها أصوات كثيرة. وحبّذ المشروع أيضاً الناخبون في الريف فوفدت أعداد كبيرة منهم الى روما لاقراره. كما كان البعض الآخر من الأجراء يأملون بأن يصبحوا أرباب ملكيات صغيرة.

ولما اكتظت روما بجموع هائلة، لم تحفل لا من قريب ولا من بعيد بالقواعد والتقاليد الدستورية، ولا يعنيها من المشروع إلا تحقيق آمالها ورغباتها فضلاً عن ان جانباً كبيراً من هذه الجموع لا يستطيع البقاء في روما الى ما شاء الله بسبب دواعي العمل في الريف من جهة، وبسبب كلفة الاقامة في المدينة من جهة ثانية، لذلك فقدوا الصبر على الانتظار، والتريث في إفساح المجال امام المعارضة لتأجيل الموافقة على المشروع مرة بعد مرة.

ب ـ أغفل تيبريوس مجلس الشيوخ الروماني، وتقدم بمشروعه مباشرة الى جمعية القبائل بعد ما أشبع الرأسماليون الزراعيين مشروعه نقداً لاذعاً، وبعد ما توقع عدم موافقة مجلس الشيوخ عليه. ويعتبر هذا التصرف تحدياً لسلطة المجلس أجرأ من تحدي فلامينيوس في عام ٢٣٢ ق.م. الذي عرض مشروع القانون بتوزيع أراضي اقليم الغال على فقراء المواطنين على المجلس، ولما لم يوافق عليه، تقدم بمشروع قانونه الى جمعية القبائل مباشرة.

وعرض تيبريوس مشروع القانون بتوزيع الأراضي على جمعية القبائل لم يكن غير دستوري، انما يُعد قفزاً فوق العرف الذي كان يقضي بعرض كل التشريعات قبل اصدارها على مجلس الشيوخ واحترام رأيه فيما يعرض عليه. ولأن فلامينيوس قد أثار سخطاً كبيراً عليه عندما أغفل رأي مجلس الشيوخ في عام ٢٣٢ ق.م. فضلاً عن أن جمعية القبائل كانت في هذا العام ممثلة لسلطة الشعب مصدر السلطات، بينما هي في عام ١٣٣ ق.م. لا تعتبر كذلك ممثلة للشعب الروماني **Populus Romanus quiritium** بعد ما صارت تحت رحمة غوغاء روما، واغفال يبرويس لمجلس الشيوخ زاد في معارضة المجلس لمشروع القانون،

فلجأ الى أحد وسائلة المألوفة في عرقلة أي عمل لا يروق له، بأن حرّض أحد زملاء تيبريو وهو تريبون العامة غنايوس أوقتافيوس قايقينا[١] Gn, Octavius caeccina على استخدام حقه في مصادرة مشروع قانون تيبريوس عند عرضه على جمعية القبائل.

استجاب اوقتافيوس الى رغبة مجلس الشيوخ، فاستعمل حقه في الفيتو وصادر المشروع. فما كان من تيبريوس إلا أن ردَّ باستخدام حقه في منع مباشرة جميع الأعمال الرسمية. ثم يعود ليعرض مشروعه على الجمعية في اجتماعها الثاني بعدما أدخل على مشروعه بعض التعديلات التي ترهب خصومه حتى لا يستمروا في مناهضته، ومن ناحية أخرى الفوز من جمعية القبائل بتأييد كبير يضمن له إقرار المشروع وتنفيذه. لكن أوقتافيوس عاد واستعمل حق النقض فصادر المشروع مرة ثانية. الأمر الذي أدى الى مناقشة حادة بين تيبريوس وأوقتافيوس.

هذه المعارضة لم تمنع تيبريوس من أن يعاود الكرة مرة ثالثة في عرض مشروعه على الجمعية القبلية في اجتماعها اللاحق. لكن أوقتافيوس أصرَّ ايضاً على استخدام حقه في مصادرة المشروع. فاقترح تيبريوس أن تقرر الجمعية أيهما يجب أن يعتزل منصبه. لكن أوقتافيوس رفض الاقتراح بحجة انه مخالف للدستور. فناشد تيبريوس الجمعية ان تعزل زميله في الحال لوقوفه ضد مصالح الشعب، وهو المنتخب لرعاية مصالح الشعب والدفاع عن حقوقه. فاستجابت الجمعية الى طلب تيبريوس بعد حماس الجماهير لهذا الطلب.

وبدأت عملية الاقتراع التي تتم عادة على مرحلتين:

في المرحلة الاولى: تدلي القبائل جميعها بأصواتها في وقت واحد، وكل قبيلة منفردة. لتتبين كل منها رأي غالبيتها فيما هو معروض عليها (الجمعية).

في المرحلة الأخرى: تعلن كل قبيلة رأيها الواحدة بعد الأخرى وفقاً للترتيب الذي تحدده القرعة.

---

(١) A.E, Astin, Scipio Aemilianus, p.p 332 H. Scullard, 1970. n 10 p.388

وعلى الرغم من أن تيبريوس سأل زميله أوقتافيوس مرتين أن يعدّل موقفه قبل متابعة عملية ادلاء أصوات القبائل في مرحلتها الثانية، لم يتراجع عن موقفيه السابقين بمصادرة المشروع، فتتابعت عملية أعلان أصوات القبائل. وبمجرد إعلان موافقة القبيلة الثامنة عشرة على عزل أوقتافيوس، تقرر تنفيذه في الحال. وانتخبت جمعية القبائل بدلاً عنه تريبوناً آخر هو كونتوس مميوس Quintus Memmius ثم وافقت الجمعية على مشروع تيبريوس في الاجتماع ذاته. وهكذا أصبح مشروع تيبريوس قانوناً[1]، عرف بقانون سمبرونيوس الخاص بالأراضي Lex Sempronia agraria نسبة الى قبيلة أو أسرة تيبريوس وفقاً للعادة المتبعة.

وعندما أصبح مشروع تيبريوس قانوناً، انتخبت اللجنة الثلاثية، التي نص عليهما القانون لتتولى أمر تنفيذه. فتكونت من تيبريوس نفسه ومن أخيه غايوس وحميه ـ والد زوجته وزعيم البنيس سابقاً ـ أبيوس قلاوديوس على أن تكون مدة عضويتهما سنوية مع امكانية اعادة انتخاب اعضائها. فواجهته ليس فقط صعوبة استرداد الأرض العامة الزائدة على احكام هذا القانون، بل في ايجاد اعتمادات مالية لمساعدة ارباب هذه الاقطاعات الصغيرة للحصول على ما يلزمهم من بذور وماشية وأدوات زراعية ليتمكنوا من استغلال اقطاعاتهم. وبما ان المجلس هو القيم على الشؤون المالية رفض الموافقة على الاعتمادات اللازمة بعدما أثار تيبريوس ثائرة المجلس بالاساليب التي لجأ اليها لاقرار مشروعه.

وشاءت الصدف أن يصل مبعوث ملك برجام الذي أوصى قبل وفاته بأن تؤول الى روما مملكته وكنوزه. فقرر تيبريوس الإفادة من هذا الإرث في تنفيذ قانون الأراضي. لكنه اصطدم برفض المجلس أيضاً، وهو القيّم على الشؤون المالية والخارجية. فما كان من تيبريوس الا ان قرر التقدم الى جمعية القبائل بمشروع قانون للافادة من تركة أتالوس Attalus ملك برجام في تخصيص جزء من التركة لتنفيذ قانون الأراضي. وعلى ان يتقدم بمشروع قانون آخر يقضي:

---

(١) يعتقد ان تكون جمعية القبائل اقرت مشروع قانون تيبريوس في فبراير (شباط) او ابريل (نيسان) عام ١٣٣ ق.م راجع Scullard 1970 n.11 pp388-389.

بأن تتولى جمعية القبائل تنظيم شؤون مملكة برجام. فاغاظ ذلك مجلس الشيوخ ووافق مكرهاً على صرف الاعتمادات المالية اللازمة لتنفيذ قانون الأراضي: واضعاً علامة استفهام حول أهداف ومرامي تيبريوس.

رشح تيبريوس نفسه لتريبونية عام ١٣٢ق.م. يدفعه الى ذلك عاملان:

العامل الأول: حرصه على متابعة تنفيذ مشروع قانون الأراضي الذي أُقر.
العامل الآخر: خوفه من المحاكمة بعد انتهاء مدة تريبونيته بزوال الحصانة.

وازاء المخاوف التي استبدت بالنبلاء صمموا على استخدام كل وسيلة ممكنة لمنع اعادة انتخاب تيبريوس تريبوناً مرة ثانية. فبدأوا بحملة اشاعات ضده ترمي الى تغيير ملامح مراميه واهدافه الى الفساد والدكتاتورية مما أدى الى تناقص عدد مؤيديه. وعندما اجتمعت الجمعية فوق تل قابيتو لينوس لاجراء الانتخابات لوظيفة التريبونية، إعترض الأثرياء على اعادة تيبريوس ترشيح نفسه للمرة الثانية، ونشب الخلاف بين ترابنة العامة حول من سيرأس الاجتماع مما أدى بالتالي الى إرجاء انعقادها الى اليوم التالي. وفي اليوم التالي كرر الأثرياء معارضتهم لشرعية ترشيح تيبريوس نفسه للمرة الثانية فانحاز الى جانبهم عدد من ترابنة العامة.

عندها أراد تيبريوس أن يلعب لعبة الترغيب والترهيب، فأوعز الى أنصاره بأن يلتفوا حوله، وبالفعل أحاطوا به. ففسر بعضهم هذه الاشارة بأنها إيذاناً لاستخدام القوة. مما أدى الى وقوع بعض الشغب، وفرار الأثرياء وترابنة العامة وسط انتشار شائعتين فحواهما: أن تيبريوس عزل باقي الترابنة، وأعلن نفسه تريبوناً للعام التالي دون إجراء انتخابات. وبعد انقسام الأراء في مجلس الشيوخ الذي كان مجتمعاً في اثناء ذلك في معبد «ربة الايمان Fioles تقدم الكاهن الأكبر والقنصل السابق بوبليوس سقيبيو ناسيقا Nasica والمتطرفون من اعضاء مجلس الشيوخ مندفعين الى مكان انعقاد جمعية القبائل، وفي طريقهم إنضم اليهم عدد كبير من اتباعهم وعبيدهم المسلحين. فأرهب وصولهم عدد كبير من المجتمعين الذين فضلوا الانصراف تاركين العدد القليل جداً ممن احاطوا بتيبريوس. فالتحم

المهاجمون مع الباقين في عراك أدى الى قتل تيبريوس غراكوس و ٣٠٠ رجل من أنصاره.

٤ ـ غايوس غراكوس ومشاريعه الاصلاحية

كان غايوس غراكوس اصغر من أخيه تيبريوس بتسع سنوات، انما كان يشبهه في الذكاء وحرية الرأي والثقافة العالية. اختير عضواً في اللجنة الثلاثية، لقانون الأراضي وهو في سن الحادية والعشرين من عمره. وأظهر تأييده لحركة الاصلاح بمناصرته اقتراح «جاربو» الخاص باعادة انتخاب ترابنة العامة، ويمعارضة مشروع قانون «بنوس» الخاص بطرد الحلفاء من روما. ويتأييد مشروع قانون فلاقوس الخاص بتحرير الحلفاء. مما عده مجلس الشيوخ خطيراً، ولذلك عندما انتخب في عام ١٢٦ ق.م. كوايستوراً وافق على ارساله الى سردينيا لتولي عمله هناك ثم استبقي عاماً آخر، وفي نية المجلس إبقاؤه مدة أطول لولا ظهوره فجأة في روما قبل نهاية عام ١٢٥ق.م.، فوجهت اليه تهمة مغادرة عمله دون إذن من رئيسه. كما اتهم بالتحريض على ثورة «فرجلاي»، وذلك من اجل حرمانه من ترشيح نفسه تريبوناً للعامة، إلا أنه تمكن من تخطي هذه العراقيل والفوز في انتخابات عام ١٢٤ ق.م. لتولي أحد مناصب تريبونية عام ١٢٣ ق.م.

رأى غايوس أن سبب علة روما تكمن في النبلاء ومجلس الشيوخ الذي كان أداتهم لأنهم باحتكارهم الحقوق والمزايا السياسية والاجتماعية، أوقفوا نمو الدائرة التي تستوعب القادرين على حكم الدولة، وحدوا من عمل الجمعيات الشعبية، واستبقوا نظم الحكم العتيقة، بعد ان صارت بالية غير صالحة لمواجهة مشاكل روما المتزايدة. لذلك رأى غايوس أنه لا يمكن اصلاح شيء إلا بالحد من سلطان النبلاء، واحداث تغيير في علاقات المجلس بالحكام، وكذلك في علاقات روما بسكان ايطاليا.

وانطلاقاً من هذه المكونات رأى تأليف جبهة عريضة تجمع كل الطبقات المتذمرة من الحكومة وأنصارها، أي جبهة من الذين كانوا يودون العودة الى

فلاحة الأرض، ومن الذين كان كل همهم ان يعيشوا في روما، ومن طبقة الفرسان الذين ساءهم ألا ينتفعوا من الامتيازات التي احتفظ بها النبلاء فقط، ومن الرومان الأحرار الذين ساءهم سوء الادارة في الولايات، ومن حلفاء روما المتعطشين الى حقوق المواطنة الرومانية. فاعيد انتخابه تريبوناً لعام ١٢٢ ق.م. نظراً لشعبيته الكاسحة.

التزم النبلاء جانب الاعتدال إزاء تريبونيته الأولى، لكنهم نجحوا في استمالة زميل له لينافسه في أثناء تريبونيته الثانية في استهواء الجماهير. وبينما كان يعمل بكل قوته في سبيل تحرير الحلفاء وفي انتخابه تريبوناً مرة ثالثة لعام ١٢١ ق.م. وعندما صار غايوس مواطناً عادياً لقي حتفه في اثناء تحطيم النبلاء لما بناه.

وقد استصدر غايوس ونفذ بسرعة مجموعة من التشريعات في خلال تريبونيته وهي:

١ ـ قانون حماية المواطنين من محاكم مجلس الشيوخ غير العادية.

٢ ـ قانون ولايات القناصل.

٣ ـ قانونا اصلاح القضاء:

أ ـ قانون معاقبة المحلفين المرتشين.

ب ـ قانون اختيار المحلفين من الفرسان

٤ ـ قانون جباية ضرائب ولاية آسيا Lex Sempronia Provincia Asia.

٥ ـ قانون الأراضي Lex Agraria.

٦ ـ قانون القمح Lex Frumentaria.

٧ ـ قانون الجيش Lex Militaris.

٨ ـ قانون الطرق.

٩ ـ قانون انشاء المستعمرات للمواطنين الرومان.

١٠ ـ مسألة تحرير الحلفاء الايطاليين.

نجح خصوم غايوس في حرمانه من قطاف ثمار جهوده الأمينة على مشاريعه التي اوردناها أعلاه؛ وفي فشله عندما رشح نفسه للانتخابات في

صيف عام ١٢٢ ق.م. ليتولى التريبونية مرة ثالثة في عام ١٢١ ق.م. وان السبب الرئيسي في فشله في الانتخابات يعود الى تبنيه مسألة تحرير الحلفاء. فأوعز خصوم غايوس، في أول عام ١٢١ ق.م.، الى أحد ترابنة العامة، بأن يتقدم الى جمعية القبائل بمشروع قانون لإلغاء قانون روبريوس الخاص بانشاء مستعمرة «يونونيا». مما دفعه الى بذل قصارى جهده في مناهضة هذا المشروع. وكوّن حرساً خاصاً من أكثر أنصاره وفاء له. لم يلبث ان وقع بين أنصار غايوس، وخصومه شجاراً، أدى الى قتل أحد مساعدي القنصل أوبيميوس.

استغل خصومه هذا الحادث للقضاء عليه وعلى أنصاره قضاء تاماً فاصدر مجلس الشيوخ قراره الخاص بضرورة حماية الدولة الى القنصل أوبيموس الذي دعا أعضاء مجلس الشيوخ واتباعهم وعبيدهم الى تسليح أنفسهم. ودعا الزعيمين غايوس وفلاقوس الى المثول امام المجلس. فرفض الزعيمان المذكوران المثول وأصرّ القنصل من جهته على ألا يتفاوض إلا مع الزعيمين نفسيهما. ثم إقتحم اوبيميوس «تل أفنينوس» الذي اعتصم فيه الزعيمان غايوس وفلاقوس وانصارهما، بالقوة التي أعدها. وفي اثناء الاشتباك بينهما لقي فلاقوس وابنه وغايوس وكثيرون غيرهم مصارعهم، وألقي القبض على كثيرين آخرين وأودعوا السجن، ثم أعدموا أخيراً. فذهب ضحية هذه التصرفات حوالى ٣٠٠٠ والقيت جثثهم في نهر التيبر.

٥ ـ غايوس ماريوس واصلاحاته العسكرية.

أبصر النور غايوس ماريوس Gaius Marius في عام ١٥٧ ق.م. وكان ينتمي الى اسرة ريفية ايطالية كانت تعيش في قرية قرتاي Createae بضواحي بلدة أربينيوم Arpinum إحدى بلاد قبائل الفولسقي التي منحت فيما بعد حقوق المواطنة الخاصة في عام ٣٠٣ ق.م. وحقوق المواطنة كاملة في عام ١٨٨ ق.م.، فأصبحوا مواطنين رومان كاملي الأهلية، وأدمجوا في عداد قبيلة قورنيليا Tribus Cornelia.

انخرط ماريوس في سلك الخدمة العسكرية، وحارب تحت قيادة سقيبيو

آيميليانوس في حرب نونانتيا. وقد خدم في فرقة الفرسان لأن أسرته كانت على قدر من الثراء على الرغم من عملها في الزراعة بحكم بيئتها الريفية. اكتسب غايوس ماريوس في هذه الحرب بفضل شجاعته ومهارته ثقة قائده وتقديره، فكافأه على مواهبه العسكرية بترقيته الى مرتبة تريبون عسكري Tribunus Militaris. وبعد وفاة سقيبيو رعت ماريوس أسرة متلوس Matelli التي تتمتع بأكبر نفوذ في الدولة الرومانية، التي بفضلها انتخب ماريوس في العام ١١٣ ق.م. أحد ترابنة العامة. فكان ذلك بداية لتاريخ حياته السياسية في مجرى التاريخ الروماني.

وعندما اصبح ماريوس تريبوناً للعامة، اقترح مشروع قانون من شأنه الاقلال الى ادنى حد ممكن من فرص التأثير على المواطنين عند الادلاء بأصواتهم. فأثار هذا المشروع مجلس الشيوخ، واتخذ قراراً باستدعاء ماريوس أمامه لتفسير سلوكه. فمثل ماريوس امام المجلس وهو يتجلى بثقته بنفسه، ورباطة جأشه. ولما احتدم النقاش، وانتصر متلوس لزميله القنصل ولمعارضي مشروع القانون. أمر فوراً ماريوس بالقاء القبض على القنصليين، فانهارت المعارضة، ومضى في سبيله، واستصدر قانونه Lex Tabellaria.

كان غايوس ماريوس قد تزوج «جوليا» Julia ابنة سكيتوس قيصر الذي أصبح قنصلاً في عام ٩١ ق.م.، وعمة يوليوس قيصر، فاكتسب تأييد أسرة رومانية عريقة. ثم نجح في عام ١١٦ ق.م. في الانتخابات لتولي منصب البرايتورية بعدما فشل في عام ١١٧ ق.م. لتولي منصب الأيديلية. فلم يقم ماريوس بأي عمل في خلال برايتوريته عام ١١٥ ق.م.، ولكنه عندما أرسل في العام ١١٤ ق.م. ليتولى حكم ولاية اسبانيا القاصية بوصفه قائما مقام برايتور Pro Proetore استطاع ان يحفظ الأمن وينشر العدل والسلام في مختلف انحاء ولايته.

وفي عام ١٠٩ ق.م. تولى الحرب ضد بوغورتا القنصل كوينتوس قايقيليوس متلوس الذي اختار مساعديه من أكثر الرومان خبرة وتمرساً بالقتال. وكان هذان المساعدان غايوس ماريوس، وبوبليوس روتيليوس روفوس الذي

كان قد ألّف كتاباً عن التدريب العسكري. فقسم متلوس في نوميديا ـ بافريقيا ـ قواته قسمين: تولى بنفسه قيادة أحدهما وتولى ماريوس قيادة القسم الثاني. فأظهر في كل العمليات التي شارك فيها شجاعة فائقة وكفاية ممتازة. وفي اثناء وجوده في نوميديا طالب مراراً متلوس السماح له بالذهاب الى روما لترشيح نفسه الى منصب القنصلية لكن متلوس كان يمانع بحجة عدم أهلية ماريوس وانه لم يسبق ان تولى القنصلية أحد أبناء اسرته. فنشبت بينهما حرب اتهامية في التقصير عن إنهاء الحرب لبقاء متلوس أطول مدة في السلطة البروقنصلية.

واخيراً سمح متلوس لماريوس بالذهاب الى روما بعد أن ضاق ذرعاً من صبره، وذلك قبل موعد الانتخابات في عام ١٠٨ ق.م. باثني عشر يوماً فقط. فتمكن ماريوس من الوصول الى روما والفوز بالانتخابات القنصلية.

وقرر الشعب بأغلبية كبيرة إسناد قيادة الحرب ضد بوغورتا الى القنصل الجديد ماريوس على الرغم من أن مجلس الشيوخ كان قد أصدر قراراً باطالة مدة بروقنصلية متلوس والابقاء على قيادته للجيش.

لم يعتمد غايوس ماريوس بقيادة الحرب على قوات من الحلفاء[١]: اللاتين والايطاليين والدول الخاضعة لنفوذ روما كما فعل متلوس منذ عامين. بل فتح باب التطوع أمام كل مواطن روماني مهما يكن حظه من الثروة ـ لم يسمح في السابق بالدخول في الجيش إلا لمن كان يملك الحد الأدنى لنصاب الثروة اللازم للتجنيد ـ فاكتسب إعجاب الجماهير ورغبتهم في الخدمة تحت قيادته، حتى اجتمع تحت إمرته قوات كانت أضخم مما اقترحه اصلاً، وأغلب هذه القوات من أفقر المواطنين، وأبحر الى أفريقيا ليتسلم القيادة في أوتيقا من بوبليوس روتيليوس روفوس المساعد الآخر لمتلوس، لأن القائد السابق تفادى مقابلة ماريوس، وعاد الى روما حيث احتفل عام ١٠٦ ق.م. بانتصاراته غير النهائية على بوغورتا وحمل لقب «نوميديقوس»...

ولما وصل بعد ذلك «صولا» الكويستور على رأس قوة من الحلفاء اللاتين

---

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ٩/٢٤٩ ـ ٢٥٢.

والايطاليين، وبعد عدة انتصارات حققها ماريوس على عدوه الملك «بوكوس» أرسل صولا ومانيليوس لمفاوضة الملك بوكوس بناء لطلب الأخير اتفق صولا معه على إلقاء القبض على بوغورتا وتسليمه اليهم مقابل كسب رضاء الرومان وصداقتهم، فنزل الملك بوكوس عند ارادة صولا وتفاهم معه على التدابير الواجب اتخاذها. فكانت الخطة ان يتفق بوكوس وصولا وبوغورتا على عقد اجتماع للتفاهم على شروط الصلح. وانه تفادياً لاثارة شكوك صولا يجب ان يحضر بوغورتا غير مسلح، وفي رفقة عدد قليل من أتباعه. فوافق بوغورتا على أمل ان يقبض هو على صولا وليس العكس، وتم الاتفاق على تحديد موعد الاجتماع ومكانه. وفي الموعد المحدد أقبل بوغورتا على النحو المتفق عليه مع بوكوس حيث أطبق عليه رجال الملك وأتباعه وألقوا القبض على بوغورتا ومن بقي ممن كان معه وسلموا جميعاً الى صولا. وهكذا راح بوغورتا ضحية خديعة. وانتهت الحرب في خلال النصف الأول من عام ١٠٥ ق.م.

عندما علم الرومان بأن الحرب في نوميديا انتهت، وبأن بوغورتا كان في طريقة الى روما أسيراً إنتخبوا ماريوس في غيابه قنصلاً وأسندوا اليه قيادة الحرب في بلاد الغال. علماً ان انتخاب ماريوس لقنصلية عام ١٠٤ ق.م. كان مخالفاً للقواعد والتقاليد التي تقضي:

- تقدم المرشح شخصياً للانتخابات.
- تولي ذات الوظيفة مرتين بعد أن يمر عشر سنوات على الأولى.

ومخالفاً لقانون تنظيم تولي الوظائف العامة واحكام قانون منتصف القرن الثاني قبل الميلاد والذي قضى:

ألا يتولى أحد القنصلية مرتين.

أما اصلاحات ماريوس العسكرية فتتمثل في أنه أول من أدخل التطوع بدلاً من الخدمة الإجبارية، ووحد تسليح الجنود بحيث أصبح كل منهم يحمل سيفاً وحربة طويلة Pilum ، وجعل لكل فرقة وكذلك لكل كتيبة في الجيش علمها الخاص بها، وأوقف تشكيل قوات المشاة الخفيفي العدة Velites من المواطنين

الرومان واعتمد بدلاً عنهم على الليجوريين وعلى المرتزقة، من الكريتين وظل الفرسان المورد الذي كان القواد يختارون منه ضباطهم وحرسهم الخاص ثم صاروا فيما بعد خيالة الجيش الروماني بعد ما اصبحت الدولة تعتمد باطراد على الحلفاء الايطاليين ثم على النوميديين والتراقيين، ثم على الغال وغيرهم في تزويد الجيش بقوات الفرسان.

وبعد أن استعمل الرومان نظام الكتائب في الجيش بدلاً من الفصائل في القتال والمناورة، خطا ماريوس خطوة حاسمة، في هذا الاتجاه بجعله النظام الاساسي للفرق الرومانية، على أن تتألف الفرقة من ٦٠٠٠ جندي ينتظمون في عشر كتائب؛ وأصبحت كل كتيبة تتألف من ثلاث فصائل. وكل فصيلة من سريتين أو مئينين Centuriue . وقد ترتب على وفرة المجندين المتطوعين الذين اتخذوا من الجندية حرفة لهم، وعلى تنظيمهم في وحدات قتالية قوية، وعلى تدريبهم تدريباً عالياً، وعلى تمرسهم بالقتال عام بعد عام، ان أصبح لروما جيش مشاة من مواطنيها لا يدانيه جيش آخر في العالم القديم. فأثبت جدارته في اكثر من موقف بانتصاره على قبائل الكمبري Cambri والتوتون Tonton في السنتين ١٠٢ و ١٠١ ق.م. بفضل التدريب المتواصل، لأن ماريوس أطال مدة الخدمة فجعلها عشرين سنة مبعداً بذلك طبقة النبلاء، معتمداً كما ذكرنا على طبقات الشعب السفلى. فزاد العامة قوة واضعف الخاصة أو البطارقة والنبلاء فأصبحت الخدمة العسكرية مهنة يمتهنها الجنود والضباط متكافلين متآخين مرتبطين بقائد فرد يحافظ على مصالحهم ويقودهم الى النصر والعزة.

فولاء الجندي بقي للقائد وليس للدولة ـ لانها بقيت بعيدة عن هذا التنظيم باتخاذها موقفاً سلبياً منه ـ فهو الذي يكافىء جنوده بما يحصل عليه في اثناء الحرب من غنائم واسلاب، وبما يستطيع الحصول عليه من الدولة بعد الانتصار في الحرب لتحسين حال جنوده.

٦ ـ مورينيليوس صولا واصلاحاته.

هذا الولاء للقائد جعل ماريوس[1] يستخدمه في عدة جولات من الحرب الأهلية ضد قائد آخر هو لوقيوس قورنيليوس صولا Lucuius Cornilius Sulla الذي انتخبته الجمعية الشعبية قنصلاً في السنة ٨٨ ق.م. وأنيطت به قيادة الجيوش الرومانية في الشرق لتأديب ميترادتس، ودفع خطره لما اقترح التريبيون سولبيكوس روفوس عقد اللواء في الشرق لماريوس[2]. فغضب صولا لكرامته، ولمصلحة الارستقراطية، وقام على رأس الفرق الست التي كان حشدها في «قابوا» Capuiaللابحار الى الشرق. واتجه نحو روما نفسها فسجل بعمله هذا أول لجوء الى القوة العسكرية داخل روما العاصمة. وفرَّ ماريوس ومَنْ شد أزره. وتربع صولا في دست الحكم، ودبر الأمور قدر المستطاع. وامتدت الجولات بين القائدين بين كر وفر من سنة ٨٨ الى سنة ٨٢ ق.م. تبادل القائدان فيها السيطرة على مدينة روما الى ان استولى صولا عليها نهائياً بقوة جيشه. وأُجبر الناس على الاعتراف به دكتاتوراً لأول مرة بعد مئة وعشرين سنة تقريباً.

فذبح من ذبح من وجوه العامة والايطاليين، وصادر ما صادر، ووزع ما وزع على جنوده. ثم جلس صولا يشترع، وفي رأيه أن الأوضاع لا يمكن ان تستقر إلا إذا وضع من النظم ما يكفل استعادة الشيوخ مكانتهم القديمة فأخذ صولا في الاعتبار:

---

(١) انتخب ماريوس لمركز القنصلية ٦ مرات بين السنة ١٠٦ ـ ١٠٠ ق.م لكنه اضطر في نهايتها الى التنازل عن السيادة الى مجلس الشيوخ. وعلم العامة كيف يفوزون على المجلس والنبلاء = بوقوفهم واجماع كلمتهم حول قائد حربي لا تقوم سلطته بالطرق السلمية بل بالطرق العسكرية واستعمال القوة، اي بالطرق غير المشروعة.

(٢) ثم انتخب ماريوس للقنصلية السنة ٨٧ ق.م، فعاد الى روما مع جنوده وشرع في مذبحته التي ذهب فيها كثيرون من زعماء مجلس الشيوخ.

أولاً: ضرورة تزويد مجلس الشيوخ بسند دستوري يبرر سيطرته على شؤون الحكم وضرورة تطعيمه بدماء جديدة تساعده على اداء مهمته.

ثانياً: أن أقوى أداة في مناهضة مجلس الشيوخ كانت تريبونية العامة.

ثالثاً: ان نظام تولي الوظائف العامة لم يراع بدقة، وان بعض الحكام كثيراً ما أساءوا استخدام سلطتهم.

رابعاً: ان باستخدامه القوة للسيطرة على الحكم قد ضرب المثل السيء الذي يجب ان يحسب له حساباً. وعلى الرغم من أن صولا قد أصبح سيد روما وايطاليا بأسرها من ناحية الأمر الواقع de facto ودكتاتورها من الناحية القانونية de iure. وهو كي يضفي على النظم التي تراءى له وضعها طابعاً قانونياً يكسبها صفة الدوام لم يصدرها بقرارات منه، وانما فضل أن يرعى القواعد الدستورية وان يستصدر بها قوانين Leges Corneliae من جمعية المئينات. ان تشريعات صولا واستصدار قوانين بها قد تم تباعاً في خلال عامي ٨١ و ٨٠ ق.م.، ويمكن تقسيم دستور صولا أو اصلاحاته الى ثلاثة اقسام هي[1]:

القسم الأول: تشريعات لدعم سيطرة السناتو أو مجلس الشيوخ.

١ ـ زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ.

٢ ـ الحد من صلاحية ترابنة العامة، ضمن الاجراءات التالية:

ـ من يتولى تريبونية العامة لا يحق له على الاطلاق ان يتولى بعد ذلك وظيفة عامة.

ـ قيد سلطتهم، بضرورة حصولهم على موافقة المجلس، قبل تقديم أي مشروع قانون الى الجمعية الشعبية.

ـ قصر حق الترابنة في الاعتراض على بطش الحكام ذوي السلطة التنفيذية Imperium.

٣ ـ تقييد سلطة الحكام

(١) ول ديوارانت قصة الحضارة ٩/٢٥٦ ـ ٢٦٠.

أ ـ تنظيم تولي الوظائف العامة.
ب ـ تضييق اختصاصات القنسورس
جـ ـ تقييد حكام الولايات.
٤ ـ اختيار أعضاء الجماعات الدينية.

القسم الثاني: نظم إدارية ومالية واجتماعية.

١ ـ جعل منطقة غالياقيس ألبينا الولاية العاشرة الرومانية.
٢ ـ زاد عدد البرايتورس الى ثمانية: يتولى اثنان القضايا المدنية والستة الباقون رئاسة المحاكم الجنائية الجديدة التي أنشأها صولا.
٣ ـ بعد انتهاء العام الأصلي يتوفر من القنصلين والبرايتورس الثمانية عدد كاف لتغيير حكام الولايات الرومانية العشر في كل عام بقدر ما تسمح به الظروف.
٤ ـ زاد عدد الكوايستورس الى عشرين لتوفير عدد كاف من الموظفين لمباشرة الشؤون المالية في الدولة.
٥ ـ ألغى صولا قانون بيع القمح بسعر أقل من سعر السوق وليعوض عما خسرته الدولة في الحروب فرض ضرائب جديدة على الولايات والدول التابعة لروما، دون أن يحترم الاعفاءات التي سبق لبعض المدن التمتع بها.

القسم الثالث: النظام القضائي

بمقتضى قوانين صولا القضائية أصبح يوجد سبع محاكم جنائية عامة.

١ ـ محكمة جرائم القتل المُتَعَمّد، ودس السم Quaestio de Sitariis et Veneficis
٢ ـ محكمة الاعتداء على الشخص Quaestio de iniuriis أو Quaestio iniuriour
٣ ـ محكمة التزوير والتزييف Quaestio de falsis
٤ ـ محكمة استرداد الأموال المبتزة Quaestio Servilia de Rebus Repetundis

٥ ـ محكمة اختلاس الأموال العامة Quaestio peculatus

٦ ـ محكمة الرشوة في الانتخابات Quaestio de ambitu

٧ ـ محكمة الخيانة العظمى Quaestio Maiestatis

وعندما فرغ صولا من تشريعاته في خلال عام ٨٠ ق.م. اعتزل الحكم من تلقاء نفسه في مطلع العام التالي وسرح حرسه الخاص معتمداً على ولاء معتقيه وقدماء محاربيه. فقضى بقية حياته في قصره الريفي في ضيعته بقمبانيا، يلهو في تمضية الوقت بين الصيد والقنص والملذات، وبين قراءة الأدب وكتابة مذكراته. وفي عام ٧٨ ق.م. توفي صولا في الستين من عمره. وشيع جثمانه في موكب جنائزي رسمي كبير الى مثواه الأخير في ساحة الإله مارس Marsفي روما. ونقش على قبره بناء على طلبه عبارة معناها: «لم يفقه صديق في حسن الصنيع ولا عدو في شدة الانتقام».

ثم بزغ نجم قائدين جديدين هما: غايوس بومبايوس G.Pompiusوغايوس يوليوس قيصر Gaius Julius Caesar ابن غايوس يوسس يوليوس قيصر وحفيد ملوك روما المؤلهين، وهو ابن أخي سكستوس القنصل العام ٩١ ق.م.

٧ ـ غايوس بومبايوس

بعد وفاة صولا عاد الشعب الروماني الى المطالبة بحقوقه المسلوبة، فوضع الأمانة، بين يدي الزعيم العسكري هذه المرة والمدعو غايوس بومبايوس أحد الضباط المساعدين لصولا، والذي اشتهر بعد الإنتصارات الحربية المذهلة على بروتس[١] في موتينا Mutina حيث أرغمه على التسليم ثم أمر باعدامه. وبناء على اقتراح فيليبوس ـ أحد قنصلي عام ٩١ ق.م. قرر مجلس الشيوخ منح بومبايوس سلطة بروقنصل Imperium Proconsulate ليتولى بمقتضاها حكم

(١) كان بروتس مساعداً لليبدوس الذي اعتبره مجلس الشيوخ بقراره النهائي عدواً للدولة وكلّف كوينتوس لوتاتيوس فاتولوس بمقاتلة ليبدوس. وجعل بومبايوس بروبرأيتور لمحاربة بروتس مساعد لبيدوس.

ولاية اسبانيا الدانية، وقيادة الجيش فيها. وهكذا نرى أن خروج مجلس الشيوخ على دستور صولا بمنح بومبايوس قيادة عسكرية - برو برايتور Imparium Propraetoreعليا لقمع بروتس أدى الى إرغامه على الخضوع لمطالب بومبايوس ومنحه قيادة عسكرية أعلى - برو قنصل - خروجاً على الدستور مرة ثانية وخطوة خطيرة نحو إنحلاله.

ومهما يكن، فقد واجهت مجلس الشيوخ أزمة سياسية حادة بعد إخماد ثورة العبيد في صقلية، والانتصارات على الثائرين في اسبانيا. فزحف بومبايوس صوب روما دون أن يسرّح جيشه، وطالب في حق إقامة موكب نصر كبير Triumphus لاخماده الثورة في اسبانيا، والسماح له بترشيح نفسه لقنصلية عام ٧٠ ق.م. وطبقاً للعرف والقواعد الدستورية لم يكن يحق لبومبايوس إقامة موكب نصر كبير لأنه لم يكن قنصلاً ولا برايتوراً، كما انه كان لا يحق له تولي القنصلية، لأنه لم يسبق له تولي وظيفتي الكوايستورية والبرايتورية. فضلاً عن أن عمره يقل ست سنوات عن السن المقررة لتولي القنصلية[1].

ويبدو أنه عندما رفض مجلس الشيوخ السماح لبومبايوس وقراسوس بترشيح نفسيهما للقنصلية. تولى بومبليوس معالجة الموقف بأن ألهب حماس الجماهير بالمناداة بضرورة إعادة اختصاصات الترابنة كاملة، وكسب رضاء الفرسان بضرورة اعادة اصلاح نظام تشكيل هيئات المحلفين. وازاء وجود جيشهما على أبواب روما، وتأييد العامة والفرسان لهما انصاع مجلس الشيوخ اخيراً لمطلبهما فرشحا نفسيهما وانتخبا قنصلين لعام ٧٠ ق.م. فكان ذلك نذيراً بتجدد الحرب الأهلية وسير النظام الجمهوري الروماني نحو الانهيار، وفشل دستور صولا في منع الجيش من التدخل في الحياة السياسية الرومانية.

واتفق القنصلان الجديدان بومبايوس وقراسوس على الاصلاحات التالية:

١ ـ اعادة الصلاحيات كاملة الى الترابنة.

٢ ـ اعادة حقوق المواطنة الى انصار لبيدوس.

---

(١) لا يصبح قنصلاً الا من بلغ عمره ٣٧ عاماً قبل الاخوين غراكوس، و٤٣ عاماً بعدهما.

٣ ـ اصلاح نظام تشكيل هيئات المحلفين.

٤ ـ اعادة الصلاحيات كاملة الى القنسورس.

٥ ـ استخدام مهارة هورتنسيوس لتبرئة فرس Verresلم تنفع.

٦ ـ اشكالية تشكيل هيئات المحلفين.

كان من اهم تشريعات عام ٦٧ ق.م. قانون استصدره جابينيوس قضى باسناد مهمة اخضاع القراصنة في البحر المتوسط بأسره، وعلى ان يتمتع الى جانب ذلك بسلطة معادلة لسلطة حكام Aequum الولايات الساحلية لمسافة تمتد خمسين ميلاً في البحر في كل ولاية من هذه الولايات، وأن يوضع تحت إمرته مبلغ قدره ٦٠٠٠ تالنت ـ حوالى مليون ونصف مليون جنيه استرليني ـ و ٥٠٠ سفينة، و ١٢٠ ٠٠٠ مقاتل من المشاة، و ٥٠٠٠ من الخيالة، وأربعة وعشرين مساعدين بمرتبة بروبرايتور، وكوايستورين. وبمجرد إسناد مهمة محاربة القراصنة الى بومبايوس هبطت أسعار القمح. وعلى الرغم من انه لم يستخدم إلا قسماً قليلاً من القوات التي وضعت تحت إمرته. فان الحملة التي شنها على القراصنة في عام ٦٧ ق.م. قطعت دابرهم في البحر الأبيض المتوسط بأجمعه بمدة لا تزيد على ثلاثة أشهر. فقضى على القراصنة في الحوض الغربي للبحر المتوسط في خلال أربعين يوماً قضاء تاماً. وفي خلال حملة دامت تسعة واربعين يوماً طهر بومبايوس الحوض الشرقي من القراصنة، بعد أن انزل باسطولهم هزيمة فاصلة قرب «قوراقسيوم» وحاصر القلعة المنيعة حصاراً شديداً، أرغمها على التسليم. ثم لم يلبث أن أعقب ذلك تسليم القراصنة، في كل أنحاء قيليقيا.

وبينما كان بومبايوس في قيليقيا، أسندت اليه قيادة الحرب في آسيا، فذهب شمالاً ليلتقي بلوقولوس. ويتسلم بومبايوس البقية الباقية من جنوده عدا فئة قليلة، سمح لها بأن يصحبوا القائد المخلوع. وفي صيف عام ٦٦ ق.م. أمر بومبايوس اسطوله بمحاصرة شواطىء آسيا الصغرى، وقام هو بغزو بونطوس ويقضي على ميتريداتس بعد حصار دام ٤٥ يوماً في بلدة «داستيرا» Dasteira المنيعة. ثم سلمت اليه أرمينيا، دون قيد أو شرط. ثم اتجه صوب الجنوب الشرقي، فأكمل اخضاع الإيبريين والألبانيين، واستمر في زحفه شرقاً، حتى

اقترب من بحر قزوين. وقفل بعد ذلك عائداً لمحاربة ميتريداتس ثم ترك لاسطوله مهمة تشديد الحصار على الأخير واتجه الى سوريا حيث كانت الفوضى تغشاها. فواجهت بومبايوس في سوريا مشكلة الأخوين هورقانوس Hyrcanus وأريسطو بولوس الثاني Aristobulus على عرش امارة اليهود، وتدخل النبط في هذا النزاع الذي سوي مؤقتاً بانتصار جابينيوس وسقاوروس - مساعدي بومبايوس - لأصغر الأخوين وهو أريسطو بولوس. وإزاء ذلك تفرغ بومبايوس في خلال ما بقي من عام ٦٤ ق.م. لنشر لواء الأمن واستقرار الأوضاع في سوريا بارسال عدة وحدات من قواته لقطع دابر قطاع الطرق ودك معاقل القراصنة على الشاطىء، واخضاع حكام الولايات المختلفة.

وبعد استكمال سيطرته على بيت المقدس عاد في اواخر عام ٦٣ ق.م. لقضاء فصل الشتاء في أميسس، والعام التالي في أسيا الصغرى حيث قام بتنظيم شؤون الشرق الأوسط على الشكل التالي:

أولاً: الحاق الأجزاء التي تقتضيها الضرورات العسكرية الى الامبراطورية الرومانية.

ثانياً: الابقاء على الممالك والامارات والمدن الموالية لروما تحكم نفسها وفق تقاليدها.

ثالثاً: الاعتراف بضرورة تقوية الممالك والامارات والمدن الواقعة في شرق آسيا الصغرى ووسطها، ومصادقة أرمينيا الكبرى عدوة بلاد فارس.

رابعاً: الاحتفاظ بالحياة الحضرية في آسيا الصغرى وفي سوريا.

وتبعاً لذلك لم يدخل بومبايوس في حظيرة الامبراطورية الرومانية إلا سوريا التي حَوّلَها ولاية رومانية جديدة.

الفصل الثاني عشر

سقوط الجمهورية الرومانية

١ ـ يوليوس قيصر واصلاحاته

ولد غايوس يوليوس قيصر في روما عام ١٠٢ قبل الميلاد، وتزوج وهو لا يزال في السابعة عشرة من «قورنيليا» بنت «قنا» Canna معلناً تمسكه بأهداف العامة لا النبلاء. فأوعز اليه صولا بالطلاق. فامتنع، وفرَّ الى بثينة في الشرق. وعند وفاة صولا في العام ٧٨ ق.م. عاد يوليوس قيصر الى روما وتعاطى السياسة. فلفت الانظار بفصاحته وقوة حجته عندما اتهم «دولابلا» Dollabella بابتزاز الأموال في مقدونيا.

ثم لما أمَّ رودوس ليدرس البيان على «مولو» Molo كما فعل شيشرون، فاختطفه فرسان من قيليقيا وهو في طريقه الى الجزيرة. فأفتدى نفسه، وأفلت منهم، وعاد الى هؤلاء على رأس قوة صغيرة فقبض عليهم وصلبهم في مدينة برجاما.

وتشاء الظروف في العام ٦٨ ق.م. أن كانت وفاة قورنيليا زوجة يوليوس قيصر، وجوليا أرملة ماريوس عمته، في اثناء تأهبه للذهاب الى اسبانيا ليتولى عمله في ولاية اسبانيا القاصية بوصفه كوايستوراً. فانتهز فرصة تشييع جنازة عمته ـ جوليا ـ ليكسب لنفسه شعبية كبيرة تفيده في بناء مستقبله السياسي. فعرض في موكب الجنازة صور Imagines البطل الشعبي ماريوس. فكان عمله هذا تحدياً لمجلس الشيوخ، واعلاناً صريحاً عن ميوله واتجاهاته الشعبية. لاكتساب رضاء الشيوخ الذين كانوا لا يزالون من أنصار ماريوس. وفي خطاب التأبين الذي ألقاه قيصر أشاد بأصل عمته للإشادة بأصل أسرته، فذكر أنها تتحدر من ناحية الأم عن الملك أنقوس Ancus أحد ملوك روما القدماء ـ ومن

ناحية الأب عن الإلهة فينوس Vinus والدة المؤسس الأسطوري لمدينة روما. وكان يقصد من وراء ذلك ابراز أمرين: أولهما، الفارق بين سلالة اسرة يوليوس قيصر وبين سلالات الأسر الأخرى العريقة التي أوغلت في الفساد. والأمر الآخر، هو أن ميول أسرة يوليوس قيصر كانت ميولاً شعبية على عكس غيرها من الأسر العريقة. ولم يكن آنذاك أحب الى الشعب من رجل عريق الأصل شعبي الميول وفوق مستوى الشبهات. ثم إنصرف الى اسبانيا في أولى مهماته السياسية الرسمية.

بعد ذلك انتخب يوليوس قيصر عضواً في طغمة الكهنة، وتعاون مع القنسور قراسوس لمجابهة بومبايوس بعدما أصبح قيصر أيدليس لعام ٦٥ ق.م. فشهدت روما من الحفلات والمآدب ما لم ترَ له مثيلاً من قبل، ويعود الفضل في ذلك كله الى يوليوس قيصر، وازداد محبة وشعبية بين العامة لأنه أعاد إقامة الأنصاب التذكارية لانتصارات ماريوس على بوغورتا والتيوتون والقيمبري والتي كان صولا قد أمر بازالتها. وتولى امانة الأبنية العمومية في السنة ٦٤ ق.م.

تقدم قراسوس بايعاز الى أحد ترابنة العامة، بمشروع قانون يقضي بتحويل مصر الى ولاية رومانية واسناد هذه المهمة الى يوليوس قيصر، وجعلها قاعدة عسكرية ضد بومبايوس أو على الأقل لاستخدامها في المساومة معه. فوقف بعض النبلاء وشيشرون بصورة خاصة ضد هذا المشروع لأنه كان صديقاً لبومبايوس ومن أقوى مؤيديه، فضلاً عن كونه ينتمي الى طبقة الفرسان الذين عارضوه أيضاً.

تمكن يوليوس قيصر بفضل ذكائه ان يصير كاهناً أكبر بعد ما توفي الكاهن الأكبر وشغر المركز الذي كان يشغله كوينتوس متلوس بيوس في العام ٦٣ ق.م. ثم لم يلبث ان نجح يوليوس قيصر بفضل الرشوة في الانتخابات لوظيفة البرايتورية لعام ٦٢ ق.م.

وفي شهر ديسمبر ـ كانون أول من عام ٦٢ ق.م. أقيم في المسكن الرسمي للكاهن الأكبر ـ يوليوس قيصر ـ حفل الالهة الطيبة Bona Dea. ووفقاً للتقاليد

كان حضور هذا الحفل مقصوراً على النساء دون الرجال، ولكن الشاب النبيل العابث بوبليوس قلوديوس تسلل الى هذا الحفل متخفياً في لباس امرأة، لأنه كان يعشق «قورنيليا» زوجة يوليوس قيصر الكاهن الأكبر. وكانت والدة قيصر تقف عقبة كأداء في سبيل العاشقين. وعندما كشفت خادمة أمر قلوديوس أوقف الحفل وشاع الخبر في روما. ولما كانت الطقوس التي اعتدي على قدسيتها عملاً عاماً فإن مجلس الشيوخ اتخذ منها ذريعة للتشهير بيوليوس قيصر ومعاقبة قلوديوس. لكن المحاكمة انتهت بتبرئة الثاني على الرغم من الأدلة وشهادة شيشرون بينما اكتفى الأول بطلاق زوجته لأن «زوجة قيصر يجب أن تكون فوق مستوى الشبهات» وسارع الى ولاية إسبانيا القاصية ليتولى حكمها في عام ٦١ ق.م.

رجع يوليوس قيصر من اسبانيا ورشح نفسه لقنصلية عام ٥٩ ق.م. فانتخب قنصلاً على الرغم من معارضة النبلاء وبعض الفرسان، وطالب مجلس الشيوخ السماح له باخضاع مصر وتحويل دخلها السنوي الى خزانة روما. لكن المجلس رفض السماح له بتحقيق ذلك، مما أدى به الى التحالف مع قراسوس وبومبايوس، فنشأ بينهم ما سمي «بالحلف الثلاثي» الذي كان فيه يوليوس قيصر «العقل المدبر» و «الرئيس الحقيقي» بينما إرضاء لغرور بومبايوس أوهمه بأنه الرئيس وصاحب الأمر والنهي. وقد أصدر يوليوس قيصر في قنصليته الأولى عام ٥٩ ق.م. التشريعات التالية[1]:

١ ـ قانون الأراضي Lex Julia Agraria توزيع أراضٍ صالحة على جنود بومبايوس.

٢ ـ قانون أرض قمبانيا Lex Julia Campana يقضي بتوزيع الأرض العامة في قمبانيا.

٣ ـ تشريعات أخرى: أ ـ إقرار تنظيمات بومبايوس في الشرق.

---

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ٩/٣٨٧.

ب ـ خفض المبلغ الذي تعاقدت عليه شركة جباية ضرائب ولاية آسيا بمقدار الثلث.

جـ ـ الاعتراف ببطلميوس الثاني عشر ملكاً على مصر.

د ـ اسناد حكم ولاية غاليا هذه الناحية من الألب الى قيصر، ولمدة خمس سنوات ووضع ثلاث فرق عسكرية تحت إمرته.

تمكن يوليوس قيصر في غضون ثماني سنوات قضاها في الزحف على الغاليين البرابرة، من اخضاع غاليا وراء الألب وفتحها من حدود المحيط الاطلسي وبحر المانش حتى نهر الرين. ثم صد القبائل الجرمانية من غاليا، فعادوا الى بلادهم بعد أن تجشموا خسائر جمة. وقد جعل يوليوس قيصر الرين حداً لولايته الجديدة. وغزا أيضاً بريطانيا حتى نهر التايمز، فأضاف الى الأمبراطورية الرومانية مملكة واسعة شملت كل فرنسا الحديثة وبلجيكا. وصنف كتاباً في حروبه في غاليا عني به عناية شديدة فجاء من أنفس ما كتب باللغة اللاتينية نثراً[١].

اشارة الى القانون الوثيني Lex Vatina الذي أصدره التريبون بوبيليوس واتينيوس Vatinius في السنة ٥٩ ق.م. قد جعل مدة ولايته على غاليا وأليريه خمس سنوات كما ذكرناه أعلاه. لكن عندما تولى بومبايوس وقراسوس القنصلية في العام ٥٥ ق.م. مددا ولايته عليها خمس سنوات أخرى. ثم توفيت جوليا بنت يوليوس وزوجة بومبايوس في السنة ٥٤ ق.م.، وقتل قراسوس في السنة التالية في حرب ألبرت في الشرق مما أدى الى فرط «التحالف الثلاثي» الذي قام بين يوليوس قيصر وبومبايوس وقراسوس في عام ٦٠ ق.م. واقتصر على الأول والثاني فأصبح ثنائياً وعرف باسم «الحلف الثنائي».

فاستفاد يوليوس قيصر من تحالفه الثنائي مع بومبايوس، لأنه في السنة ٥٢

---

(١) J. Harmond, Une campaigne Césarienne pp 185-1 Alesia, 1967.

M. Rambaud, L'art de la déformation historique dans les commentaires de César pp 256 Paris 1953.

ق.م. وفي اثناء غيابه أوعز الى مناصريه بتأييده في انتخابه للقنصلية. بينما أصدر من جهته قنصل هذا العام حليفه بومبايوس إستثناء خصوصياً يسمح ليوليوس قيصر بترشيح نفسه للقنصلية وهو غائب عن روما.

خشي مجلس الشيوخ عاقبة مجيء يوليوس قيصر الى روما وترشيح نفسه للقنصلية، فبدأ يفتش عن رجل قوي يقف في وجهه. فوجد ضالته في بومبايوس الذي أغرته القيادة العسكرية. فمال الى مجلس الشيوخ وشرع في ترويج مبادئه. فكان ذلك بدء الخلاف بينهما. كما قام النزاع قبل ذلك بنصف قرن بين ماريوس وصولا[1]. حاول يوليوس قيصر ان يصالح مجلس الشيوخ عبر وسطاء لكن جواب الأخير كان أمراً بتسريح الجيش الذي معه. فلم يتردد يوليوس قيصر بعد أقل من ساعة على وصول جواب المجلس بالايعاز الى فرقة من جنوده في الزحف من وادي البو الى روما في السنة ٤٩ ق.م. وبما أن المجلس لم يكن على استعداد لهذا الجواب السريع ألجأته الضرورة الى مفاوضة بومبايوس في الأمر الواقع. فكان جواب الأخير أن القوات الحربية التي تحت إمرته ليست كافية لصد يوليوس قيصر عن روما[2]. ولما دنا يوليوس قيصر من روما فرَّ بومبايوس وجيشه منها مع معظم الشيوخ وعدد كبير من الوجوه والأعيان.

وحتى لا يفكر مجلس الشيوخ أو بومبايوس في تعبئة الجيوش وتدريبها للهجوم على روما وسحق يوليوس قيصر. عقد الأخير النية على تنظيف الغرب من الجيوب الموالية للمجلس أو لبومبايوس. وبخاصة في اسبانيا التي بلغها بسرعة مدهشة في حزيران/ يوليو عام ٤٩ ق.م. فتمكن بعد بضعة اسابيع من أن يقطع عن الجيش فيها الميرة والذخيرة. واكرههم بعد ذلك على التسليم دون ان تنشب بينه وبينهم معركة واحدة.

---

(١) للاطلاع على تفاصيل الحرب بين ماريوس وصولاً يستحسن العودة الى صفحة ٢١٦ و٢١٧ من هذا الكتاب.

(٢) رستم، اسد. عصر أوغسطوس قيصر وخلفائه ١/٥٦.

٢ ـ سقوط الجمهورية الرومانية

أ ـ الحرب الأهلية الثانية.

في أثناء غياب يوليوس قيصر في اسبانيا استعد بومبايوس وأعوانه ليعبروا الى ايطاليا. لكن يوليوس قيصر تمكن من العودة بحراً من برنديزي ونزل في ابيروس على الرغم من أن السيادة البحرية كانت لا تزال بيد مجلس الشيوخ وبومبايوس. فأثارت هذه المباغتة نفوس أخصام يوليوس قيصر وتولتهم الحيرة لتملصه من مراكبهم الحربية. ثم نشبت بين الطرفين معركة في فرساليا من أعمال تساليا في السنة ٤٨ ق.م. أسفرت عن انكسار بومبايوس ومجلس الشيوخ ولجوء هؤلاء الى الاستسلام.

نجا بومبايوس بنفسه الى مصر حيث قتل هناك. في حين كان لحق به يوليوس قيصر اليها بقوة صغيرة من جيشه، فوجد كليوباطرا السابعة وأخاها بطلميوس الرابع عشر يتنازعان السلطة والزعامة. كما وجد الفوضى ضاربة اطنابها من جراء هذا النزاع[١]. وكان يوليوس قيصر قد وصل الى مصر بفرقتين وثماني مائة فارس. فأراد أن يأخذ دخلها العظيم بالسياسة والدهاء لا بالعنف والقوة. لكنه تغلب فيها على فتنة خفيفة تعرض لها في الاسكندرية. ثم أقرَّ كليوباطرا على الملك على أن تتزوج أخاها الأصغر إذا كان الأكبر قد هلك. ثم غادر أخيراً يوليوس قيصر مصر الى انطاكية، ومنها إتجه الى البونطس معقل مترايداتس Methradetes وابنه فرناكوس Pharnaces فانتصر عليهما في زيلة Zela بعدها فرَّ الابن هائماً على وجهه في العام ٤٧ ق.م. فقال يوليوس قيصر قوله الخالد: «أتيت ورأيت وغلبت Veni Cici Vici.

عاد يوليوس قيصر الى روما، واعاد الثقة والطمأنينة الى بعض صفوف الجيش. ثم إنصرف نحو افريقية لمقاتلة سقيبيو وجيشه لاخضاعه. فهزمه بضربة قاضية عند تابسوس Thapsus. وعاد بعد أربعة اشهر الى ايطاليا، وفي السنة ٤٥

---

(١) العبادي، مصطفى الامبراطورية الرومانية ٦١.

ق.م. غادر الى اسبانيا لمحاربة من تبقى من اتباع بومبايوس ولابيانوس Labiunus فانتصر عليهم في موندا Munda.

استمرت هذه الحرب من السنة ٤٩ـ ٤٥ ق.م. وكان مسرحها جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية. وقد خرج منها يوليوس قيصر ظافراً. وحين عاد الى روما في السنة ٤٨ ق.م. حذا حذو صولا من قبل. إذ استصدر البرايتور لبيدوس ـ وهو الذي كان قيصر أسند اليه حكم مدينة روما مؤقتاً ـ في اثناء وجود يوليوس قيصر في ماسيليا ـ مارسيليا الحالية ـ قانوناً باقامته دكتاتوراً. لكن قيصر بعد عودته كما ذكرت قبلاً لم يشغل منصب الدكتاتور إلا أحد عشر يوماً فقط ثم بادر بالتخلي عن هذا المنصب بعدما أقام الحفل اللاتيني، وأجرى الانتخابات ففاز بالقنصلية ـ للمرة الثانية ـ لعام ٤٨ ق.م. وعين الحكام للولايات الرومانية الموالية له.

عندما وصل انطونيوس الى روما على رأس الفرق التي قرر قيصر اعادتها الى ايطاليا، حاملاً معه رغبة يوليوس قيصر بتعيينه دكتاتوراً ـ مرة ثانية ـ لمدة سنة من أول اكتوبر ـ تشرين اول ـ عام ٤٨ ق.م. انتخب بنهايتها قنصلاً ـ للمرة الثالثة ـ عام ٤٦ ق.م. ثم جعل دكتاتوراً لمدة عشر سنوات في السنة ٤٦ ق.م. وناظر السلوك والأخلاق Praefectus Moribus كما انتخب قنصلاً ـ للمرة الرابعة بنهاية عام ٤٦ ق.م. لقنصلية عام ٤٥ ق.م. بعدها أصبح تريبوناً لا تخرق حرمته Saerosanctus ولبس الأثواب الأرجوانية، كما اقيمت له التماثيل، وشيد هيكل لرأفته، وظهر رسمه على المسكوكات عام ٤٥ ـ ٤٤ ق.م. لكنه لم يؤله بعد وفاته. ورفض لقب «ملك» عندما قدم له في السنة ٤٤ ق.م. فعين دكتاتوراً لمدى الحياة في منتصف فبراير ـ شباط من هذه السنة.

لم ينتقم يوليوس قيصر من أعدائه، ولم يقتل أحداً لمجرد عداوته له، بل عامل الجميع بالرفق واللين. وحقن دم عدوه اللدود شيشرون الخطيب. فحاز بذلك رضى الطبقة الاستقراطية، لكن سلطته الواسعة والمطلقة، وسيطرته في الانتخابات والتعيينات وعظمة ألقابه النادرة أثارت المخاوف. وأقضت مضاجع جماعات من حزبه. فكان ان خرَّ صريعاً يوم الخامس عشر من آذار/ مارس سنة

٤٤ ق.م. عند تمثال بومبايوس على ايدي بروتوس وقاسيوس. فأتيحت للجمهورية فرصة أخيرة قبل أن تلقى المصير الذي كانت تسعى اليه على يد النبلاء[١].

كان قيصر رجل من الطراز الأول أتيحت له الفرصة لبعث الحياة في الجمهورية الرومانية من جديد بعدما تسرب الضعف الى جسمها. فشرع في اصلاحاته التي أنجزها وتلك التي وضع خطتها، وتم تنفيذها بعد مقتله كانت عظيمة الشأن. سنقسمها وفق التالي:

أولاً: اصلاحات عامة:

١ ـ تصحيح التقويم: استخدام السنة الشمسية بدلاً من السنة القمرية.

٢ ـ محاولة الحد من البذخ والاسراف وبخاصة في المآكل.

٣ ـ في القانون والقضاء تشديد العقوبات على مثيري الشغب وحل الجمعيات والمنتديات الجديدة.

٤ ـ منح حقوق المواطنة الرومانية للأطباء والمدرسين الأجانب الذين استقروا في روما والولايات.

٥ ـ عالج مشكلة الديون لتخفيف ضائقة المدينين دون هضم حقوق الدائنين.

٦ ـ فرض المكوس الجمركية Portaria في الموانىء بعد أن ألغيت في عام ٦٠ ق.م.

٧ ـ زاد عدد الحكام البرايتورس ـ الى عشرة ثم الى ستة عشر والأيديليس الى أربعة.

٨ ـ زاد عدد أعضاء مجلس الشيوخ الى ٩٠٠ عضو.

ثانياً: اصلاحات خاصة بمدينة روما. منشآت عمرانية واصلاحات حياتية اجتماعية.

---

(١) العبادي، مصطفى الامبراطورية الرومانية ٦٧.

الشيخ، حسين الرومان ٦٩.

ثالثاً: اصلاحات خاصة بايطاليا. تخفيف مستنقعات وشق طريق وتعديل بعض القوانين.

رابعاً: إنشاء مستعمرات في ايطاليا والولايات.

خامساً: اصلاح حال الولايات تمثلت في منع ابتزاز الأموال وحقوق المواطنة الكاملة.

ب ـ الحرب الأهلية الثالثة:

لم تعط هذه الفرصة للنظام الجمهوري مجالاً لاثبات وجوده لأنها كانت مجرد امتداد زمني شهد مزيداً من الصراع على السلطة بين القواد الطموحين فقد أعقبت اغتيال يوليوس قيصر فترة من الفوضى السياسية العسكرية. وظهور شخصية قائدين هما: انطونيوس الذي كان الساعد الأيمن ليوليوس قيصر، واوكتافيوس الذي كان ابناً بالتبني لقيصر نفسه.

٣ ـ انطونيوس

بعد مقتل يوليوس قيصر ـ الدكتاتور ـ في الخامس عشر من آذار/ مارس عام ٤٤ ق.م. فرّ أعضاء مجلس الشيوخ مذعورين. وامتنع القنصل انطونيوس في بيته ولبيدوس كبير الفرسان يمين الدكتاتور، عبر نهر التيبر. اما القتلة الفائزون انطلقوا وحدهم من قاعة المجلس، منادين بالحرية، قد اضطروا الى اللجوء الى الكابتول بضغط من الشعب عندما انتشرت الأخبار. وبات زعماء السياسة يترقبون اعلان هؤلاء عن موقفهم[١]. وجرت اتصالات، في السابع عشر من الشهر ذاته بين انطونيوس والقتلة. كما إلتأم مجلس الشيوخ في هيكل تلوس بالقرب من بيت انطونيوس، حيث طالب تيبريوس تيرون وكان جمهورياً ـ

---

(١) كان بروتوس قد ذكر اسم شيشرون عندما رفع خنجره واقترف جرمه مشيراً بذلك الى وجوب المحافظة مع شيشرون على الجمهورية وتقاليدها. فزار الأخير القتلة في اليوم التالي للقتل في الكابتول، فاتضح انهم لم يقصدوا شيئاً سوى التخلص من قيصر.

بمكافأة القتلة الذين أنقذوا روما من يد المغتصب المستبد. في حين قال غيره، بالقاء جثته في نهر التيبر. وذكّر انطونيوس أن إلغاء احكام يوليوس قيصر سيؤدي الى ما لا تحمد عقباه، والى تنازل كثير من أعضاء مجلس الشيوخ عن مقاعدهم فيه. بينما نصح شيشرون بالاعتدال فقال قوله كثيرون. وامتنع مجلس الشيوخ عن محاكمة القتلة، واعترف في الوقت ذاته، باحكام قيصر وأوجب تنفيذ وصيته والاحتفال بدفن جثمانه احتفالاً رسمياً. وبعد الاحتفال دعا أتباع قيصر القتلة الى عشاء مشترك.

ولما تليت الوصية في بيت انطونيوس، وتبين منها ان يوليوس قيصر كان قد تبنى أوكتافيوس وأوصى له بما عنده، واكتفى بذكر انطونيوس بين الورثاء الثانويين، انفصمت عرى آماله وتقوضت حصونها. ولكنه رأى الظرف مناسباً والفرصة سانحة لتسلم المراتب العالية، فاندفع يستغل الحوادث لصالحه. فصالح القتلة، وتقرّب وتودد الى اتباع قيصر، وارتضى مجلس الشيوخ بالمحافظة على النظم الجمهورية والتقاليد. وسعى أن يكون تحت إمرته جيش يقاتل به عند الضرورة، وذلك بتسلم مقاليد الحكم في احدى الولايات القريبة من ايطاليا.

وما ان علم الشعب بوصية يوليوس قيصر، وأنه وهبه جنائنه التي وراء التيبر حتى هاج، وطالب باعدام القتلة، في الاحتفال بجنازته في العشرين من آذار/ مارس وبعد تلاوة القرارات باحترامه واكرامه، وعرض رداءه الملوث بالدم. الأمر الذي اضطر بروتوس وكاسيوس الى الهرب خارج المدينة. ولم يعارض دولابلا القيصري وصول انطونيوس الى القنصلية، ولا لبيدوس القيصري في الوصول الى رتبة الحبر الأعظم Pontifex Maxiums. واسترضى مجلس الشيوخ باتخاذ قرار ألغى به الدكتاتورية وأظهر المجلس الرضى بمنح انطونيوس حكومة مقدونية ودولا بلا ولاية سوريا. لكن انطونيوس لم يكتف بهذا القدر من السلطة، فلجأ الى استمالة الجنود الذين كانوا يحاربون مع يوليوس قيصر بتوزيع الأراضي عليهم. ومنح الصقليين حقوق المواطن الروماني. وأعطى ديوتاروس Diotarus أرمينيا الصغرى. وادخل انصاره في مقاعد مجلس الشيوخ. وغض النظر عن عودة كليوباطرا وابنها الصغير الى مصر. فارتاب

الشيوخ الارستقراطيون في أمره. وقال شيشرون: ان الدكتاتورية لا تزال حية على الرغم من وفاة الدكتاتور. وشاع خبر وصول أوكتافيوس في أيار الى روما، فأسرع انطونيوس بالمجيء اليها.

٤ ـ أوكتافيوس

هو غايوس أوكتافيوس Gaius Octavius ابن آتيا Atia بنت جوليا Julia أخت يوليوس قيصر، وابن غابيوس أوكتافيوس الذي تحدر من أسرة وليترو Velitroe المحترمة. لدى الاطلاع على نص وصية خاله الكبير يوليوس قيصر، إتخذ اوكتافيوس لنفسه الاسم: غايوس يوليوس قيصر، أوكتافيوس. فعرف بهذا الاسم حتى السنة ٢٧ ق.م. ثم اشتهر بعد ذلك باللقب أوغسطس Augustus. ولد في الثالث والعشرين من ايلول، سبتمبر عام ٦٣ ق.م. وتوفي والده وهو لا يزال في الرابعة من عمره، ومع ان والدته تزوجت من مار فيوس فيليبوس، فإنها عنيت عناية فائقة بتربية ولديها: أوكتافيوس وأوكتافيا تربية صالحة، وبتهذيبهما أيضاً. ثم نال أوكتافيوس قسطاً وافراً من العلوم على يد أشهر الاساتذة كأبولو ذوروس البرجامي وأريوس الاسكندري.

وأرسله خاله، الذي أحبه وشمله بعطفه الى أبولونيا في خريف عام ٤٥ ق.م. ليكمل علومه، ويختبر الحياة العسكرية مع الضباط والجنود الذين كانوا يتدربون فيها. ولكن اوكتافيوس تلقى في أواخر آذار عام ٤٤ ق.م. ـ وهو في أبولونيا ـ رسالة من والدته تنبئه فيها بمقتل خاله يوليوس قيصر. فأسرع بالعودة الى روما ـ واكد له الضباط استعدادهم للزحف معه ـ مع بعض الرفاق، ولدى وصوله الى روما عن طريق برنديزي أعلن اسمه الجديد كما ذكرنا «غايوس يوليوس قيصر أوكتافيوس» وطالب بصفته ابن يوليوس قيصر، ووريثه بالارث المتروك. وكان لا بدَّ من موافقة مجلس «الأحياء أو العشائر» Comitia Curiata على الاسم الجديد قبل اتخاذه رسمياً. فعرقل انطونيوس هذا السعي مدة من الزمن. ولكن اوكتافيوس لم ينتظر صدور الموافقة ومضى يتكلم ويطالب كأنه الوريث الوحيد. ولم يكترث انطونيوس بادىء ذي بدء لمقاومة اوكتافيوس.

واستخف به لصغر سنه وقلة اختباره. فكان يشير اليه باللفظ «الولد» ولم يعلم انه كان يحمل رأس شيخ حنكته السنون.

وفي الوقت نفسه الذي خرج فيه انطونيوس من روما ليلاقي الجيش القادم من مقدونيا. قام اوكتافيوس الى قمبانيا يستميل جنود قيصر المجربين الأبطال، فالتفوا حوله، وانضم اليهم نصف الجنود القادمين من مقدونيا، وهكذا وجد انطونيوس نفسه قبل انتهاء السنة ٤٤ ق.م. بين عدوين ديقيموس بروتوس Decimus Brutus في الشمال[1] واوكتافيوس في الجنوب فرأى بضرب ديقيموس بروتوس أولاً. فقام الى وادي البو على رأس ما تجمع لديه من جنود. وخشي ديمقيوس تفوق جنود انطونيوس، فعسكر في موتينا Mutina أي مودينا الحالية. فاضطر انطونيوس أن يحاصر فيها، وانتهت السنة ٤٤ ق.م. في ابان الحصار. وتم انتخاب القناصل الجدد، فنجح كل من هورتيوس Hurtius وبنسا Pansa اللذين رشحهما يوليوس قيصر قبل مقتله.

أخافت مطامع انطونيوس مجلس الشيوخ الذي احتار في من يرغب اليه مساعدة ديقيموس. فلم يجد لدى القنصلين الجديدين من القوة العسكرية ما يكفي لمواجهة انطونيوس. فاضطر الى قبول مساعدة اوكتافيوس - بالرغم من كرههم الى قبول مساعدة من رجل يحمل اسم يوليوس قيصر - الذي انتصر شيشرون اليه داخل المجلس واكتسح الموقف المؤيد له. فأعطى مجلس الشيوخ السلطة Imperium لأوكتافيوس وخوله حق التجييش والتعاون مع القنصلين لرفع الحصار عن موتينا وسار الجميع الى الشمال، فكانت موقعة حاسمة عند الفوروم غالورم Forum Gallorum أدت الى انسحاب انطونيوس من ميدان القتال في ايطاليا واتجاهه شطر غاليا نفسها لاستمالة لبيدوس وجيوشه.

عاش مجلس الشيوخ نشوة الفرح، ولم يملكوا أنفسهم. فاعتبروا انطونيوس وجنوده مجرمين لا يؤاخذ أحد على قتلهم، ووقفوا من جنود اوكتافيوس وضباطه موقف الحذر. وكان القنصلان هورتيوس ونبسا قد توفيا في ميدان

---

(١) ول ديوارانت   قصة الحضارة ٣٩٥/٩.

القتال. فحول الشيوخ قيادة جيوشهما الى ديقيموس. فتمرد هؤلاء الجنود، والتحقوا بجيش اوكتافيوس. وطالب جنود اوكتافيوس باشراكه في لجنة التحقيق في أعمال انطونيوس، وانتخابه ـ اوكتافيوس ـ قنصلاً حتى آخر السنة. فرد مجلس الشيوخ بأن اوكتافيوس غير مكتمل الشروط، مما أدى الى زحف الأخير على رأس جيشه الى روما. واستفاق الشيوخ مستدركين سوء العاقبة، وفاوضوا على اساس مطالب الجند. ثم ترددوا على أثر وصول الجنود من افريقيا. ولكن اعلان هؤلاء عن انضمامهم أيضاً الى صفوف اوكتافيوس. جعل الشيوخ يوافقون على انتخابه قنصلاً، وكذلك بديوس Pedius احد أنسبائه في آب أوغسطس سنة ٤٣ ق.م. ثم إتخذ مجلس العشائر قراراً اعترف بموجبه ببنوة اوكتافيوس ليوليوس قيصر Lex Curiata. ولم يلبث القنصل الجديد طويلاً في روما بعد أن اصدر مجلس الشيوخ قانوناً يوجب إنزال العقاب بقتلة يوليوس قيصر. وإتجه صوب الشمال لينهي قضية انطونيوس.

٥ ـ حكم الثلاثة

تمكن انطونيوس من التفاهم مع لبيدوس قائد الجيش في اسبانيا، وبلانكوس Plancus قائد القوات في غاليا. فأصبح بعد ذلك سيد الموقف في الغرب. واستمال الجنود الذين كانوا لا يزالون تحت إمرة ديكيوس بربرونتس حيث فرَّ هارباً. لكن أمير غالي أُلقي القبض عليه باشارة من انطونيوس وقتله. فقرر انطونيوس آنذاك القضاء على مرقوس بروتوس زعيم المؤامرة على حياة يوليوس قيصر، ولونجينوس قاسيوس شريكه فيها، وقد أصبحا سيدي الموقف في الشرق. ومن أجل الوصول الى غايته تلك تودد الى اوكتافيوس الذي وجد أن مصلحته تقضي بالتفاهم مع انطونيوس لا باللجوء الى العنف. فلما زحف اوكتافيوس على رأس جيشه من روما الى الشمال إلتقى بانطونيوس ولبيدوس في بونونيا Bononia بوادي البو ففاوضهما واتفق معهما على انشاء حكومة ثلاثية تنظم امور الجمهورية وتضبطها Triumviri-Reipublicae Constituendae واعترف بالواقع وأقر «القانون التيتيا» Lex Titia في السابع والعشرين من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ٤٣ ق.م. فأنهى بذلك النظام الجمهوري.

الفصل الثالث عشر

الأمبراطورية الرومانية

١ - تطهير ايطاليا

ذكرت في نهاية الفصل السابق ان انطونيوس ولبيدوس واوكتافيوس قد اتفقوا على تأليف حكومة ثلاثية ثبّتت حكم الجمهورية الرومانية في ٢٧ - ١١ - ٤٣ ق.م. فعقدوا اول اجتماع لهم اتفقوا فيه، أن عليهم اتباع سياسة القسوة والعنف التي اتبعها صولا Sulla، بدلاً من سياسة اللين والحلم التي سار عليها يوليوس قيصر، فأدت الى اغتياله. وأنه في الإمكان اللجوء الى المصادرة لسد العجز الطارىء على الخزينة. ولكنهم، لم يتفقوا في اجتماعهم على أسماء الأشخاص الذين يرغبون في معاقبتهم. فأقروا حق كل منهم، بإضافة اسماء الأشخاص الذين سيحل بهم اعدامهم، أو ابعادهم، أو مصادرة املاكهم، سواء رضي الآخران ام لم يرضيا. فاضطر اوكتافيوس ان يضحّي بشيشرون ليرضي انطونيوس، الذي لم ينسَ تهجم الخطيب عليه بفيليبياته. وأوعز الثلاثة الى القنصل الثاني Pedius باديوس الذي كان لا يزال في روما بالقبض على كبار الرجال الذين تقرر اعدامهم وتنفيذ الحكم فيهم حالاً وسريعاً[١].

وبعد ان تمَّ ذلك قام الثلاثة على رأس افضل ما لديهم من الجند الى روما. ولدى وصولهم اليها لم يلقوا من أعضاء مجلس الشيوخ فيها اية مقاومة لمشروعهم المفاجىء. فاتخذ حكمهم الثلاثي شكلاً قانونياً بإصدار «القانون التيتيا» الذي

---

(١) يقول اسد رستم: ان سبب التوسع في التطهير والمصادرة كان مادياً لا سياسياً. وإن حاجة الثلاثة الى ما يعوضون به على جنودهم قضت بهذا التوسع. وشملت لوائح التطهير ثلاثمائة شيخ، وحوالى مائة فارس من طبقة النبلاء. أوغسطس قيصر وخلفائه ١/ ٩٦.

خول الثلاثة صلاحيات واسعة لإعادة النظر في نظام الجمهورية لمدة خمس سنوات.

وفور صدور هذا القانون أعلن الثلاثة، أسماء جميع من شملهم التطهير[١]. وأكدوا ان مصلحة الدولة قضت بتطهير روما من عناصر الفساد قبل الشروع بملاحقة قتلة قيصر في بلاد بعيدة. وبالرغم من أن شيشرون هرَّب عائلته عبر الادرياتيك، فقد فضل الموت مع الجمهورية التي أحب ودافع عنها على الالتحاق بعائلته والنجاة. ولقي حتفه بقطع رأسه في السابع من كانون أول سنة ٤٣ ق.م، وحمل الى روما. فوضعه انطونيوس على الدكة Rostrum نفسها التي كان شيشرون يقف عليها. وجاءت فولفيا Fulvia امرأة انطونيوس وزوجة قلوديوس بوبليوس سابقاً وشكت مثقباً في اللسان الذي هجا زوجها الأول والثاني بفصاحته النادرة.

وما كاد الثلاثة يتفاهمون في الغرب ويتسلطون حتى اتجهوا بأنظارهم شطر الشرق لتعقب القتلة والتخلص منهم. فبقي لبيدوس في روما يدير شؤونها. وسافر انطونيوس وأوكتافيوس على رأس قواتهما، فعبرا الادرياتيك ونزلا في بلاد اليونان. وكان بروتوس وقاسيوس قد وصلا بقواتهما الى فيليبي Philippi، في شرق مقدونيا، عند شاطىء إيجه، وبالقرب من «قولا» الحديثة لملاقاة القائدين. وانتقيا ميدان القتال خارجها، في محل تفصله عن البحر، مستنقعات واسعة. فلما أطل انطونيوس واوكتافيوس في أوائل تشرين الأول سنة ٤٣ ق.م على فيليبي، ودرسا ميدان القتال. شرع انطونيوس في تشييد طريق عبر المستنقعات يهدد بها مؤخرة قاسيوس، ثم انقض على معسكر قاسيوس وأعمل السيف في رقاب رجاله حتى اضطره الى الانتحار، بينما تمكن بروتوس من الصمود امام معسكر اوكتافيوس مدة عشرين يوماً، وكاد ينجح في الانتصار عليه أولاً. لكنه أسرع في النهاية الى الانتحار عندما علم بانتحار زميله وذلك

---

(١) فرَّ بعض الذين وردت اسماؤهم في اللوائح والتحقوا بمعسكر بروتوس في مقدونيا. كما عبر بعضهم الى صقلية والتجأوا الى سقستوس واسطوله القوي.

في الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ٤٣ ق.م. فأصبح الثلاثة أسياد الموقف في عالم البحر الأبيض المتوسط.

٢ ـ أوكتافيوس والغرب

اتفق القائدان الكبيران انطونيوس واوكتافيوس بعد معركة فيليبي على اقتسام ممتلكات الدولة الرومانية. وعلى أن يتجه الأول الى الشرق لضبط أموره وفرض السلطة فيه واستعادة هيبة روما. وأن يعود الثاني الى إيطاليا ويتدبر شؤونها ويدبر الأموال اللازمة لإرضاء الجنود. فما كاد يصل الى ايطاليا ويبدأ في تنفيذ ما تمَّ الاتفاق عليه مع انطونيوس حتى جوبه بمشاكل متعددة. فالجنود رغبوا في مصادرة الأموال في المدن، بينما سكانها احتجوا على ذلك ورأوا فيه إجحافاً. وتدخلت فولوفيا زوجة انطونيوس في هذا الأمر واتفقت مع سلفها لوقيوس انطونيوس ـ شقيق زوجها ـ القنصل آنئذٍ على حماية المدن وتزعم معارضتها: الأمر الذي نتج عنه النزاع بين لوقيوس وزوجة اخيه انطونيوس من جهة، واوكتافيوس من جهة ثانية في «بيروسيا» Perusia. واستسلم لوقيوس بعد فترة من الزمن، لذا لم يعاقبه اوكتافيوس ويحرمه ادارة غاليا بعد ان توفي واليها. فأمسى سيد ايطاليا وغاليا واسبانيا. أما افريقيا فإنها كانت لا تزال بيد لبيدوس أحد أعضاء حكم الثلاثة.

٣ ـ انطونيوس والشرق

توجه انطونيوس الى الشرق، فأحبه الاثينيون لتهلنه، واستقبله اهل افسس استقبال الأبطال الآلهة، إذ رأوا فيه ذيونيوساً جديداً واهباً الفرح والنعمة. والتف حوله الأمراء المحليون الشرقيون، طالبين الرضى مقدمين الهدايا. استقر انطونيوس بعد ذلك في مدينة طرسوس من أعمال قيليقيا. فاستدعى في السنة ٤١ ق.م كيلوباطرا اليها ليناقشها الحساب حول موقفها من الحرب الأهلية. فلبت الدعوة بعد مماطلة ونزلت الى طرسوس. فدعاها انطونيوس إلى تناول الطعام معه، فأبت وأصرت ان يكون هو ضيفها في السفينة التي أقلتها. فلبى

الدعوة، وذهل بما رأى من ألوان الطعام والآنية. واندهش للعظمة التي تعيشها خاصة لما قالت: هي لك هدية صغيرة. فأمر بإخراج «أرسنوة» منافسة كليوباطرا من هيكل أرتميس في أفسس، وبقتلها، وقضى بمثل هذا على كل من بطلميوس الثالث عشر الكاذب، الذي ادعى انه هو أخو كليوباطرا الحقيقي وعلى سيرابيون الذي كان قد التحق بقاسيوس على رأس الأسطول المصري. ثم عادت كليوباطرا إلى مصر خريف السنة ٤١ ق.م تاركة في طرسوس قائداً كاد قلبه يطير وراءها.

وواجه انطونيوس مشاكل الشرق الإدارية والسياسية الملحة. فثبت بطلميوس خلقيس في إمارة البقاع والغوطة[١]. وأبقى السلطة في حمص ونواحيها بيد يميلغوس، وطرد غيرهما من الأمراء المحليين. كما جعل هيرودوس وأخاه، أبناء انتيباتر صديق يوليوس قيصر ونصيره، على فلسطين. وعيّن ديقيديوس سكسا Docidius Sexa والياً على سوريا. وأغار على تدمر لابتزاز المال. وأثقل كاهل السكان بضرائب جديدة، فثارت ارواد في وجهه. ثم تابع سيره الى مصر لتمضية شتاء السنة ٤١/ ٤٠ ق.م فيها.

٣ ـ الحكم الثلاثي، ثنائي

لما علم انطونيوس بما يجري في ايطاليا، وهو لا يزال في مصر، ولا سيما حوادث الحرب البروسية. انتقل من الاسكندرية الى صور، فاصدر عنها التعليمات اللازمة لدرء الخطر القادم من بعض الجيوب الشرقية السلوقية. ثم تابع الى قبرص وردس فاثينا حيث التقى بزوجته فولوفيا، فروت له ما جرى، وكيف ان نجمه بدأ بالأفول في ايطاليا وغاليا. فأسرع سيره وحاول النزول في برنديزي فمنعه قائد حاميتها من النزول، فنزل في ضواحيها. ووصل اليها اوكتافيوس بعد فترة قصيرة، وعسكر الطرفان استعداداً للقتال. لكن مجيء خبر وفاة فولوفيا زوجة انطيوس من اثينا، فضلاً عن امتناع الجنود عن القتال

(١) رستم، اسد عصر اوغسطس قيصر وخلفاؤه ١/ ٧٠.

بتحريض من الإيطاليين والرومانيين آخر القتال بين القائدين[١]. فوقع الطرفان اتفاقاً في برنديزي خريف السنة ٤٠ ق.م، قضى بتقسيم المتوسط وحوضه الى قسمين رئيسين: غربي وشرقي فصل بينهما خط يمر بمدينة اشقودرة في أليريا من الشمال الى الجنوب. فتولى الشرق انطونيوس، وتسلط على الغرب اوكتافيوس. وظلت افريقيا بيد لبيدوس، على ان تبقى ايطاليا مباحة للقائدين الكبيرين يجندان فيها أنى شاءا. وشدت اواصر القربى بين القائدين الكبيرين، عندما حلت اوكتافيا أخت اوكتافيوس محل فولوفيا زوجة انطونيوس التي توفيت. فهتفت الجيوش للزوجين وللكبيرين وقام الاثنان الى روما فقابل اهلها خبر الاتفاق بالارتياح. ولم ينه اتفاق برنديزي المشاكل التي واجهت انطونيوس واوكتافيوس. فنبتت مشكلة جديدة أمامهما، وهي تعذر وصول الحبوب الى العاصمة فارتفعت اسعارها وهدد الجوع الجماهير الذين الحوا بوجوب تسوية الأمور والوصول الى تفاهم مع سقتوس بومبايوس[٢]. فأراد القائدان الكبيران ان يجردا حملة عليه لكن الشعب لم يرضَ عن تحمل نفقاتها. فعادا الى المفاوضة مع سقتوس الذي طلب ان يكون هو الثالث في الحكم بدلاً من لبيدوس، ثم عدَّل طلبه وقبل بحكم صقلية و سردينية، على ان يرشح إلى القنصلية في المستقبل القريب. ووّقع الطرفان المتفاوضان في العام ٣٩ ق.م اتفاق مسّينا، ومن شروطه ما يلي:

اولاً: ان يبقى سقتوس على حكم صقلية وسردينيا.

---

(١) الحقيقة ان أوكتافيوس لم يكن واثقاً كل الوثوق من ميول بعض جنوده ولا سيما اولئك الذين كانوا الى حد قريب تحت امره انطونيوس في غاليا. كما ان انطونيوس كان يرى الخير كل الخير في تدبير شؤون الشرق ورد خطر ألبرت عنه (أحد أمراء السلوقيين في ضواحي العراق).

(٢) هو الابن الاصغر لبومبايوس: استغل مقتل يوليوس قيصر في الخامس عشر من آذار سنة ٤٤ ق.م، ودخول روما في حربها الأهلية. فثبت اقدامه في اسبانيا وصار صاحب جيش واسطول فيها الى ان جاء حكم الثلاثة سنة ٤٣ ق.م. فورد اسمه ضمن لائحة المحكومين بالإعدام، فعادا الى الاسطول والقرصنة واحتل صقلية وجعلها قاعدة له.

ثانياً: ان يُسَهل تموين روما بالحبوب اللازمة.
ثالثاً: أن يُنتخب سقتوس قنصلاً في القريب العاجل.
رابعاً: أن يُصيب جنود سقتوس من التعويض ما أصاب جنود الثلاثة الحاكمين.
خامساً: ان يُصَار الى عَتق الأرقاء الآبقين الذين إلتجأوا الى سقتوس.
سادساً: أن يصدر عفو عن جميع الذين لجأوا اليه في اثناء الحرب الأهلية ما عدا الذين اشتركوا في التآمر على قتل يوليوس قيصر. وأن يُعاد الى اللاجئين ربع أموالهم المصادرة.

وقبيل انتهاء مدة حكم الثلاثة، عاد انطونيوس من الشرق الى ايطاليا ـ كان قد ذهب الى الشرق إثر اتفاق مسّينا ـ ليضمن تمديد هذا الحكم، وليعجل ارسال المدد اليه ليتمكن من تثبيت دعائم حكمه فيه وإعادة النظام اليه. وفاوض اوكتافيوس في ما يقدمه له مقابل التخلي عن سقتوس. فكان اتفاق جديد في برنديزي سنة ٣٧ ق.م من شروطه:

أولاً: يتخلى انطونيوس عن تأييده لسقتوس
ثانياً: يتعهد بتقديم معونة بحرية الى اوكتافيوس
ثالثاً: يتم تجنيد عشرين الف روماني ويرسلون الى الشرق.

ثم قام القائدان الكبيران الى روما فجددا حكم الثلاثة ومدداه خمس سنوات جديدة، ثم عاد انطونيوس الى الشرق. وانصرف اخيراً كل من: أغريبا Agrippa ساعد اوكتافيوس الأيمن في السنتين ٣٨ ـ ٣٦ ق.م الى إنشاء اسطول نزل به على شاطىء صقلية الشمالي، كما قام توروس Taurus بمئة وعشرين سفينة الى شاطىء الجزيرة الشرقي. وعبر لبيدوس البحر من افريقيا مهدداً الشاطىء الغربي. فتمكن الثلاثة من تحطيم اسطول سقتوس الذي فرَّ الى آسيا الصغرى حيث لقي حتفه على يد تيتيوس Titius أحد قواد انطونيوس سنة ٣٥ ق.م فاحتل لبيدوس صقلية وخضعت سردينيا وقورسيقا الى اوكتافيوس.

ثم عمل اوكتافيوس على استمالة جنود لبيدوس. ونجح في ذلك نجاحاً باهراً، فصل على أثره لبيدوس من الحكم الثلاثي سنة ٣٦ ق.م. وأمر بإقامته

في ايطاليا إقامة جبرية. فأمسى الحكم الثلاثي ثنائياً. وبات الفصل بين سيد الغرب، وسيد الشرق واقعاً لا محالة لأنهم كانوا قد حددوا حكم الثلاثة خمس سنوات أخرى في السنة ٣٧ ق.م. وذلك بعد اتفاق تارنتوم Tarentum. وفي هذه السنة نفسها ذهب انطونيوس الى انطاكية، وارسل يستدعي كليوباطرا اليها لتمضية الشتاء معه فيها، فجاءت إليها في شتاء السنة ٣٧/ ٣٦ ق.م. واشتركت في المهرجانات التي أُقيمت فيها إحتفاءً بما كان قد تمَّ من نصر على ألبرت السلوقي. إشتراكاً سياسياً وغرامياً في آن واحد. إذ توج الغرام بزواج انطونيوس منها ـ كليوباطرا ـ في السنة ٣٧ ق.م. لكن هذا الزواج سبب له متاعب كثيرة منها:

أولاً: القانون الروماني قضى بزوجة واحدة واوكتافيا كانت لا تزال زوجة انطونيوس الشرعية.

ثانياً: القانون والعرف حرّما زواج الروماني من اجنبية، ولم تكن كليوباطرا مواطنة رومانية.

ثالثاً: اسبغ هذا الزواج من كليوباطرا على انطونيوس صفة ملكية لم يرض عنها الرومان.

رابعاً: اضطره هذا الزواج ايضاً الى توسيع رقعة ملك البطالمة على حساب روما. إذ أدخل في السنة ٣٧ ق.م قيرونا وإمارة خلقيس البقاعية، والشاطىء الفينيقي حتى النهر الكبير تحت حكمهم.

خامساً: خسرت قيليقيا أحواض السفن المصرية وجزء من جزيرة كريت.

سادساً: اعترف انطونيوس ببنوة التوأمين اللذين ولدا له من كليوباطرا في السنة ٤٠ ق.م بعد خروجه من مصر سابقاً، وبولد ثالث ابصر النور في السنة ٣٦ ق.م. ووافق على تسمية التوأمين: الكسندروس وكليوباطرا تيمناً، وعلى اطلاق الاسم بطلميوس فيلادلفوس على الولد الثالث.

وبعد أن إنتصر انطونيوس على ملك ارمينيا في السنة ٣٤ ق.م، أحب ان يحتفل بالنصر، فخالف العرف الروماني، واحتفل بفوزه في الاسكندرية لا في

روما، ووزع المنح لهذه المناسبة. فأعلن كليوباطرا «ملكة الملوك» واعترف بشرعية ابنها من قيصر الذي دُعي «قيصريون» Caesariun، واشركه في الحكم معها. وجعل بطلميوس إبنه منها ملكاً على سوريا وقيليقيا. وكتب الى مجلس الشيوخ الروماني بهذا كله، وطلب الاعتراف بقانونية عمله. لكن المجلس سكت عن رسالة انطونيوس، ولم يعلن مضمونها، ولم يوافق عليها. ولم يرَ الشيوخ في الوقت ذاته الخطر الكامن في إجراءات انطونيوس الذي رآه اوكتافيوس.

٥ ـ قيام الحكم الامبراطوري

وفي هذه الفترة نفسها، تمكن اوكتافيوس من تحقيق انتصارين:

الأول: تمت له السيطرة على صقلية، والقضاء على سقتوس بومبايوس.

الثاني: نجح ايضاً في عزل لبيدوس، وفي فرض سلطته على افريقيا.

فأبعد بهذين الانتصارين شبح المجاعة عن روما وأعاد، الى مزارعها اكثر من ثلاثين الف رقيق آبق. فاستحق شكر مجلس الشيوخ، وأقيم له تمثال ذهبي في الفوروم يحمل على قاعدته العبارة التالية: «بعد اضطراب دام طويلاً اعاد السلم في البر والبحر» وظهر هذا التمثال على النقود، وأضيفت العبارة «الأمبراطور قيصر». وخطب اوكتافيوس في الناس، وأكد حلول النظام والأمن، وأشار إلى انتهاء الاستبداد، وألغى عدداً من القوانين الاستثنائية التي كانت قد سنت في أثناء الحرب الأهلية. وأضاف انه سيكون مستعداً للتنازل عن السلطة الاستثنائية التي مارسها بصفته أحد «الثلاثة» إذا قبل انطونيوس بذلك وعمل به. فقابل الشعب هذه التصريحات بارتياح عظيم. ومنحه مجلس الشيوخ حق الجلوس مع الترابنة، واعتبر شخصه مقدساً لا تخرق حرمته، وأعلن اوكتافيوس في السنة ٣٦ ق.م عن عزمه في بناء هيكل «الأبولون» Apolon إله بيته، وحاميه، وإله «النظام والانضباط»[1].

---

(١) جعل اكتافيوس الرومانيين يقارنون بين دخوله في حماية اله النظام والانضباط. وبين قبول انطونيوس بأن يكون ديوينوساً جديداً إله «فرح ونعمة» يغازل «افروديت».

وجعل اوكتافيوس الرومانيين، في السنة ٣٥ ق.م يقارنون بين إرتماء انطونيوس في حضن خليلة شرقية وبين نفوره من سيدة رومانية شريفة هي زوجته الشرعية. فاكتافيوس رأى من الحكمة في السياسة ان تتولى شقيقته اوكتافيا زوجة انطونيوس الشرعية تسليم المعونة المادية والعسكرية التي قرر اوكتافيوس إرسالها إلى انطونيوس في الشرق[١]. ولما رفض انطونيوس مقابلة زوجته الشرعية، وآثر رفقة الخليلة على التعايش مع زوجته، اقتراح اوكتافيوس منح اوكتافيا شقيقته وليفيا Livia زوجته شرف التساوي مع عذارى وستة آلهة للموقد العائلي الروماني. فاعتبرتا «مقدستين لا تخرق حريتهما» كما اعتبرتا «حرتين غير خاضعتين لأية رقابة» ومنحتا «حق إقامة صور لهما». فأمسى توقير اوكتافيا وتفخيمها تحقيراً واستصغاراً لزوجها انطونيوس الذي امتنع عن قبولها.

٦ ـ اوكتافيوس الأمبراطور

ثم بدأت الحرب الكلامية بين القائدين الكبيرين، يهجوان بعضهما بألسنة سليطة تتفوه بأقبح العبارات وَأَمَجِّها[٢] ويلصقان التهم ببعضهما جاعلين حربهما هذه دفاعية في سبيل المحافظة على كيانيهما. وواكب مجلس الشيوخ هذه الأمور كلها، ولم يغفلها طرفة عين. ولكن أعضاء المجلس كانوا واقعيين يعملون بما تمليه عليهم تطورات القوة التنفيذية المتسلطة. وروابط الحسب والنسب، ودوافع المصلحة الشخصية. ثم جرت الانتخابات القنصلية لسنة ٣٢ ق.م، فوصل إلى هذه المرتبة اثنان من أصدقاء انطونيوس ومؤيديه: دوميتيوس اهونوربوس Domitius Ahenobarbus وغايوس سوسيوس Gaius Sosius حاكم سوريا،

---

(١) كان اوكتافيوس قد تعهد بتجنيد عشرين الفاً من الإيطاليين لمساعدة انطونيوس في الشرق. ولكنه بسبب حروبه لم يستطع ارسال مع اوكتافيا الا ألفي جندي براً من العشرين الفاً وبعض السفن. فرأى انطونيوس في هذا عرقلة لمساعيه في الشرق ولم يسمح لزوجته ان تتجاوز أثينا إلى الشرق، ولم يطلقها فعادت الى إيطاليا.

(٢) رستم، اسد عصر اوغسطس قيصر وخلفائه ١/ ٧٨/٧٧ وفيه وصف كامل لبعض ما جاء على لسان القائدين الكبيرين، وعلى ألسنة مؤيديهما.

ولدى تسلمهما زمام الأمور في اول كانون الثاني ـ يناير سنة ٣٢ ق،م، وقف سوسيوس خطيباً فمدح انطونيوس ولام اوكتافيوس وأوجع. ولكنه ـ غايوس سوسيوس ـ لم ينجح في اتخاذ اي قرار مشيخي باللوم لأن التريبون نونيوس بلبوس Nonius Balbos تدخل واعترض. فأبطل اتخاذ اي قرار ضد اوكتافيوس الذي كان قد تعمد التغيب لتفضي المعارضة بما لديها. ولما حل موعد الجلسة الثانية دخلها محاطاً بجنوده والأصدقاء، ورد على سوسيوس، واقترح متهكماً ان يوزع انطونيوس على جنوده الأراضي في «مادي وارمينيا». ثم احتج على موقف انطونيوس من كليوباطرا وتصرفه بأملاك الدولة لصالح هذه المرأة وأولادها. وقال انه سيوافي الشيوخ في الجلسة المقبلة بما لديه من أوراق ورسائل تثبت سوء تصرف انطونيوس وسوسيوس ايضاً.

خاف سوسيوس وزميله اهينو بربوس مغبة ما جرى، وشاركهما في ذلك الشيوخ اصدقاء انطونيوس، ففروا من روما قبل موعد الجلسة التالية، وابحروا الى أفسس مقر زعيمهم انطونيوس. وكان عدد هؤلاء الشيوخ ثلاثمائة من مجموع الف شيخ يؤلفون مجلس الشيوخ آنذاك.

ثم تبدلت الأمور وتغيرت الأحوال إذ انتقلت الحرب من كلامية الى قتالية بين الاثنين، خاصة بعدما طلق انطونيوس زوجته اوكتافيا بتحريض من كليوباطرا، وبعدما وصل القنصلان الى معسكره، ووصل الشيوخ الثلاثمائة معهم، فاستنكر الجمهور الروماني الموالي لانطونيوس هذه المظاهر. وكان في طليعتهم موناتيوس بلانقوس ونسيبه تيتيوس Titius فإنهما اعلنا فور وقوع الطلاق انضمامهما الى معسكر اوكتافيوس ونقلا اليه محتويات الوصية التي كتبها انطونيوس وأودعها عذارى ويسته Vestaلتفض بعد وفاته. فهب اوكتافيوس لساعته يحاول الحصول على هذه الوصية ليثبت بها ما كان قد شاع عن انطونيوس من تبذير واسراف. ورفضت العذارى تسليم الوصية وقلن لأوكتافيوس: وإذا كان لا بد من الإطلاع عليها، فخذها انت بنفسك. فاخترق اوكتافيوس حرمة المعبد، وتناول الوصية بيده، وفضها. فإذا انطونيوس: يعترف بقيصريون ابناً شرعياً لقيصر. وإذا به يوزع الأراضي الرومانية في الشرق على كليوباطرا

وأولادها. وإذا به يوصي انه في حال وفاته في روما يجب نقل جثمانه الى الاسكندرية. وتليت الوصية تلاوة علنية في مجلس الشيوخ[1]. استغل اوكتافيوس هذا كله في خريف السنة ٣٢ ق.م. وعلا تأييده بالقسم Conguratio واعتباره قائداً عاماً في جهاد مقدس لدرء الخطر من الشرق. وشمل هذا القسم الغرب كله. فنزع اوكتافياس سلطة الحكم الثلاثي من يد انطونيوس واعتبره غير لائق لأن يكون قنصلاً في العام ٣١ ق.م. ثم توجه الى هيكل «بلونا» Bellona إلهة الحرب بصفته رئيس الكهنة الفيتيالس Fitiales وغمس سهماً في الدم، وسدده نحو الشرق بلاد العدو، وأعلنها حرباً مقدسة على كليوباطرا لا على انطونيوس.

وأطلت السنة ٣١ ق.م، فأصبح اوكتافيوس قنصلاً للمرة الثالثة يعاونه في هذه الوظيفة فاليريوس ميسالا قورڤينيوس ـ Valerius Missalla Corvius بدلاً من انطونيوس. وتمت الاستعدادات للحرب، فأقيم مقيناس Maccenos حاكماً على ايطاليا والعاصمة. وأنفذ قورنيلوس غالوس Cornuelius Gallus الى افريقيا ليصد كل هجوم قد يأتي من الشرق. وأقلعت قوة بحرية الى الغرب لتحمي شواطئه. وفي الربيع عبر اوكتافيوس شواطىء الادرياتيك يحيط به عدد من الشيوخ، على رأس ثمانين الفاً من المشاة واثني عشر الفاً من الفرسان، وأربعمائة سفينة حربية بينهما البوارج الثقيلة والسفن الخفيفة السريعة. وقد تولى اغريبا Agrippa قيادة الأسطول. فتمكن من الانتصار على اسطول انطونيوس في قاعدته في خليج امبراكيا Ambracia. ثم كانت معركة اكسيوم Actium الفاصلة حيث استسلم انطونيوس[2] بعد مفاوضة دامت سبعة أيام، وذلك في

---

(١) رستم، اسد عصر أوغسطس قيصر وخلفائه ١/٧٩ وفيه تفاصيل فندها الشيخ قلفسيوس Calavisius تظهر انطونيوس بمظهر الانقياد والخضوع لأوامر سيدة مصر.

(٢) بدأت اعداد كبيرة من جيش انطونيوس تستسلم الى اوكتافيوس وتنحاز اليه. وخاصة اميران من امراء تراقيا ويفلفونيا. فقال اوكتافيوس قوله المأثور: «إني أحب الخيانة ولكني لا أحب الخائنين».

التاسع من أيلول/سبتمبر سنة ٣١ ق.م. فحيّا الجنود جميعهم اوكتافيوس امبراطوراً للمرة السادسة[1].

وفي صيف السنة ٣٠ ق.م تابع اوكتافيوس ملاحقة انطونيوس وجنوده الذين نجوا وفروا الى مصر. فوصلت طلائع جيشه الى ضواحي الاسكندرية في الحادي والثلاثين من تموز/يوليو سنة ٣٠ ق.م. ثم لحق بهم اوكتافيوس ودخل الاسكندرية في الأول من آب/أوغسطس من العام نفسه بدون قتال، لذلك لم يُعَيَّنْ امبراطوراً. لكن دخوله اليها ظهر في التقويم Fasti ليخلد ذكرى خلاص روما من الخطر الذي أحدق بها. واستولى اوكتافيوس على أموال كليوباطرا ونقلها الى روما، فتمكن من سد مطالب الجنود، ودفع أثمان الأراضي التي صودرت، ومن إنشاء بعض المنشآت العمومية، وتوزيع الحصص على أفراد الشعب. فسقطت الفائدة لأجل الديون من ١٢٪ الى ٤٪. في حين انتهت معركة الاسكندرية بانتحار انطونيوس وكليوباطرا، ليصبح اوكتافيوس السيد الوحيد لروما.

٧ ـ أعمال اوكتافيوس الإدارية والسياسية

أ ـ أعماله الإدارية:

عزا اوكتافيوس انتصاره في اكسيوم الى الإله «أبولون» فوسع هيكله فيها. وجعل الاحتفال بعيده مساوياً في الأهمية للاحتفال بأعياد «زفس» في أولمبوس. كما خص ابولون في اكسيوم بمقدمات عشر من السفن التي أسرت في الموقعة ضد انطونيوس وكليوباطرا. وأنشأ على شاطىء خليج امبراكيا، حيث أقام معسكره في موقعة اكسيوم مدينة جديدة اسماها «مدينة النصر» Nicopolis وجعلها عاصمة معظم مدن أكرانانيا وأبيروس.

وجعل اوكتافيوس مصر ولاية رومانية مرتبطة بشخصه مباشرة. ونظم

---

(١) اخذ اوكتافيوس لقب الامبراطور Imperator لأول مرة سنة ٤٠ ق.م

شؤونها تنظيماً خصوصياً. وثبت هيرودوس في الحكم على فلسطين ما عدا عسقلان. وأعاد لمدن الساحل الفينيقي سابق حريتها[1] وفضلاً عن ذلك خص مدينة بيروت بعطفه، لقيامها في وجه كليوباطرا، فوسع سلطتها. وضرب عنق الكسندروس امير حمص لوقوفه الى جانب انطونيوس. وحرّر «خلقيس» البقاع - مجدل عنجر - وكافأ ليسنياس Lissinias اميرها بعد وفاته بأن جعل ابنه ذينودوروس Zenodorus حاكماً على أبيلا Abila - وادي بردى - ولم يثأر للرومانيين الذين ذُبحوا في أرمينيا. واكتفى بأن ابقى آرتاكس Artaxes ملك أرمينيا، وأخاه رهائن لديه. وثبّت معظم أمراء آسيا الصغرى، في ما كانوا عليه، لبذلهم الطاعة له قبيل انتصاره، ونزولهم على حكمه. ونالت اسبارطه Isparta ثقته واهتمامه، لذا توسعت توسعاً ملموساً، وسيطرت على الألعاب الأكتية.

وجرّد لقينيوس قراسوس Licsnius Crassus، زميل اوكتافيوس في القنصلية - للمرة الرابعة - ووكيل أعماله في إدارة شؤون البلقان، حملة على قبيلة عرفت بالبسترناي Bastarnae عبرت الدانوب وعاثت في البلاد فساداً. فذبح ملكها «دلدو» Deldo وعدداً كبيراً من أتباعه.

ودفع اوكتافيوس لجنوده تعويضاتهم كاملة، ثم أرسلهم الى المستعمرات في إيطاليا، والى بعض المدن في الولايات البعيدة كقرطاجة في افريقيا وياريوم Parium في ميساليا وبيروت.

وكان شخص اوكتافيوس قد أمسى مقدساً Sacrosanetus لا تخرق حرمته، منذ السنة ٣٦ ق.م. ومع هذا تاقت نفسه الى سلطات تريبونية. وهو لا يستطيع ترشيح نفسه لمنصب التريبون كونه بطريقاً حقيقياً. وحتى يصل الى ما تصبو اليه نفسه تقدم من مجلس الشيوخ في السنة ٣٠ ق.م، طالباً توسيع قدسية شخصه، لتشمل امتيازات أخرى، منها: السلطة على الإكراه، وحقه في تنفيذ صلاحياته خارج المدينة الى مسافة تبعد ميلاً واحداً عن اسوارها. وهكذا فقد فاز بصلاحيات تريبونية واسعة «غير محدودة».

---

(١) يحي، صالح ابن تاريخ بيروت ص ١١ دار المشرق بيروت ١٩٨٦.

ولم يتعرض اوكتافيوس للكاهن الأكبر بشيء، فاكتفى باللقب augur. وأعاد النظر في لوائح الكهنة، بناء على طلب مجلس الشيوخ فملأ المراكز الشاغرة، وأحسن انتقاء الكهنة الجدد، وأعاد الحياة الدينية الرومانية الى سابق رونقها، فاشتهر بمحافظته على التقليد والدستور. وقدّر الكهنة لاوكتافيوس خدماته، فذكر الراقصون Sallii منهم اسمه في طقوسهم. وأوجب مجلس الشيوخ الصلاة لأجله، وسكب الخمور له في جميع المآدب العمومية.

وفي السنة ٢٨ ق.م انتخب اوكتافيوس وأغريبا قنصلين وكانت هذه قنصلية اوكتافيوس السادسة. وامتازت قنصلية هذا العام بعدم تغيب القنصلين عن روما طوال مدة قيامهما بوظيفتهما أو بعنايتهما بالإحصاء لأول مرة بعد السنة ٧٠ ق.م. وقد تحاشى القنصلان اتخاذ اللقب «المحصي» Censor، ولكنهما مارسا صلاحيات الإحصاء Censoriapo-testas بصفتهما القنصلية وبناء على عرف قديم سبق السنة ٤٤٣ ق.م سنة التفريق بين القنصل والمحصي. وكان السبب في هذا التحاشي ان المحصي كان قد أمسى في نظر الرومانيين مؤدب الشيوخ ومجلسهم. فلم يرَ القنصلان موجباً لتغير الشيوخ وإقلاقهم. ورأيا ان يمارسا صلاحيات المحصي بصفتهما قنصلين ليشعر الشيوخ بأن لهم يداً في الإصلاح المنشود. ورضي الشيوخ عن اوكتافيوس وعن زميله وتعاونوا معهما تعاوناً وثيقاً شاملاً.

ب ـ أعماله السياسية

لم يصل اوكتافيوس بعد حروبه الى روما قبل سنة ٢٩ ق.م[1] فدخلها منصوراً. واحتفى به الرومانيون احتفاء كبيراً. وقد حرص هو على أن يكون اكرامهم له لأجل خلاصهم من الخطر الذي أحدق بهم من الشرق. وليس لمناسبة تغلبه على انطونيوس، إذ انه أبى ان يدخل العاصمة زعيماً Dux، بل منقذاً لروما كلها من خطر طارىء عليها. فسرت الشائعة بأنه لو تمَّ انتصار

(١) انتهى اوكتافيوس من حروبه ضد انطونيوس وكليوباطرا، وتحقيق ما طمح اليه في آب/ اغطسس سنة ٣٠ ق.م

كليوباطرا لتمشرقت الدولة بأسرها وأصبحت العاصمة الاسكندرية.

ورغب اوكتافيوس، منذ وصوله الى روما، في اصلاح الإدارة، بعدما تزايد عدد السكان وتكاثرت واجبات الدولة لتنوع الأجناس وتفاوت المواهب، وتضارب الأمزجة والرغائب. لكنه رأى ان لا بُدَ من التمهيد له، بإعادة الطمأنينة الى النفوس، وتنمية الشعور بالاستقرار. فقضى سنتين كاملتين يعمل لتحقيق هذا الهدف. وراح يوزع الحنطة، والحبوب الأخرى بسخاء. وشرع في الوقت نفسه بتشييد المباني العمومية، وشق الطرقات ليشعر بالناس بالاستقرار والطمأنينة. وسدد الديون التي استدانها. وغض النظر عن ديون الآخرين للدولة. واهتم بشأن الشيوخ الذين خسروا اموالهم، فأعاد إليهم كرامتهم. وعمت الثقة الأسواق والمصارف. فتناقصت الفوائد وأمست ثلث (١/٣) ما وصلت اليه في أثناء الحرب الأهلية - من ١٢٪ الى ٤٪.

وأزاح كابوس الحرب عن صدور الناس بإقفاله ابواب هيكل جانوس Janos بالتجلي والاحترام، وأعلن انه أحرق كل الوثائق التي تستذب وتدين.

وإذا كان لقب «امبراطور» Imperator كان قد استُعمل في عهد الجمهورية نعتاً ينعت به القائد المنتصر، وكان هذا النعت يجيء بعد اسم القائد لا قبله. وكان يوليوس قيصر قد أظهر ميلاً لجعل هذا النعت كنية من كناه Cognominae ولكنه لم يثابر على ذلك مثابرة صولا Sulla على الكنية السعيد Felix او مثابرة بومبايوس على الكنية العظيم Magnus. فجاء اوكتافيوس ليجعل في السنة ٤٠ ق.م اللفظ «امبراطور» Praenomen اسمه الأول، فأحله محل الاسم غايوس. وتردى بالأرجواني الكامل في ثوبه. في حين ظل الامبراطور لقباً غير رسمي. وان تيبريوس وغايوس وكلوديوس لم يستعملوه. وأن أول مَن عاد الى استعماله بعد اوكتافيوس في العهد الامبراطوري، كان أوتو Otho.

وقضت سياسة التطمين والمسالمة التي اتبعها اوكتافيوس بإصدار عفو عام

عن كل ما جرى قبل السنة ٢٨ ق.م. فقوبل عمله هذا بارتياح عظيم. وظهرت مسكوكات السنة ٢٨ ق.م تحمل العبارة[١] Liberatis Populi Romani Vindex.

وأراد اوكتافيوس اكتساب عطف وتأييد الجمهور الروماني، والظهور بمظهر المسالم البعيد عن الإكراه البريء من المطاعن المنزه عن النقائص. فأعلن في الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير سنة ٢٧ ق.م للشيوخ أنه ينوي اعادة ما تسلم من سلطان وقوة الى المجلس[٢] فقابله مؤيدوه فيه بوابل من الصياح والاحتجاج والاستنكار. ونزولاً عند رغبة هؤلاء الصاخبين الذين استنكروا استعفاءه قبل القنصلية وقيادة الجيوش فيها، وذلك لمدة عشر سنوات. فاجتمع الشعب في الجمعية الشعبية ووافق على هذه القرارات، فزادها صحة وثبوتاً. ولما كانت هذه الولايات تشغل القسم الأكبر من الجيش. أمسى اوكتافيوس يتصرف بقوة عسكرية كبيرة ويتكلم باسمها. مع ان العرف قضى بألا يمارس وكيل القنصل صلاحياته القانونية والعسكرية في روما بل في الولاية او الولايات التي عين عليها. فإن هذا التصرف لم يشمل اوكتافيوس لأنه كان وكيل قنصل «بروقنصل» في الولايات، وقنصلاً في الوقت نفسه في روما.

وأطلق مجلس الشيوخ في السادس عشر من كانون الثاني/ يناير سنة ٢٧ ق.م على اوكتافيوس لقب أوغسطس Augustus اي الجليل المحترم. وأطلق هذا اللقب نفسه على الشهير سكستيليس Sextilis فراج اللقب الجديد رواجاً ٪كبيراً. وكان لا يُعرف اوكتافيوس بعدئذٍ إلا به. ولم يكن في هذا التلقيب الرسمي اي جديد. فسولا كان «سعيداً» وبومبايوس كان «عظيماً» ولكن كان انتقاء اللقب الجديد موفقاً من الناحية السياسية لأنه حمل شيئاً من التعظيم الديني اذ ذكر الرومانيين بروملوس الـaugusto augurio الذي أسس المدينة.

ولم يكتفِ اوغسطس بهذا القدر من السلطة والسيادة الفعلية الواقعية، فأنشأ

---

(١) ول ديوارانت قصة الحضارة ١٠/٢٧ ـ ٣١.

(٢) م. ب تشارلز وورث الامبراطورية الرومانية ترجمة رمزي عبده جرجس ١٩ دار الفكر العربي ١٩٦١.

لجنة مجلس الشيوخ الدائمة Amici Caesaris أي لجنة «أصدقاء قيصر» لتعد جدول اعمال المجلس. وتألفت هذه اللجنة، من القناصل ومن ممثل عن كل سلطة حكومية أخرى، ومن خمسة عشر عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ ينتخبون انتخاباً لمدة ستة اشهر. فيضيق بذلك مجال البحث في المجلس.

وعلى الرغم من هذا كله ظل أوكتافيوس او اوغسطس يدعي انه «أعاد الجمهورية الى سالف عهدها، وأنه لم يكن هو سوى مواطن اول Princips» في جمهورية حرة سيدة مستقلة. وكان اللقب لفظاً غير رسمي يشير الى تقدم اوغسطس في الشؤون المدينية. كما أشار اللقب اوغسطس الى مكانته الممتازة في الشؤون والأسرار الدينية. وعني بشبكة الطرقات، وخص الطريق الشمالي الذي ربط روما بأرمينوم Via-Flaminia برعايته. بينما هب اعوانه لإصلاح باقي الطرقات، ثم قضى باقي سنة ٢٧ ق.م في غاليا، والسنتين ٢٦ و٢٥ ق.م في اسبانيا. ولم يعد الى روما قبل ربيع السنة ٢٤ ق.م.

وأحيا اوغسطس في السنة ٢٦ ق.م لمناسبة تغيبه عن روما، وظيفة ناظر المدينة Praefectus urbi. وقد كان ناظر المدينة في العهد الملكي يرأس المجالس القضائية، ويتولى دفة الإدارة في اثناء غياب الملك. ولكن الشيوخ اعتبروا إحياء هذه الوظيفة عملاً غير جمهوري. فاضطر ميسالا أن يستقيل بعد وصوله الى هذا المنصب ببضعة ايام. وفي السنة ٢٦ ق.م انتحر قورنيليوس فأحيلت ممتلكاته في مصر إلى أوغسطس. واحتفل بذلك احتفالاً دينياً على اسمه، فاشتد نفور الشيوخ وتآمروا عليه في السنة ٢٣ ق.م. وكاد يودي بحياة أوغسطس. وكان بطل هذا التآمر القائد «وارو مورينا» Varro Murena الذي تبوأ كرسي القنصلية مع أوغسطس في تلك السنة، وعاونه في ذلك فانيوس كبيو Fannius Caepio.

وعلم أوغسطس ـ اوكتافيوس ـ أن إستمراره في القنصلية يزيد من تفاعل الضغينة ضده. فرأى أن يتركها لغيره على أن يكون الخلف من أنسبائه المقربين ليضمن التفاف الجند حوله وتأييدهم له. فوقع اختياره على مركلوس Mercellus ابن شقيقته اوكتافيا من زوجها الأول. وكان أوغسطس قد زوجه من ابنته ووحيدته «جوليا» Julia في السنة ٢٥ ق.م. كما استصدر له في السنة ٢٤ ق.م

ناظر المصالح العمومية Aedile، قبل أن يجلس على منصة القضاء، في السنة ٢٣ ق.م بموافقة مجلس الشيوخ لتولي الوظائف الكبرى قبل بلوغه السن القانونية. ثم جعل مجلس الشيوخ يسمح له بترشيح نفسه للقنصلية قبل بلوغه السن لهذه الوظيفة بعشر سنوات.

وتنازل اوغسطس عن القنصلية في أول تموز/يوليو سنة ٢٣ ق.م. فقابل مجلس الشيوخ ذلك بتوسيع رقعة سلطته البروقنصلية والاعتراف بها في داخل روما نفسها. ثم منحه في السنة ٢٢ ق.م صلاحية دعوة المجلس الى الاجتماع وعرض الأمور عليه.

وفي السنة ١٩ ق.م أذن له بالجلوس بين القناصل وبإحاطة نفسه بالحجاب الاثني عشر(١) وحتى يوثق أوغسطس امتيازاته التي منحه إياها مجلس الشيوخ، وسياسته في المحافظة على التقاليد الجمهورية. إضطر ان يوطد سلطته غير الاعتيادية على اساس آخر يكون أقرب للتقليد الجمهوري وأكثر ثباتاً. وكان قد تمتع منذ السنة ٣٧ ق.م بصلاحيات تريبيونة، شعبية واسعة دون أن ينتخب تريبوناً. فوُجدت هذه الصلاحيات المستمدة من الشعب في السنة ٢٣ ق.م واعتبرت سلطة تريبونية Tribunicia رسمية. ولما كان واجب التريبون هو حماية الشعب ورفع الظلم. قرر في أن يكون العاشر من كانون الأول/دسمبر من كل سنة - يوم وصوله الى السلطة. واليوم الذي باشر فيه كل تريبون أعماله وصلاحياته - يوم السلطة dies imperii. ومن هنا كذلك تاريخ بياناته الرسمية بالنسبة الى بدء ممارسته التريبونية. ومن هنا ايضاً قول المعاصرين: ان السلطة التريبونية اهم من السلطة العسكرية. ولم يكتف أوغسطس بهذا القدر، بل جعل مجلس الشيوخ والشعب معاً يمنحون هذه السلطة الشعبية بمجلس خصوصي عُرف بمجلس السلطة التريبونية Comitia potestatis Tribuniciae وأصدر قانوناً Lex de Imperio بيّن فيه جميع هذه السلطات التي تجمعت بين يديه.

وتوفي صهره ووريثه مرقلوس إثر مرض عضال أصابه في خريف السنة ٢٣

(١) م.ب تشارلز وورث الامبراطورية الرومانية ص: ٢٣.

ق.م. فاختار أوغسطس عنه صديقه الأمين اغريبا، وزَوّجَه في السنة ٢١ ق.م من ابنته «جوليا» عله يرزق بولد ذكراً يكون وريثه في ما بعد، ويتولى الوصاية عليه اغريبا والده الى ان يبلغ فرزقا غايوساً ولوقيوساً Gaius et Lucius. وأَشْرَكَ أوغسطس في السلطتين التريبونية والبروقنصلية السنة ١٨ ق.م اغريبا، فأوجد لروما خلفاً يدير شؤونها في حال وفاته. لكن الفارق الوحيد بين سلطته التريبونية وبين سلطة أغريبا، أن هذه كانت لمدة خمس سنوات فقط. بينما تلك استمرت في يدي أوغسطس ما دام حياً. ومن أعماله في السنة ١٨ ق.م اصداره الشرائع اليوليوسية Leges Juliae بالتعاون لآخر مرة في هذا المضمار مع الكوميتات Comitias. وكانت هذه الشرائع اليوليوسية في الواقع مجموعة قوانين جديدة حددّت الأجرام المتنوعة وأوضحت اصول المرافعات. كما نظرت في الآداب العامة[١].

وجددت بروقنصلية أوغسطس، في السنة ١٣ ق.م خمس سنوات أخرى. كما جددت تريبونية أغريبا مدة مماثلة. ولما انتهت مدة بروقنصلية اوغسطس في السنة ٨ ق.م، جُدِدَت عشر سنوات اخرى، وأشرك تيبريوس فيها بعدما كان اجبره على الزواج من «جوليا» Julia ـ ارملة اغريبا ـ في السنة ١١ ق.م. وفي السنة السادسة نال تيبريوس التريبونية لمدة خمس سنوات. الا ان هذا الأخير اعتزل الحياة المدنية والسياسية واعتكف في جزيرة رودوس.

ولم يرشح نفسه للتريبونية عند انتهاء مدتها في السنة ١ ق.م[٢]. ولم يعد تيبريوس الى روما قبل السنة الثانية الميلادية.

---

(١) ومن ذلك أنها اعادت النظر في جرم الخيانة Maistas. فكما كان شيشرون قد اعتبر خائناً كل شخص ينقص بالقول او بالفعل من وقار الشعب او عظمته او سلطته، جاء الشرع اليولوسي على ذلك واعتبر خائناً كل شخص ينقص بالقول أو بالفعل من وقار المواطن الأول الذي حل محل الشعب بكامله بموجب هذه القوانين الجديدة.

(٢) اعتزل تيبريوس الحياة السياسية والمدنية، واعتكف في جزيرة رودوس دارساً النجوم =

وشاءت الظروف ان يجتمع اوغسطس وتيبريوس ثانية بعد ما توفي لوقيوس في السنة ٢م. وغايوس في السنة ٤ م. حفيدي أوغسطس. واتفقا ـ اوغسطس وتيبريوس ـ على المشاركة في الحكم السنة ١٣ م، قبل ان يموت اوغسطس صيف السنة ١٤ م. ولكن الامبراطورية الرومانية التي ظل امبراطوراً لها حوالى ٤٥ عاماً إستمرت بعده حتى سقوطها في العام ٤٧٦ م.

جـ ـ ألقابه وصلاحياته

إزاء عجز مجلس الشيوخ عن تنظيم العالم الروماني، وضعفه في أحكام الإدارة، قلد أوغسطس قيادة الجيش، وولاه حكم أهم الولايات. وأعطاه حقوق الترابنة، وتفسير القوانين. واعتبره حامي دين الأجداد، وأبا موطن الأباء. وكثرت ألقابه، وتعددت، ولكنه آثر منها خمسة كان يستعملها في بياناته الرسمية وأحكامه القانونية. وهي: الحبر الأعظم، القنصل، الأمبراطور، ابو موطن الأباء، التريبون.

= والتنجيم بسبب عبث زوجته «جوليا» وتماديها في الخلاعة والمجون، ولم يعد الى روما الا بعد ان أبعدها والدها أوغسطس في السنة الثانية الميلادية الى جزيرة بندتيريا Pandateria وشفاعة غايوس حفيد أوغسطس.

أولاً: المراجع العربية

العبادي، مصطفى

١ ـ الامبراطورية الرومانية دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ م

تشارلز وورث، م.ب

٢ ـ الامبراطورية الرومانية ترجمة رمزي جرجس دار الفكر العربي ١٩٦١م

رستوفتزف. م

٣ ـ تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، مترجم، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧ م.

تونبي، أرنولد

٤ ـ تاريخ الحضارة الهللينية، ترجمة رمزي جرجس الانجلو المصري ١٩٦٣ م

نصحي، ابراهيم

٥ ـ تاريخ الرومان جزءان منشورات كلية الآداب الجامعية الليبية ١٩٧٣ م

علي، علي عبد اللطيف أحمد

٦ ـ التاريخ الروماني، عصر الثورة من تيبريوس جراكوس الى اوكتافيوس اوغسطس دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ م

ماغريغور، ماري

٧ ـ التاريخ الروماني تعريب امين سلامة دار الفكر العربي بمصر ١٩٥٩ م

رستم، اسد

٨ ـ تاريخ اليونان من فيلبيوس المقدوني الى الفتح الروماني جزءان منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩

دونالد دوبي

٩ ـ حضارة روما ترجمة جميل يواقيم الذهبي وفاروق فريد دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦١ م.

الشيخ، حسين.

١٠ ـ الرومان دار المعرفة الجامعية الاسكندرية

رستم، أسد

١١ ـ عصر اوغسطس قيصر وخلفائه ١و٢ منشورات الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٦١ م.
ديوارانت، ول.
١٢ ـ قصة الحضارة ترجمة محمد بدران المجلد ٩ و١٠ منشورات جامعة الدول العربية الطبعة الثالثة١٩٧٢ م.
أيوب، ابراهيم رزق الله
١٣ ـ محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية ١٩٩١ م
مصروعه، جورج
١٤ ـ هنيبعل ١ و٢ بيروت ١٩٥٩م
عبد الوهاب، لطفي.
١٥ ـ اليونان دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩ م

ثانياً: المراجع الأجنبية

M. Rambaud

1- L'art de la deformation historique dans les commentaires de César, Paris 1953.

J. Harmond

2- Une campagne Césarienne 1 Absix. 1967, Eugene, Albertini

3- L'Empire Romain, Collection Peuplesset, Civilisations, P,U,F. Paris

4- Hellenistic Millitary and naval developemente 1907 Marrou

5- History of Education antiquity (trans) 1958

H. Dessau.

6- Inscriptiones latine selectae nos 1-3, 19 1892 - 1919

A Aymard

7- Les deux premiers traités entre Rome et Carthage.

Rev et Anc. 1957. Lix. Etude d'histoire ancienne 1967.

8- P. Lévêque

Pyrrhos 65 Paris 1957.

9- Wissowa.Kroll

Realeneye and oxford class.dict.s.v Comitia etc.

10- Bloch. Carcopino.

La Republique vol.11 1951.

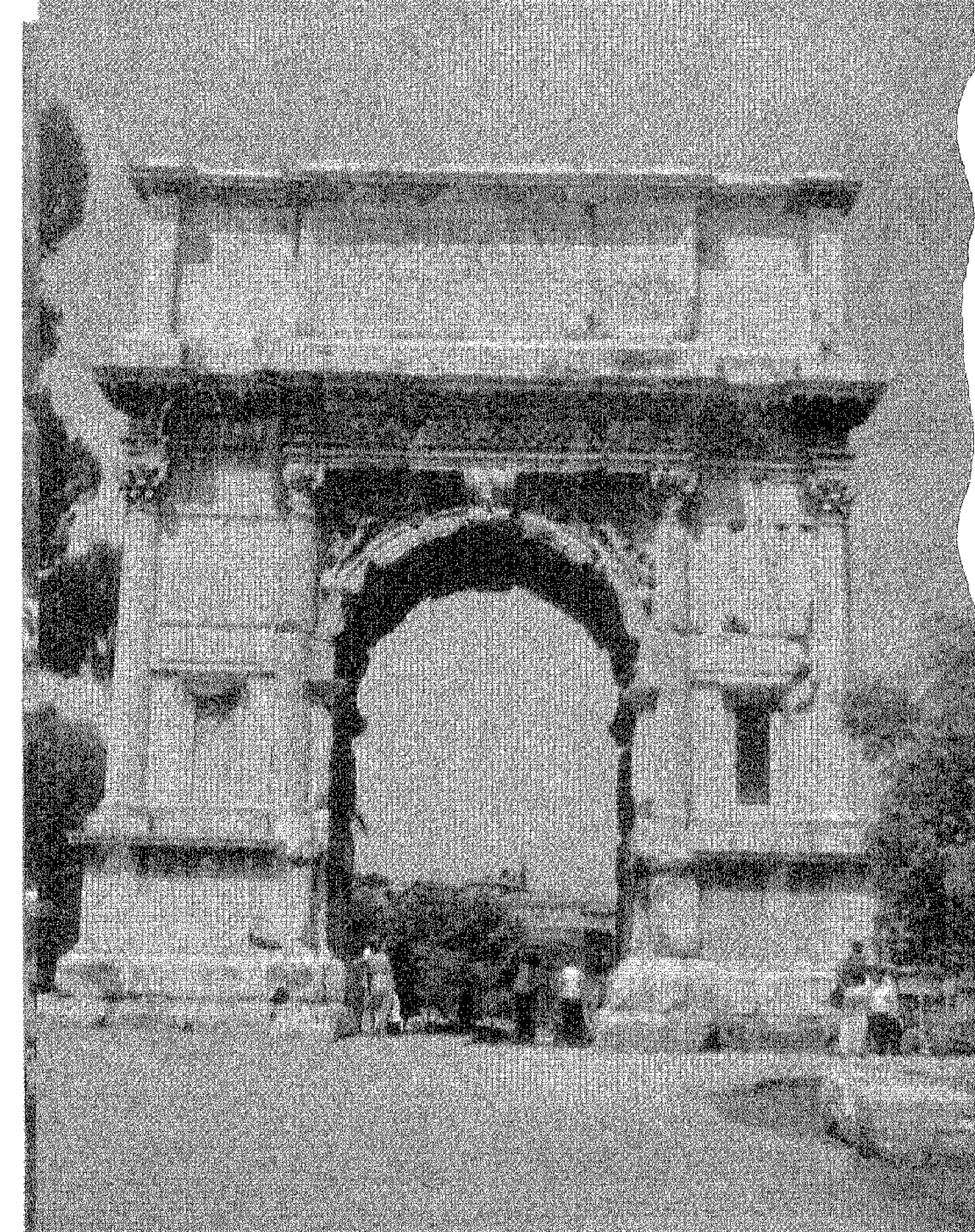
11- A.E. Astin

Scipio Aemilianus, p.p.332.

12- Scullard H.H. 1970 n10 p.p 388- 89.

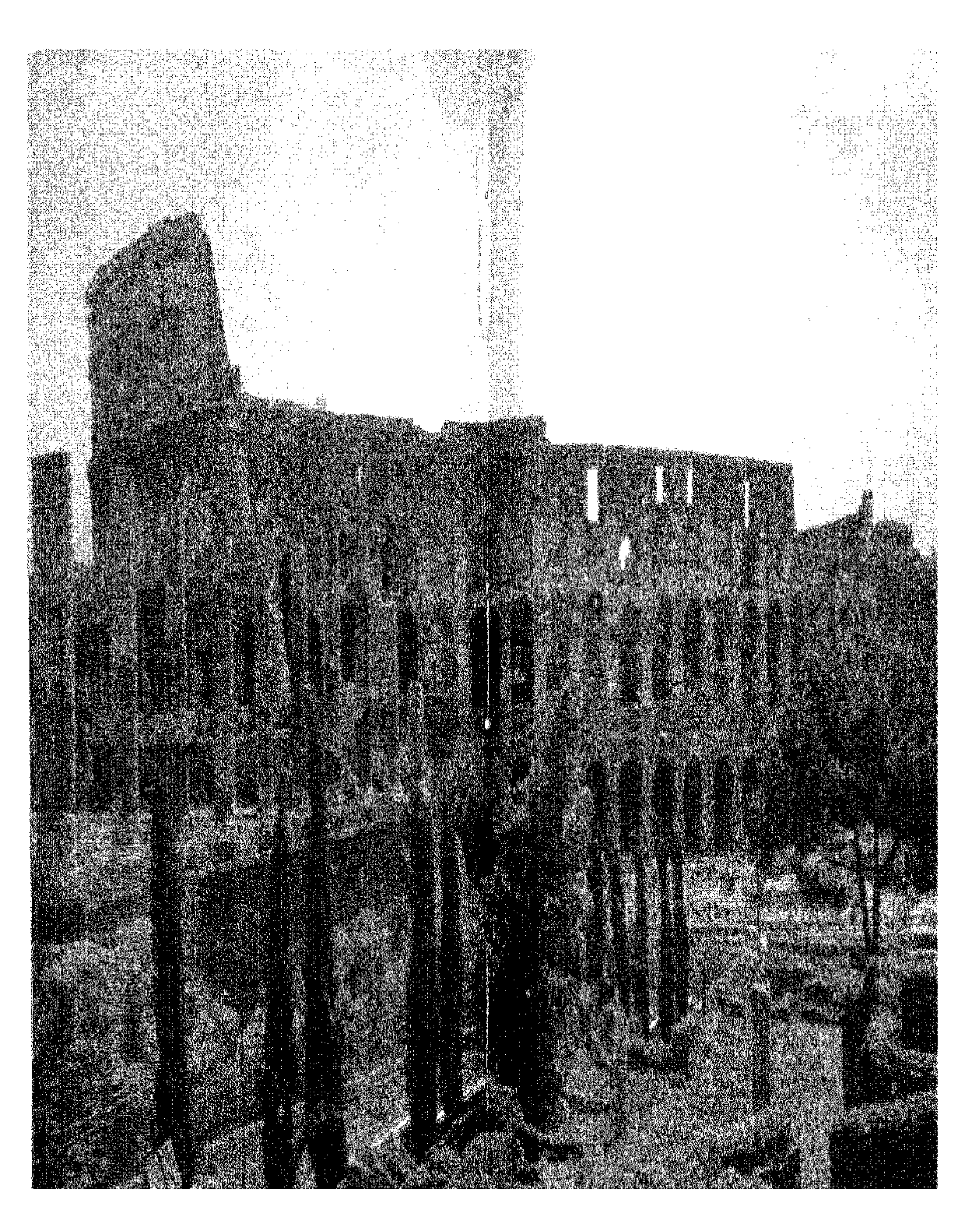
13- P. Willemas.

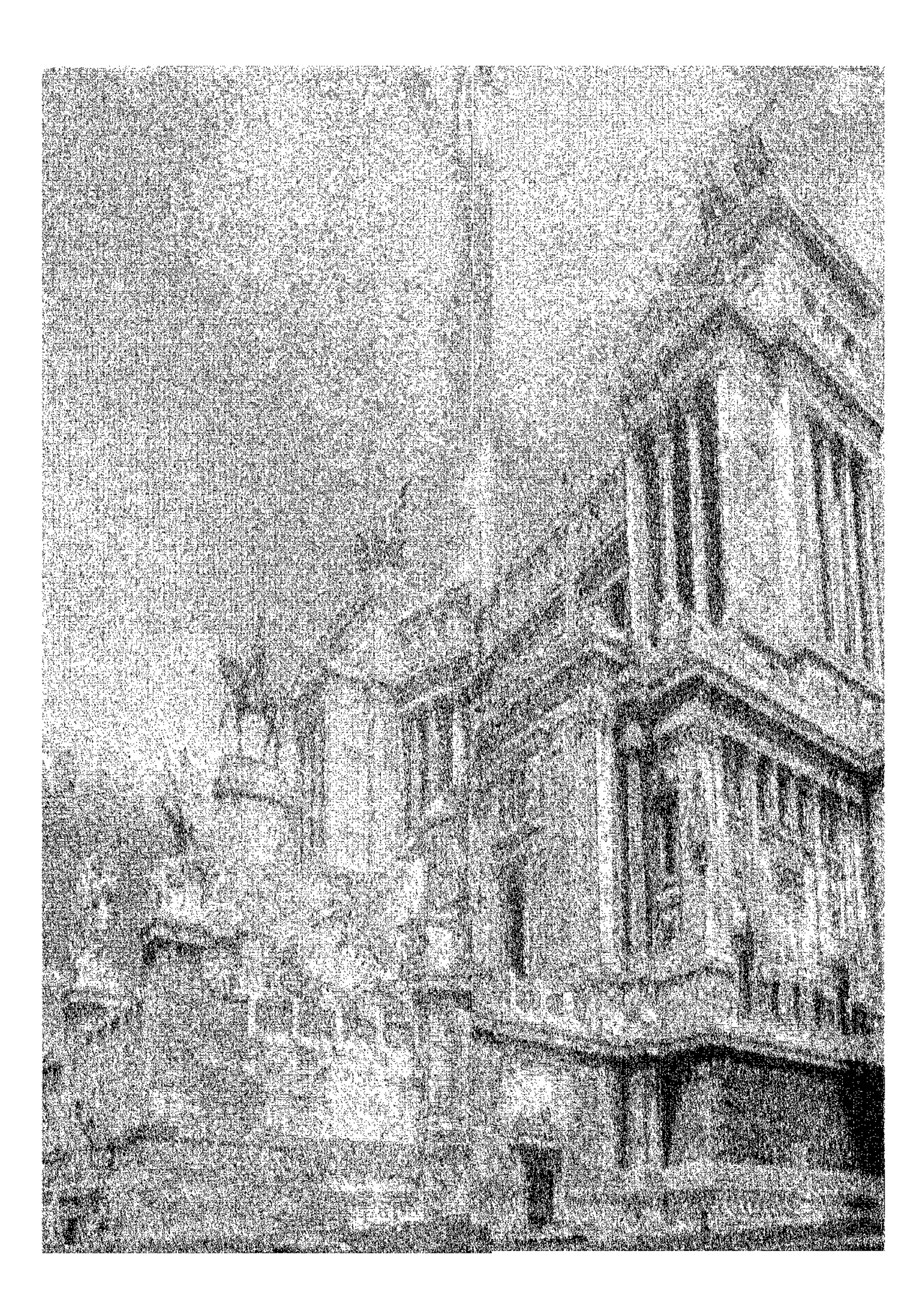
Le Sénat de la republique romaine 1.

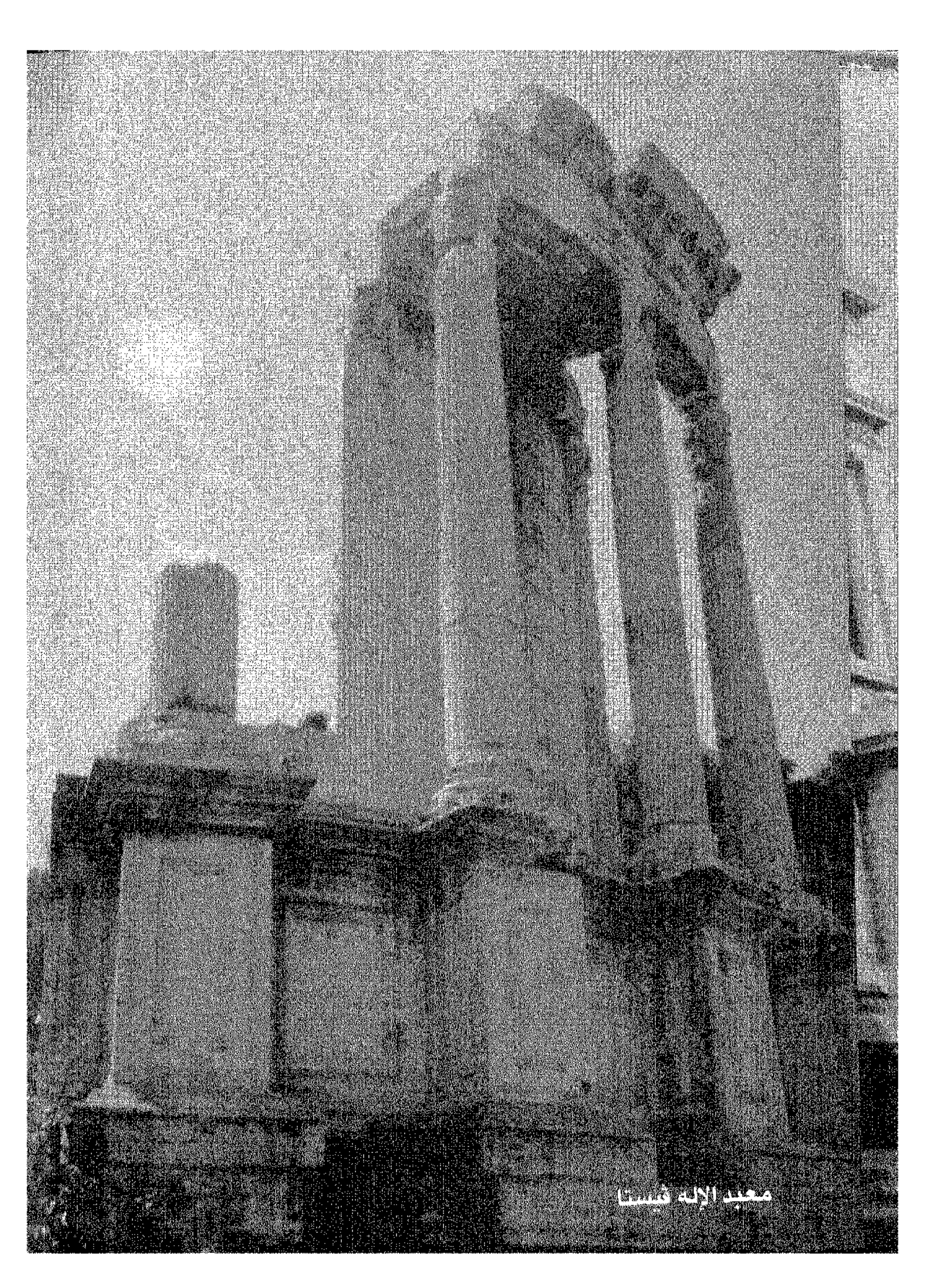


قوس تيتوس

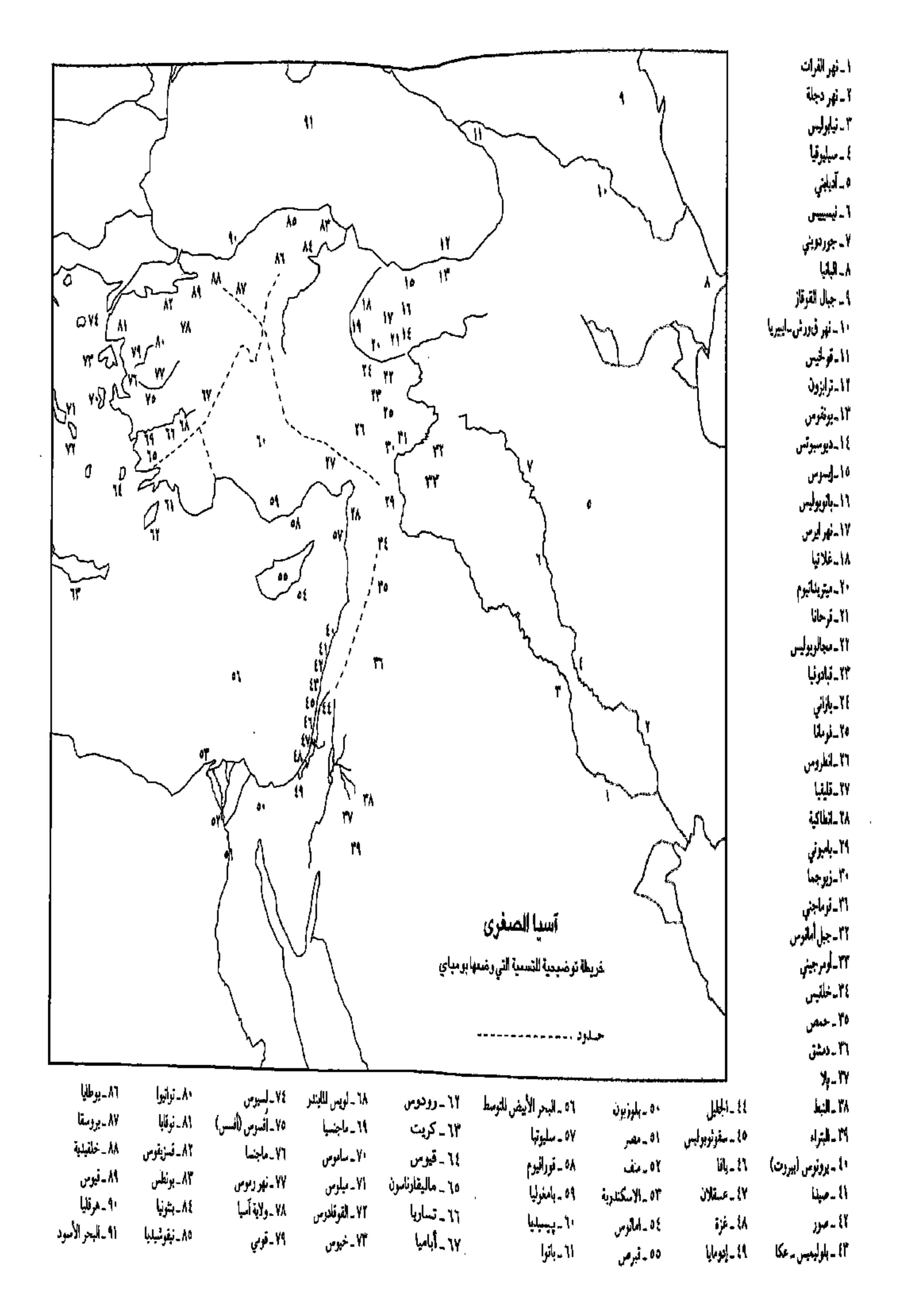


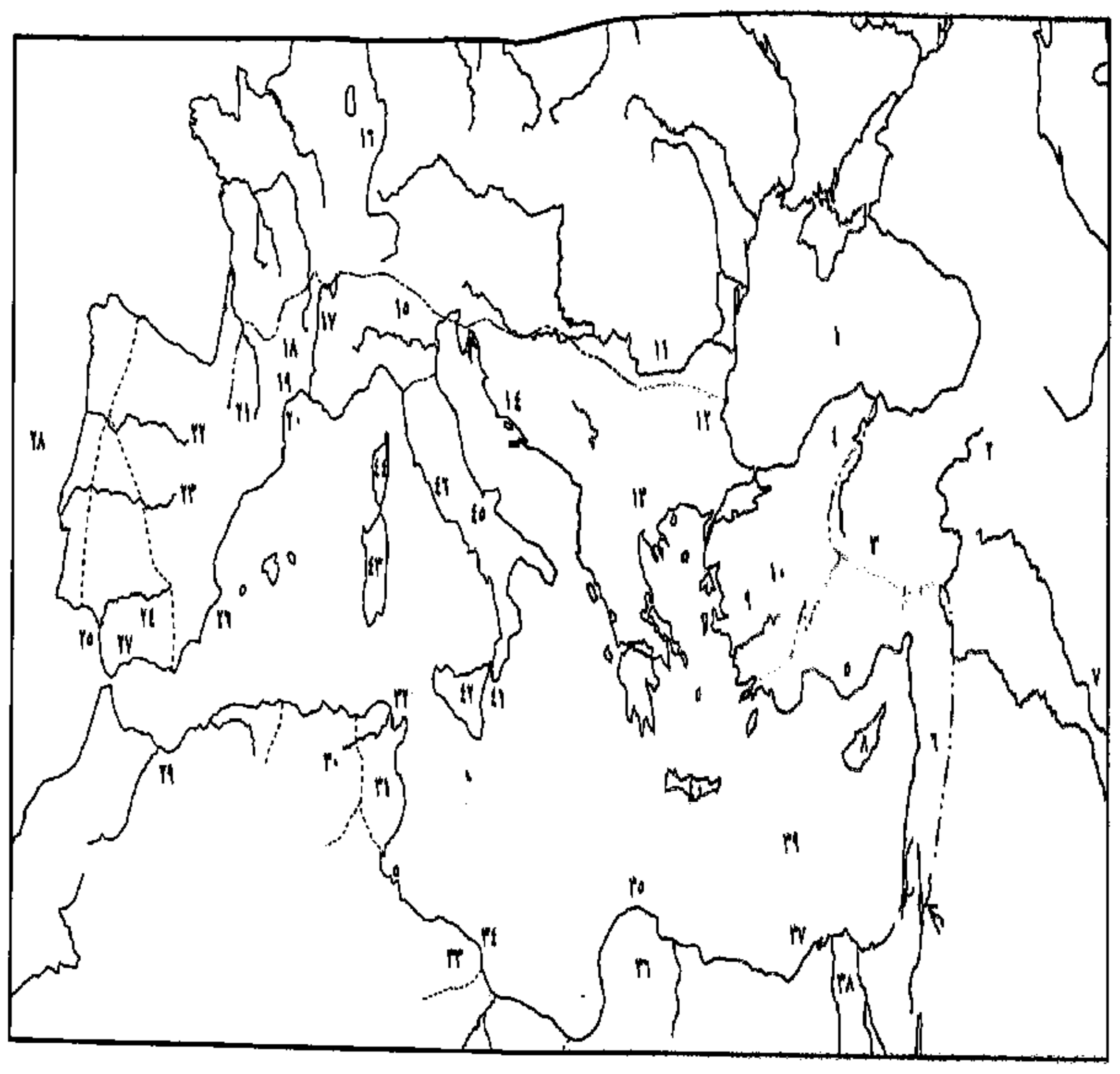






معبد الاله فيستا


آسيا الصغرى
خريطة توضيحية للتسمية التي وضعها بومباي
حدود
١ ـ نهر الفرات
٢ ـ نهر دجلة
٣ ـ نيابوليس
٤ ـ سيليوقيا
٥ ـ آديابني
٦ ـ نيسيبيس
٧ ـ جوردويني
٨ ـ البانيا
٩ ـ جبال القوقاز
١٠ ـ نهر فى ورش ـ ايبيريا
١١ ـ قولخيس
١٢ ـ ترابزون
١٣ ـ بونقوس
١٤ ـ ديوسبونس
١٥ ـ ايسرس
١٦ ـ بانوبوليس
١٧ ـ نهر ايرس
١٨ ـ غلاتيا
٢٠ ـ ميتريداتيوم
٢١ ـ قرحانا
٢٢ ـ مجالوبوليس
٢٣ ـ قبادوقيا
٢٤ ـ بازاني
٢٥ ـ قوملنا
٢٦ ـ انطروس
٢٧ ـ قليقيا
٢٨ ـ انطاكية
٢٩ ـ بامبوتي
٣٠ ـ زيوجما
٣١ ـ قوماجني
٣٢ ـ جبل أمانوس
٣٣ ـ أومرجيني
٣٤ ـ خلقيس
٣٥ ـ حمص
٣٦ ـ دمشق
٣٧ ـ بلا
٣٨ ـ النبط
٣٩ ـ البتراء
٤٠ ـ بروتوس (بيروت)
٤١ ـ صيدا
٤٢ ـ صور
٤٣ ـ بطوليميس ـ عكا
٤٤ ـ الجليل
٤٥ ـ سقوتوبوليس
٤٦ ـ يافا
٤٧ ـ عسقلان
٤٨ ـ غزة
٤٩ ـ إدوميا
٥٠ ـ بلوزيون
٥١ ـ مصر
٥٢ ـ منف
٥٣ ـ الاسكندرية
٥٤ ـ اماتوس
٥٥ ـ قبرص
٥٦ ـ البحر الأبيض المتوسط
٥٧ ـ سليوتيا
٥٨ ـ قوراقيوم
٥٩ ـ بامفوليا
٦٠ ـ پيسيديا
٦١ ـ باتوا
٦٢ ـ رودوس
٦٣ ـ كريت
٦٤ ـ قيوس
٦٥ ـ ماليقارناسون
٦٦ ـ تساريا
٦٧ ـ أباميا
٦٨ ـ لوبس للاليندر
٦٩ ـ ماجنسيا
٧٠ ـ ساموس
٧١ ـ ميلوس
٧٢ ـ القوقلدوس
٧٣ ـ خيوس
٧٤ ـ لسبوس
٧٥ ـ أفسوس (افسس)
٧٦ ـ ماجنسا
٧٧ ـ نهر رموس
٧٨ ـ ولاية آسيا
٧٩ ـ قومي
٨٠ ـ تراتيوا
٨١ ـ نوقايا
٨٢ ـ قسزيقوس
٨٣ ـ بونطس
٨٤ ـ بثونيا
٨٥ ـ نيقونيديا
٨٦ ـ بوطايا
٨٧ ـ بروسقا
٨٨ ـ خلقيدية
٨٩ ـ قيوس
٩٠ ـ هرقليا
٩١ ـ البحر الأسود



الامبراطورية الرومانية

حوالي العام ٦١ ق.م.

ـ حدود بين الولايات ....

ـ حدود بين الامبراطورية وبقية المناطق ————

١ ـ البحر الأسود
٢ ـ أرمينيا
٣ ـ قبادوقيا
٤ ـ بيثونيا
٥ ـ قيليقيا
٦ ـ سوريا
٧ ـ بارثيا (فارس)
٨ ـ قبرص
٩ ـ برجام
١٠ ـ آسيا

١١ ـ نهر الدانوب ـ الدانوب
١٢ ـ تراقيا
١٣ ـ مقدونيا
١٤ ـ اتوريا
١٥ ـ غاليا (هذه الناحية من الألب)
١٦ ـ نهر الراين
١٧ ـ نهر الرون
١٨ ـ غاليا جبال الألب
١٩ ـ ماسيليا (مارسيليا)
٢٠ ـ ناربنيم

٢١ ـ جبال البرانس
٢٢ ـ نهر الأبرو
٢٣ ـ اسبانيا الدانية
٢٤ ـ اسبانيا القاصية
٢٥ ـ قادش
٢٦ ـ قرطاجة
٢٧ ـ ايتاليكا
٢٨ ـ المحيط الأطلسي
٢٩ ـ موريتانيا
٣٠ ـ نوميديا

٣١ ـ أفريقيا
٣٢ ـ قرطاجة
٣٣ ـ طرابلس
٣٤ ـ لبدة
٣٥ ـ قوريني
٣٦ ـ قوريناة
٣٧ ـ الاسكندرية
٣٨ ـ مصر
٣٩ ـ البحر الأبيض المتوسط
٤٠ ـ جزيرة كريت

٤١ ـ سراقوسة
٤٢ ـ صقلية
٤٣ ـ سردينيا
٤٤ ـ قورسيقا
٤٥ ـ ايطاليا
٤٦ ـ روما

ISBN 1-55206-050-0
9 781552 060505